PDF Eraser Free

عرعار محمّد العالي

ما لا تذروه الرياح

قصة

* الأخلاق *

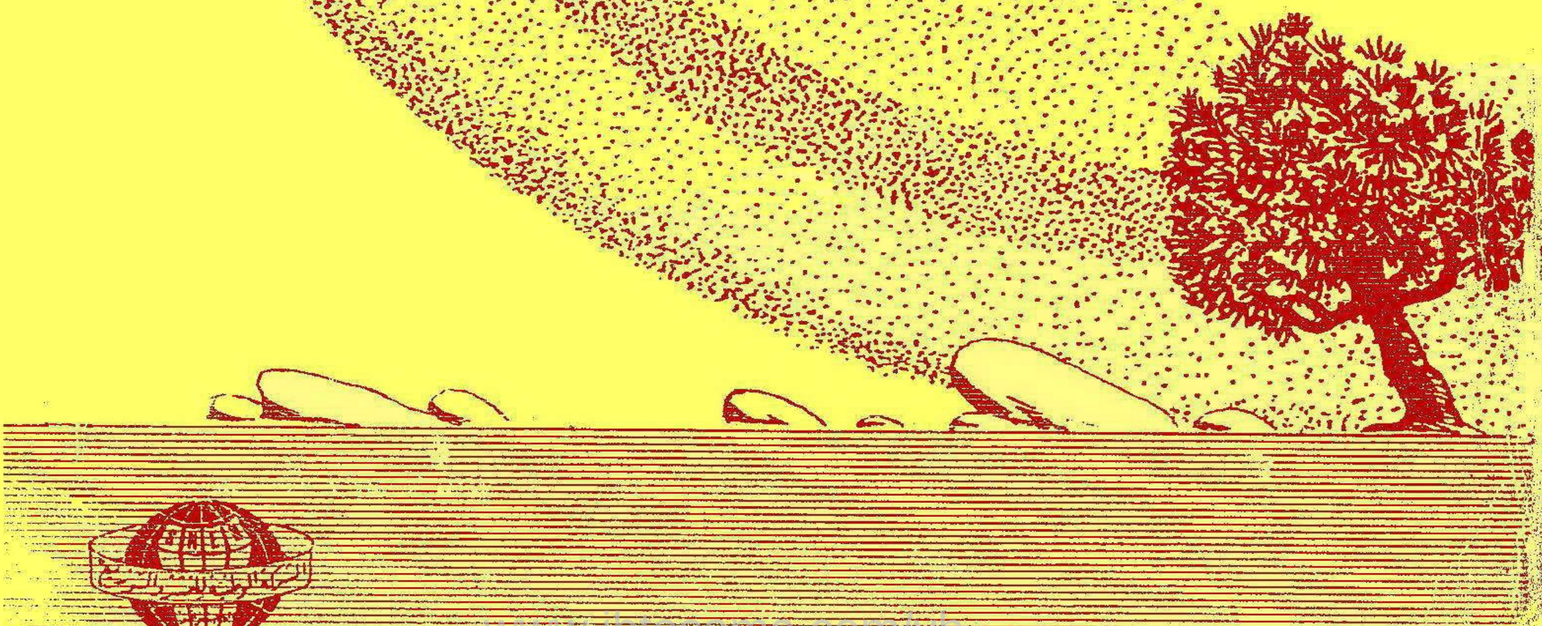

www.ibtesama.com/vb

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

عرعار محمد العالي

مـا لا تذروه الريـاح

قصــة

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
3 ، شـارع زيروت يوسـف
الجزائــر

PDF Eraser Free

رقم النشر 280/72
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ©
الجزائـــر

PDF Eraser Free

الفصـــل الأول

وقف بلقاسم في وسط الجماعة يتكلم بطلاقة وبلاغة ، والسرور يمــلأ صدره ، ويبعث في نفسه الشــجاعة للمزيد من الكلام والخطابة :

ــ ان هذا اليوم ليوم سعيد واني مسرور جدا .. فحضوركم قد بعث فينا البهجة والفرح ، واني أشكركم من كل قلبي . وان ابني العباسي ليشكركم كذلك على حضوركم الذي شرفتم به زفاف أخيه البشير .. فهيا اهتفوا يا رجال وغنوا لزفاف ابني .

كانت الجماعة التي يتكلم معها بلقاسم تتألف من خمسة رجال وكان هؤلاء الرجال يرتدون اللباس المحلي ، ويجلسون داخــل غرفة صغيرة ، يكاذ سقفها يسقط على رؤوسهم .. تنحنح الرجال عندما وجه لهم بلقاسم العبارة الأخيرة ، وارتبكوا ولم يعرفوا ماذا يفعلون . فراحوا ينظرون الى بعضهم البعض ، يتساءلون بأعينهم ، ويجاوبون بأعينهم ، واحد منهم يمسد شاربه الأبيض الكثيف والآخر يصلح من عمامته الطويلة ، والرابــع يشبــك أصابعه ، والخامس يتصنت الى اصطكاك نابيه .

ولكن لم يستطع أي واحد منهم أن يلفظ كلمة أو يرفع رأسه الى بلقاسم . انهم لا يجدون في أنفسهم دافعا للغناء والمرح .

ــ هيا يا جماعة ، غنوا واهتفوا لفرح ابني البشير

PDF Eraser Free

رجع بلقاسم يطلب من الحاضرين المشاركة في الغناء والابتهاج .. على كل انه يعرف لماذا لم يستجب الرجال لنداءاته المتكررة .

فالتفت الى ابنه العباسي ورفع يديه . وعند ذلك نهض العباسي وقال :

ــ على كل حال يا جماعة ، ان الحفل الذي نقوم به الآن ، ما هو سوى حفل صغير ، نريد بواسطته أن نسمح لأخينا البشير أن يتزوج ويقيم بيتا لنفسه .. ثم لقد ذهبت الى المدينة واتصلت بالمسؤول العام وتسلمت منه تسريحا . لهذا ياجماعة ، فاننا نستطيع أن نغني ونفرح دون خشية ..

انتهى العباسي من كلامه ، ولم يجد شيئا آخر يقوله . لكنه شعر أن حلقه قد جف ويبس ، فمد يده نحو الابريق وصب لنفسه شيئا من الماء ، عبه في لحظة ثم هب واقفا ، وكأن كمية الماء التي شربها بعثت فيه النشاط فجأة . فخلع برنوسه عن ظهره ، ووقف في مواجهة الحاضرين العبوس ، وآخذ يستعد للغناء والرقص ، وما هي الا لحظة حتى بدأ .. فأخذ يضرب الأرض برجله اليسرى ضربات قوية متزنة ، مرة الى الأمام ومرة الى الخلف ، ويردد أغنية شعبية معروفة ، دون كلل أو تعب فأخذت ضربات رجليه تزداد قوة ، وصوته يعلو ويرتفع .

ان العباسي ليشعر في هذه اللحظة بالسعادة والهناء ، انه يتذكر يوم زفافه .. لقد كان حفل ذلك اليوم البعيد ، أجمل من هذا الحفل بمرات عديدة . انه ليذكر ذلك اليوم المشرق الذي

PDF Eraser Free

عقد فيه قرانه مع ابنة عمــه « هنية » . ان العباســي ليريد أن يكون حفل أخيه مثل حفله هو ، كله ابتهاج وكله سرور .

طلب بلقاسم من الحاضرين المشاركة في الرقص .. فانتصب الرجال وقوفا دفعة واحدة .. فانقسموا الى صفين متقابليــن وراحوا يرددون الأغنية بأعلى أصواتهم .

استمر الغناء والرقص فترة من الزمن وطرب الحاضرون .. وعند نهاية الأغنية دلفت الى الغرفة زوجة بلقاسم وهي تزغرد .. فسكت الرجال وراحوا ينصتون الى الزغردة .. وعندما انتهت زوجة بلقاسم من مهمتها ، قالــت :

ــ يا بلقاسم ، تعال قليلا .

تقدم بلقاسم وقال :

ــ هل العروس فى حالة جيدة ؟

ــ انها فى الغرفة المجاورة وهي تشكو مــن الصخب الــذي أحدثتموه .

ــ قولي انها تشكو منك أنت ، ومن زغردتك ..

أتركينا من هذا الحديث ، واعلميني ان كان والد الفتاة هنا

ــ انه ليس هنا .

ــ وأمها ؟

ــ انها هنا .

PDF Eraser Free

ــ حسن اذن . ولكن قولي لي ، متى يأتي العشاء ؟ ان الرجال قد سئموا الانتظار ، ويريدون الانصراف الى بيوتهم ، فاسرعي وانهي الأمر .

انصرفت زوجة بلقاسم وهي تمسك بيديها شالها النازل على كتفيها .. ودخلت الى غرفة مجاورة واسعة ، فيها مجموعة من النساء .. وصـــاحت :

ــ يا أم العروس ان الــرجال يطلبــون العشاء ، فساعديني واعطيني تلك القصعة .

أخذت زوجة بلقاسم القصــعة وذهبت الى القدر ، وملأتها « عيشا » وروته بالمرق المشحم ، وزرعت فوقه قطع من اللحم بيد بخيلة .. ان زوجة بلقاسم ليست بخيلة بطبعها لكن قطــع اللحم محسوبة على عدد الضيوف . لكل ضيف قطعة .

حملت القصعة الخشبية بين يديها ، ورفعت رأسها قليلا لتتجنب بوجهها البخار الساخن المتصاعد .. فكانت في هذه الصورة ، تشبه ساحرة شمطاء ، تحرق البخور في قدر بين يديها ، وتقرأ في السحاب المتصاعد آيات الغيب .. وعندما وصلت الى الغرفة المخصصة للرجال ، أنزلت حملها الثقيل بين الجماعة .. وقالت :

ــ كلوا يا رجال ، كلوا واشربوا هنيئا .

ثم خرجت وبعد لحظة قصيرة عادت بكوب من الماء وقالــت من جديد :

ــ كلوا واشربوا يا رجال .

PDF Eraser Free

فاقترب الرجال من القصعة ، وكأن دفأها بعث فيهم الشجاعة .. فتحلقوا حولها ، وانهمك كل واحد منهم في قذف الطعام داخل جوفه . وحينما كان الطعام يحرق آحدهم ، كان يلتجيء الى الماء ، فيجرع منه كمية ، تطفيء حريقه ، ثم يلفظ عبارة « الحمد لله » .. فيرد عليه الآخرون « في صحتك »

واستمر الحال هكذا فترة من الزمن وحينما رأى الرجال أن ملاعقهم ، بدأت تصطدم بالقاع الخشبي ، وتنزلق عليه ، اصطنعوا الأدب ولم يتلهفوا فكانوا يرفعون اللقمة الى أفواههم بطريقة بطيئة ، تسمح لهم أن يتلفظوا في بعض الأحيان ببعض العبارات المضحكة .. فكان أحدهم يقول ورذاذ الطعام يتطاير من بين شدقيه :

ــ انه لطعام شهي ، الحمد لله ، الله يكثر خيركم .

وكان آخر يقول :

ــ ان النساء يجدون طبخ مأكولات الأعياد ، يا ليت كل الأيام كانت أعيادا ..

ثم تأتي القهوة وترفع القصعة ، وتفرغ الفناجين ، ويحين موعد الرحيل ، ويستعد كل واحد لمغادرة البيت والخروج .. ان الساعة الآن الثامنة مساء .

نهض الجميع ، ولم كل واحد ثيابه ونظمها ، ولبس حذاءه وقال وهو يودع بلقاسم وابنه العباسي :

ــ شكرا كثيرا .. شكرا كثيرا .

وعندما ذهب الجميع وران الصمت على المكان ، دخل العباسى

PDF Eraser Free

من جديد الى الغرفة ، ثم تبعه بلقاسم .. دام السكوت برهة ثم سأل الأب الابن :

ــ هل ستبقى هنا مع العائلة ؟

ــ نعم ، لكن بعد ثلاثة أيام نعود الى البلدة .

ــ هل رأيت أخاك اليوم ؟

ــ نعم ، لقد رأيته .. انه مع أصحابه .

هل تعتقد أنك تستطيع أن تحصل له على عمل ، هناك في البلدة معك ؟

ــ كن مطمئنا يا أبي ، سأجد له عملا معي.. أما من ناحية السكن فسأتركه يقاسمني مسكني ، الى أن أجد له بيتا مستقلا .

ــ اني أخشى ان بقي هنا ، أن يأخذه المجاهدون .. فقد سمعت عندما مروا في احدى المرات من هنا ، أنهم يريدون أخذه .

ــ سيفعلون ذلك آجلا أو عاجلا .. وليس من حقنا أن نرفض .

ــ صحيح يا بني .. ولكن ..

لفظ بلقاسم الكلمة الأخيرة وسكت ، لقد فهم أنه لا يوجد تفسير يمكن له به الاحتجاج .. ففهم العباسي ما أراد أن يقوله والده ، ولكي يخفف عليه الوطء قال :

ــ خفف عليك يا أبي .. ان البشير ما زال معنا .

ثم نهض من مكانه وذهب الى أحد الأدراج وفتحها ، وأخرج منها حزاما نسائيا ، يتكون من عدة خيوط صوفية سوداء ، غير

PDF Eraser Free

مفتولة ، لكنها ممسوكة ومشدودة من بعض الأمكنة بكمية من الخيوط الرقيقة البيضاء ، تشبه الأسلاك الفضية . أخذ العباسي هذه الأشياء ، ورجع الى مكانه والصمت يرين على الغرفة ، وأخذ بسهل وطمأنينة ، يشتغل في اتمام الحزام الجديد .

راحت يده اليسرى تلف وتشد الأسلاك الفضية حول الخيوط الصوفية في نهايتها بقوة ، بينما كانت يده الأخرى مشغولة بمسك الحزام ..

ان المهارة التي يمتلكها العباسي في هذه الحرفة تعتمد على النشاط واللباقة التي تتجلى في يده اليسرى ، لقد صنعت هذه اليد ما يتعدى على ألف حزام كلها متشابهة ، لا يستطيع الانسان تفريق واحدة على الأخرى من أي ناحية ، وما هي الا مدة قصيرة حتى ذاب العباسي في عمله ولم يعد يحس بما حوله ، ان انتباهه كله موجه الى يديه .. ولن يتحرك من مكانه الا بعد أن يتم عمله تماما ، ويرضى عليه كل الرضا .. فهذا الحزام ، يخالف الأحزمة الأخرى ، التي سبق له آن صنعها .. ففي هذا الحزام يجب آن تتجلى روحه الأخوية الطيبة ، ويلوح شعوره الصميم بالفرحة والسعادة .. فهذا الحزام سيكون هدية منه لزوجة أخيه البشير .. سيكون هو الرابطة التي تجمعهما ، وتعبر عن شعور كل منهما اتجاه الآخر .. وعندما رأى بلقاسم من ولده ما رأى ، حبذ أن يخرج ويستنشق بعض الهواء النقي ..

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل الثانـــي

وقف بلقاسم عند عتبة الباب ووضع يديه في جيبي سرواله هادىء الأعصاب ، منتظم التنفس ، لا يتحرك ، ينتظر وصول القوات العسكرية ، التي ظهرت في الأفق البعيد على شكـــل كتل سوداء ، تمثل سيارات عسكرية ، ملتفة بسحاب من التراب

كانت هذه القوات العسكرية ، تظهر لبلقاسم ، نتيجة وضعه المقابل للشمس المشرقة ، كأنها تخرج بسحر ساحر من الأرض .. فهو ما يكاد يلمح سيارة أولى حتى تخرج سيارة ثانية وثالثة ..

وقف هكذا ينتظر ، وهو لا يدري لماذا ينتظر

ان ابنه في خطر ، تحيط به المصائب من كل جهة ..

لقد مر شهران على يوم زواجه ، شهران ، لم يتمتع فيهمـــا بالهناء الذي يتمتع به المتزوج في أيامه الأولى .. ان زوجته الآن ترتجف ، لا شك أن الدم قد فر من وجهها الجميل .. ذلك الوجه الذي يبعث في الانسان الشعور بالسعادة دون سبب ، ان ربيعة واقفة وراء الباب تختلس النظر من فتحة المفتاح .. آه لو كانت تعرف ما سيحدث الآن ، لما أقدمت على الزواج .. ولكن هـــل كان في استطاعتها أن تعرف ؟ ثم هل كـــان في استطاعتها أن تفعل شيئا آخر ولا تتزوج البشير ؟ لا ، انها تحب زوجها ولا تفضل عليه أحدا .. انه بالنســـبة لها حاضرها ومستقبلها . انه

PDF Eraser Free

لا يبرح ذهنها لحظة ، تراه في كل شيء يقع بصرها عليه .. تراه عندما ترى والده وعندما ترى والدته ، تراه عندما تدخل البيت ، وعندما تخرج الى الفنـــاء .. تـــراه فى أثاث البيت ، وفى الهواء الذي تتنفسه ، تراه في كل شيء .. تراه في نفسها . انها ترتجف الآن من أجله ، لقد اعتقدت أنهما سيسعـــدان جدا بحياتهما ، بعد أن التقيا وتوحدا .. لقد قضيا مدة من الزمن في البلدة مع العباسي ، وشاركاه المسكن والطعام ، واستطاعا أن يبعثا الفرح والبهجة في أفراد العائلة جميعا : في زوجة العباسي « هنية » وفي ابنيه الصغيرين ، ثم في العباسي نفسه .. لقد كان العباسي يرجع الى البيت محطم البنيان ، مشتت الفكر ، يجتر الأحزان ليلا ونهارا ، دون أن يستطيع أحد التخفيف عنه .. لكن وجود البشير وزوجته ربيعة ، غير كل شيء ..

وقد استطاع العباسي أن يحصل على اعفاء مؤقت لأخيـــه من طرف المجاهدين ،يسمحون له فيه بالبقاء على حاله ، الى أن يصدر أمر آخر يناقضـــه .. وكم كان سرورهـــم ، وكم كـــان حزنهم .. كان هذا الخبر الجميل ، القبيح ، قد خلق في كل واحد شعورا بالذنب ، نعم ، لأنه جعلهم أعضاء سلبيين ، لا دور لهم لكن هذا الشعور لم يدم طويلا ، وخاصة حينما رجع البشير مع زوجته الى القرية ، وفضل البقاء هناك مع الوالد بلقاسم .. وقد استطاعا هناك أن ينعما ببعض الراحة والسعادة .. وقـــد نشب حوار طويل بين الزوجين الجديدين ، بعد أن حضرا سهرة، وقعت مع بعض المجاهدين الذين مروا على الدار ، واستدعاهم الأب بلقاسم للعشاء .. قال البشير لربيعة :

PDF Eraser Free

ـ يا لهؤلاء الأشخاص ، كيف أمكنهم أن يمروا من هنا ولا يخشون ؟

ـ من ماذا يخشون ؟ ان لهم أسلحة قوية ..

ـ يا لأسلحتهم .. هل تعتبرينها قوية ؟ لو سمعت بأسلحة الأعداء لرميت سلاحك !

ـ يجب على الانسان أن يؤمن بالسلاح الذي في يده ، ولا يعير اهتماما بما يملك عدوه ، لأن السلاح لا تعطى له قيمة وحده وانما هو يرتفع أو ينزل حسب اليد التي تمسكه ..

ـ وهل تعتقدين أن هذه الأيدي قوية ، حتى يمكن استنتاج أن الأسلحة قوية ؟

ـ ولماذا لا ؟ ان هؤلاء الرجال مليئوا الصدر بالايمان وبالنصر.

ـ بالايمان والنصر ! من أين أتى لهم هذا الايمان الذي تنطقين به ؟ آيا لهم من بؤساء .. لو كنت مكانهم ، لرجعت الى بيتي والى أهلي وتركت الذي لا أستطيع عليه .

ـ أهذا كلام تنطق به يا رجل .

ـ ولماذا لا ؟ ألا تريدون الاعتراف بالحقيقة ؟ ألا تريدون الاعتراف بأنكم تبحثون عن الانتحار ؟

ـ انك لا تتكلم بعقلك يا رجل ..

ـ ان ما أقوله هو الصحيح يا ربيعة .. الحمد لله ، أنا ما زال لي عقلي وأستطيع تمييز الصحيح من الكاذب .. آه ، ان الدليل واضح ، ألا تذكرين البلدة ؟ أرأيت أين سكننا ؟ سكننا مع أخينا

PDF Eraser Free

المحترم العباسي . ان بيته جميل بالنسبة لنا هنا ، لكن أقارنت بين بيته وبين بيت أي فرنسي هناك ؟ ان منازلهم رائعة وضخمة.

لكن هذا الحوار الساخن ، لم يدم طويلا ، اذ أن دخول بلقاسم قد وضع حدا له ، وجعل الزوجان يفترقان ، ويذهب كل واحد لشأنه ..

لكن ما هو تفكير ربيعة الآن ، وهي وراء الباب تختلس النظر من فتحة المفتاح ؟ ان أوصالها ترتجف ، وجلدها يتقلص ، انها الآن فريسة للخوف والجزع .. تختفي وراء الباب الموصود ولا تستطيع أداء أمر ، ما يخلقه الظرف ويحتمه المكان والزمان .. لقد أوصاها بلقاسم أن تمكث في مكانها وتنتظر ما يحدث ، ولا تحرك ساكنا .. فان الجنود الفرنسيين بصفة عامة ، ينتهزون الفرص للاعتداء ، وانتهاك الأعراض ، دون مراعاة للخلق والمقدسات .. فهم ما يكادون يبصرون امرأة ، حتى يندفعون الى خلق المواقف الحرجة ، التي يذهب ضحيتها ، أثناء لحظات معدودة ، عدة أشخاص تأبى عليهم أنفسهم أن يسكنوا ويركنوا الى المذلة والصمت .. وبذلك يتأزم الموقف أكثر من السابق .

فالأجدر بربيعة أن تبقى في مكانها وتنتظر ماذا سيتولد عن الأزمة

أخذت السيارات العسكرية تقترب من البيت ،كثيرة الضجيج وما هي الا لحظات قليلة حتى وصلت وتوقفت قرب الباب ، غير مبالية ببلقاسم الذي وقف ساكنا كالتمثال .. ان ما يهم الفرنسيين هو ما يمتاز بالحركة والنشاط وينعم بالحياة ،

PDF Eraser Free

والشباب .. يستطيع أن يفيد ويستطيع أن يخلق .. وان السبب الذي دفعهم الى هذا المكان هو البحث عن ما يفيدهم .. فقد وضعوا نصب أعينهم ـ بعد الدراسة ـ هذا البيت لأنهم رأوا فيه شابا ، قويا ، تتوفر فيه جميع الشروط التي يطلبونها ، والتي تتماشى مع العمل الذي يمكن أن يوجه اليه . وكان اسم هذا الشاب هو البشير .. البشير ، ذلك الشاب الذي تزوج منذ أيام .. ربما علموا بحداثة زواجه ، لكن هذا الشيء ليس بالدافع الذي يقهقرهم عن هدفهم .

سأل أحد هؤلاء الجنود :

ـ هل أنت هو بلقاسم ؟

نظر بلقاسم نظرة سريعة خاطفة الى الجندي الذي خاطبه ، لكنه قبل أن يجيبه دارت في ذهنه هذه الأفكار فقال يتكلم مع نفسه :

ـ « من هو هذا الذي يسأل عني ؟ كيف عرف اسمي ؟ لا شك أنه اطلع عليه من أحد المصادر الرسمية ، ان عيونه لاتعجبني انها زرقاء .. نحن لا نحب هذا اللون من العيون .. فقد قالت لي والدتي مرارا : احرص من صاحب العيون الزرقاء ، انها مبعث الشر .. لقد أخذت برأي أمي ، وكنت أتجنب النظر الى كل انسان يمتاز بهذه العيون .. صدقت أمي . لقد أصبت مرة وأنا صغير ، نتيجة عصياني لنصيحة والدتي .. لكن الحمد لله لقد نجيت ، واسترجعت عافيتي . لكن ما العمل الآن ، وهذه العيون تحدق في مليا ، وتكاد تلتهمني ، انها حادة مثل المسامير تنفذ الى داخلي .. فكيف أتملص منها ؟ هل أقول الحقيقة أم

PDF Eraser Free

ألفقها ؟ اذا ما قلت الحقيقة ، وصرحت بمكان البشير ، فهل سأربح شيئا ؟ ربما تخلصت من النظرة ، لكن .. واذا لفقت الحقيقة ، فما هي النتيجة ؟ علي أن أتشجع فقط ، أنا لا أستطيع الوشاية بولدي ، وأنا نفسي الذي أرشدته الى المكان الذي يختفي فيه الآن .. لكن كيف هو حال البشير الآن ؟ لا شك أن فرائصه تصطك من الهلع انه منكمش الآن على نفسه ، ينتظر أمرين اثنين : اما أن تكشفه القوات الفرنسية ، وتأخذه عنوة واما أن تعمى عنه ، فتفتش المكان ولا تراه ، وهذه منية النفس . يا للفجيعة ، لو لم نكن نعلم بقدوم العساكر في هذا اليوم .. ربما دخلوا علينا فجآة ، ونحن عن الأمر غافلون ، فلا نستطيع القيام بأي شيء .. لكن الحمد لله ان العباسي يأتينا بالأخبار فى الوقت المناسب ، ولولاه لما عرفنا شيئا .. آه ، لو نستطيع انقاذ البشير .. »

ــ نعم ، أنا هو بلقاسم .

ــ آه ، أنت هو .. لا يهم .. هل ابنك هنا ؟ نحن نريده حالا .

ــ أنا لا أعرف أين هو الآن .. لقد تركنا منذ عدة أيام .

ــ ألم يقل لكم أين ذهب ؟

ــ لا ، لم يقل لنا شيئا ..

ــ كيف لا تعرف ؟ أنت تكذب .

ــ أنا أقول الحقيقة يا سيدي .

ظهرت على ملامح الجندي انقباضات مرعبة ، نتيجة الغضب

PDF Eraser Free

والقلق ، فدنا وجهه المتحقن من بلقاسم ، وشد على سلاحه بيدين من حديد ، وانفجر قائلا :

ــ تكذب ، نحن نعرف أين هو ابنك .. فهو أما أن يكون قد ثار وتمرد ، وصعد الى الجبل ، واما أن يكون قد اختفى هنا فى بعض الأركان .. لكن لا تخشى شيئا ، اذا كان هنا ، فسنخرجه من غاره مثل الفأر ، واذا كان قد صعد الى الجبل ، فسنحاصره وننزل به وهو أشلاء .. نحن ننصحك أن تدلنا على مكانه هيا خبرنا .

لم يعرف بلقاسم بماذا يجيب . رأى أن أي واحد من الفرضين الذين أعطاهما الجندي لا يرجع بفائدة .. فاضطرب وتشتت ذهنه ، فتصور نفسه مقهورا ، محطما ، لا يقوى على حماية ابنه وذود الشر عنه ، ثم تصور نفسه وقد عاقبه ضميره ، فهو ذليل لدرجة لا يتصورها العقل . فكر لو يلزم جانب الصمت ولا ينطق بكلمة فيكون في راحة مع نفسه ، لا ذنب على الأبكم بصفته لا يستطيع الاجابة على الأسئلة الموجهة اليه . سيكون في جانب حيادي . لن تتعلق به أي مشكلة .. لكن :

ــ قلت لك يا سيدي أني لا أعلم عن أمر ابني شيئا .

خاب أمل الجندي في بلقاسم ، فتملكه غضب ممزوج بالمقت والكره . فوخز صدر ضحيته بفوهة بندقيته ، وشعر باللذة والراحة ، وود لو يستطيع أن يمزق هذا الصدر ، ويرى بندقيته تظهر من الجانب الآخر ، مضرجه ، يقطر منها الدم القاني .. فأعجبه هذا التصور ، وراح يدفع فوهة بندقيته بشدة في

PDF Eraser Free

صدر بلقاسم ، وينتظر الحين الـذي ستمـزق فيـه صدره ، وتندفع بسرعة لتظهر من الجانب الآخر ..

لكن بعد محاولات عديدة ، لم يبخل فيها بالجهد ، تخلى عن أمنيته هذه ، وراح بسبابته ، يتحسس الزناد ، ويرغب رغبة شديدة ، فى جذبه ... فهذه لذة لا تتكرر ، فلمـاذا لا ينتهـز الفرصة ؟ ليشد الزناد ، وليترك الرصاص يندفع بنشوة فى جسم عدوه .. ليطلق سراح الرصاص ، ليتركه يفعل ما يفعل .. ستخرج تلك الشظايا وتمرق مثل البرق ، لتثقب القفص الصدري لكن قبل ذلك :

ـ لنبحث عن الشاب فى كل مكان .. يجب أن نخـرجه من الأرض اذا لزم الأمر ذلك .

تفرق جمع الجنود ، وانتشروا فى الارض . فذهبت جماعة منهم الى داخل البيوت ... وذهبت جماعة أخرى ، الى كومة الاحجار الموجودة على بعد صغير من البيت ، وذهبت جماعـة ثالثة فوق السطح ، لتشرف على جميع التحركات التي تحدث .

ولم يستطع بلقاسم البقاء مسمرا فى مكانه مدة طويلة ، لقد رأى أنه من واجبه أن يبادر الى الوقوف فى وجه هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا معتزين بقوتهم ، يودون تقليب كل ما تصل اليـه أيديهم ، رأسا على عقب ، من غير اهتمام :

ـ « يجب علي أن أدخل معهم الى البيت ... انهم سيضعون كل شيء على الارض . »

اتجه بلقاسم محطم القلب نحو زوجته ، وربيعة ، وراح ينظر ،

PDF Eraser Free

بعين يقطر منها الغيظ والحنق ، الى الجنود وهم يعبثـون بكل شيء .

بقي أصحاب البيت صامتين ، لا تصدر منهم أية حركة ... واستمر البحث مدة غير قصيرة ، لاحت لبلقاسم طويلة جدا ... أنهكته .. فهو لم يستطع أن يتصور أو يعرف ، ماذا ستكون نتيجة هذا التفتيش ... هل سيذهب الجنود وآمالهم خائبة ؟ أم هل سيكشفون البشير ، ويأخذونه ؟ تمنى من كل قلبه ، أن لا تقع أيدي الجنود على شيء ... تمنى أن يخرجوا بسرعة ، يجرون وراءهم أذيال الخيبة .

تقدم الجندي السابق الذكر ، الى أصحاب الدار ، لكنه لم يتجه هذه المرة نحو بلقاسم ... فاختار شخصا آخر ، ضعيف المقاومة ، قليل الحيلة .. اختار شخصا شابا ، تيقن من غلبتـه عليه . توجه نحو ربيعة ، الكائن المرتعش الفرائص ، الغائص فى الخوف ، الذائب من الهلع ، المستتر الوجه ، المسبل الجفون ، المطأطأ الرأس ، المجرد من القوة .. سألها وهو يمعن النظر فى قوامها المضطرب ، الملتصق بالجدار :

ـــ هل أنت هي زوجة البشير ؟

سألها ، وكأنه لا يود أن يسألها ... فقد رأى أنه من الوقاحة ، والعيب ، بمكان ، أن ينتظر رجل قوي مدجج بالسلاح ، من امرأة ضعيفة ، لا تملك شيئا ، أن توصله الى نتيجة مرجوة ... فهذه الفتاة التي تقف أمامه ، يكاد يطفر الدمع من عيونها ، قد أرجعت الى ذاكرته صورة فتاة أخرى ، عزيزة عليه ، لا تشبهها فى التقاسيم والأوصاف ، لكنها تتحد معها فى التمتع بالجمال

PDF Eraser Free

والفتنة ... وهذه الصورة هي صورة زوجته ، التي مر عليه زمن طويل ولم يرها .. فتصور أنه اذا ظلم هذه فانما يظلم زوجته .. وهذا شيء لا يريده .. لهذا فهو لم يصر كثيرا على أن ينتظر الجواب من ربيعة .. فقد كان سكوتها كافيا للافصاح عن ردها .

انتقل نظر الجندي الى شخص زوجة بلقاسم ، لكنه نفر منها بسرعة ، ولم يوجه لها أي سؤال ... ربما لم تعجبه سحنتها ، فوجهها لا يستحبه كل الناس ... ربما يستحبه بلقاسم ، لأنه زوجها وله سابق معرفة بها ، فهو يعرف كيف كانت قديما ، وكيف حدثت عليها هذه التغيرات العديدة ، نتيجة مرور الزمن وتوالى الأيام . ولتسعد هي بما كان ، فقد تحقق أملها ... كانت ترجو من أول لحظة رأت فيها الجنود ، أن تتجنبهم ولا تقف فى حضرتهم ، حتى لا تتحرج وتضطرب ، عندما لا تجيب على أسئلتهم .. تلك الاسئلة التي تتصورها ضخمة ، مؤلفة من كلمات ، ليس لها أي صلة بالكلمات التي تعرفها .. كلمات تخرج من أفواه عجيبة ، لا تستطيع تفكيكها واستخراج معنى مفهوم منها ... حمدت الله ..

اندفع الجنود الى باب الحجرة ، وخرجوا ... فكانت أرجلهم ، الغائبة داخل أحذية سوداء طويلة الأعناق ، ضخمة النعال تتتابع وتتعاقب ثقيلة رزينة .

التحق بلقاسم بالجنود ، وبقيت المرأتان داخل الحجرة ، مسمرتين تحتضن احداهما الأخرى ، وتعبر عن خوفها وفزعها بالنظرات والالتفاتات .

PDF Eraser Free

انتشر الجنود على مساحة كبيرة ، وتفقدوا جميع الاركان ، وجميع المواضع التي يمكن أن يختفي فيها شخص .. لكن بعد أن توجت أعمالهم بالخيبة ، وذهبت مجهوداتهم سدى .. نما فى رأس قائدهم احساس وشعور يقينين ، من أن الشاب الـــذي يبحثون عنه يختفي هنا ... فان أنفاس هذا الشاب تتردد حوله وتلمسه .. لا شك أنه هنا . راح الجندي يفكر :

ــ « أين يختفي الآن .. اذا كان قد اختفى تحت الارض ، فلابد أن يكون فى موضع يحقق له على الاقل قليلا من الراحة ، ويوفر له الهواء للتنفس ... سيتحمل الشاب كل ضروب العذاب لكي لا نكشفه .. كيف نعمل ؟ ان الوالد يصر على أن ابنه لا يوجد هنا ، فهل هذا صحيح ؟ كلا ، ان ملامح هذا الوالد تؤكد لي أن ابنه هنا وقريب منا جدا ... ان الطرق المسالمة لا تؤدي الى نتيجة مع هؤلاء الناس .. اذا فلابد من استعمال العنف ... سأتوجه الى ذلك البئر ، وأطلق الرصاص داخله ، ثم أعــود اليه لأسأله من جديد . »

مشى الجندي الى هدفه بخطى ثابتة ،وما كاد يصل الى فوهة الجب ، ويسدد فوهة بندقيته الى أسفل ، حتى ارتفع فى الجو صوت مزق السكون ، وبعث الرهبة والقشعريرة فى نفــوس الحاضرين ... قليلا ما يسمع الناس ، مثل هذه الاصوات المفزعة الرنانة..وهم لا يحبذونها فىالأصل. انها تمس أعماقهم وتحركها. ترجها وتضغطها ... حتى أنه يتصور لكل واحد أن الصرخة قد انبعثت منه ، دون أن يدري ، فيلتفت فى لحظة الى جميع الجهات، ليتأكد من أن الصرخة لم تصدر منه وعند ذلك يحمد اللــه ،

PDF Eraser Free

ويتخلص من ضيقه ، فيروح يبحث عن الشخص الذي بعث فيهم الفزع .. التفت القائد الى مصدر الصوت بسرعة ، فكان أن رآى بلقاسم يصرخ من جديد :

ــ لا تطلقوا الرصاص .. لا تطلقوا الرصاص .. سيخرج من البئر بسرعة ، سيخرج .

انطلق بلقاسم يعدو بكل ما يملك من قوة نحو القائد الذي وقف مبهوتا أمام فتحة الجب .. وفى وسط المفاجأة التي سيطرت على جنود التفتيش ، انحنى على حافة البئر المبنيـــة بالحجــر ونـــادى :

ــ أخرج يا البشير من البئر .. أخرج بسرعة .

وبينما بلقاسم على هذا الوضع وفى هذه الحالة ، تقدم القائد منه ونحاه بعيدا من مكانه .. فقد تعجب من هذا الاب الذي يريد من ابنه أن يخرج من جوف الارض دون اعانة من أحد .

تصور القائد نفسه داخل البئر ، فتقزز وارتعش .. ان الجو هناك موحش ، ساكن ، مرعب ، ميت ، لا يسكنه أحد ... مفعم بالرطوبة ، يتراقص الماء فى الاسفل ، ويلمع كالصفيحة المصقولة .. ما أن يتصور المرء نفسه داخله ، حتى يشعر بالبــرودة ... فيشحب وجهه ويتقلص .. ويا للمصيبــة الكبيرة لو يحــدث فتسقط حجرة من الحجارة التي تغلف الجدار الدائري الداخلي ، والتي جعلت هناك حتى لا تتآكل الارض ، ويتسع تجويف البئر ، فيصبح خطرا ... لو حدث أن اصطدم المرء بحجرة وأسقطها ، فيتهدم الجدار كله عليه ، ويردمه ، ويدفنه هناك . يا له من مصير مرعب ...

PDF Eraser Free

ـ اذهب يا رجل واسرع بالحبل الذي كان هنا .. ! اسرع ، اسرع

انكشفت حيلة بلقاسم عارية أمام أعين الجنـود ، فأحـس بانحطاطه ، وضعفه ، ولم يقدر على الوقوف أمامهم كثيرا ... فجرى نحو احدى الغرف وغاب فيها لحظة بصحبة أحد الجنود ، ثم خرج يحمل حبلا بين يديه ، وقطع المسافة عدوا من جديد ... ورغم الزمن القصير الذي استغرقه أثناء اتيانه بالحبل ، ورغم السرعة التي نفذ بها العمل ، رغم كل ذلك ، فقد رأى أنه تعطل كثيرا ، واستغرق وقتا طويلا .. فأحس عندما اقترب من البئر ، كأن القائد يلومه ، ويتهمه بالتفكير فى محاولة قتل ابنه ... فسلم الحبل الى الجندي ، وانتظر بفارغ الصبر ، متى يخرج ابنه .. انه يتصوره الآن كأنه يولد من جديد .. ينبعث من الأرض حيا ... يرجع بعد غياب طويل وبعد وحشة أليمة .. الله ، متى يظهر وجهه الى النور ؟ آه ، لو يستطيع أن يتقدم ، ويتلقاه عندمـا يخـرج ...

رمى القائد الحبل داخل جوف الارض ، وبعد حين ، عندما أحس بأن الشاب فى الاسفل قد مسك بالطرف الآخر ، أمر بعض الجنود ، أن يتعاونوا فى اطلاعه .

كانت نتيجة الجهود التي بذلها الجنود ، أن خرج من جوف الارض ، شاب قصير القامة ، شاحب الوجه ، منقبض الاسارير ، يتراءى للناظر كأنه لم يبتسم أبدا فى حياته .. أخـذ البشير ، مضطربا ، ينظر الى الجنود الذين بدؤا يحيطون به ... لم تعجبه وجوههم .. مقتهم لأنهم كشفوه .. لعنهم فى داخله ، وسر لنفسه :

PDF Eraser Free

أنه سيحطم فك أي واحد تسول له نفسه أن يمسكه أو يقترب منه . لكن هذه الفكرة البائسة ، اليائسة ، لم تدم طويلا فى نفسه .. فقد أخذ يفكر فى شيء آخر ، أهم من هذا .. أخـذ يفكر فى والديه وفى زوجته ، وفى هذه الارض :

فى والديه ، لانهما أمامه ، ولا يستطيع أي واحد منهم الاقتراب من الآخر .

فى زوجته ، لأنه يؤخذ بقسوة من أمامها ، ولا يستطيع أن يوجه لها أية كلمة ... كان يعتبر نفسه أقسى الناس ، وأشدهم بأسا .. وهذه الصورة ، هي التي أعطاها لزوجته عن نفسه .. فكيف يرضى الآن ، أن لا يكـون ذلك صـحيحا ، ويترك نفسه يقهر أمامها ، وأمام أهله ؟!

وفكر أخيرا فى الارض التي تشهد استسلامه ، ولا تفعـل شيئا ... لماذا لم تزلزل الارض .

نكس البشير رأسه محطما ، وضيعا محقورا ، ونبع فى داخله احساس بالضياع عندما لمسته فوهة البندقية فى ظهره ، تقوده حيثما تريد .

أخذ الجنود البشير داخل احدى السيارات العسكرية وركبوا بعده ، ثم أشعلوا المحركات ، وبسرعة ، انطلقوا بعيديـن عن البيت لا يهمهم ما يحدث بعد .

أخذت السيارات تبتعد عن البيت ، تاركة وراءها سحابـا كثيفا من التراب ، وما هي الا مدة قصيرة حتى انقشع هـذا السحاب ، ورجع كل شيء الى حالته الطبيعية ، فلم تكن هناك

PDF Eraser Free

سيارات .. ولم تكن هناك حركة .. اعتقد بلقاسم أن ابنه قد طار في رحاب الفضاء ، ولن يكون باستطاعته أن يعود .. هل لن يرى البشير أباه من جديد ؟ هل يكون فراقهما هكذا :

ــ الله ، ما أصعب الحياة ... أ ألد ولدا ، ويأتي واحد ، فيأخذه مني غصبا ؟ لماذا تعذبنا هكذا يا رب ، لماذا ؟ . اذا كان هذا هو مصير ابني ، منذ أن وضعته ، فلماذا جعلتني ألده ؟ لو حرمتني منه لكان أحسن .

بعد أن لفظت زوجة بلقاسم هذه العبارات ، جلست على الارض من الاعياء ، وراحت تذرف الدموع مدرارا .

وقف كل واحد في ركن ، بعيدا عن الآخر ، حزينا ، محطما . لم يقترب أي واحد من الآخر ، انهم يرون أن في التقاء نظراتهم ، داعيا للألم ... ان كل واحد منهم يلوم الآخر ، ويرجع اليه السبب في فقدان البشير .. لماذا لم يتحرك ؟ كان ــ من غير شك ــ يستطيع أن يتغلب على جميع هؤلاء الجنود ... ما الصعوبة في ذلك ؟ يخلق لهم حيلة ، ويتخلص منهم ، هذا فقط .. اذا ما تكررت القصة ، فهل يستطيع أن ينجح ويتغلب على الأعداء ؟ من غير شك . آه لو تعاد القصة من جديد ... سيكون باستطاعة زوجة بلقاسم أن ترمي بالجميع الى قاع البئر ستنبعث قوة خارقة في ذراعيها الفاقدي الجمال والرقة ... سينبعث فيها الشباب والقوة ... وسيكون في استطاعة ربيعة ، الزوجة الشابة ، أن تقف دون خشية ، أو حياء ، في وجه الجنود ، وتصليهم بالنظرات الشزراء ، تجعلهم يتقهقرون بقدرتها السحرية ، وتجعلهم يفرون،

PDF Eraser Free

مطأطئي الرؤوس ، مذلولين ... سيكون فى استطاعة بلقاسم أن يقهر المعتدين ، بمجرد أن يصول ويجول فى وجوههم

هذا صحيح ، ولكن للقدر أحكام أخرى .

هذا هو الشيء نفسه الذي فكر فيه البشير وهو داخل السيارة العسكرية . فكر لو كانت قدرته أعظم من قدرة القدر... فكر لو كان يستطيع أن يحول ضعفه الى قوة قاهرة ، فينتصر ويعود الى بيته وأهله .

ولكن ، ولأمر غريب ، أحس البشير بمتعة فى الرضوخ والاستسلام .. رأى أن فى قوة الجنود الأجانب ، مقدرة خارقة ، شيء جميل ، باهر ، يدعو الى الاعجاب والتعلم والاقتداء ...

أخذ البشير ينظر الى الجنود ، رغم حزنه وبؤسه ، بشغف كبير ، وكأنه يود الذوبان فيهم ، واحلال نفسه محل أنفسهم . تخيل نفسه يمسك السلاح بيده ، ويسيطر على شخص أمامه ... شخص ضعيف ، قاصر ، مثله هو نفسه . يا لجمال ، القوة ، ويا لروعة السيطرة .

يسكر الانسان بنشوة الانتصار ، فيشعر بالسعادة وبالفخر ... كم يغمر الانسان الفرح ، عندما يجد نفسه فى الجانب المنتصر ، الفائز ، لكن كيف يمكن للانسان أن يكون منتميا للجانب المتغلب المنصور ؟ بأي طريقة ؟ يا لحظ هؤلاء الناس ، السعداء ... يا لمجدهم ... كم يكون الانسان سعيدا ، حينما يكون مثلهم .

انتهى تفكير البشير عند هذا الحد ... فقد كرس كل تفكيره فيما بعد فى المفاجآت التي سيأتي بها المستقبل .

PDF Eraser Free

أخذت السيارات تقطع المسافة التي تربط بين القرية والمدينة بسرعة كبيرة ، وبعد حوالي ساعة ، دخلت المدينة ، ووصلت الى الثكنة العسكرية ، ثم توقفت .

أنزل البشير من السيارة ، واقتيد الى احدى البنايات .

ظهرت له الثكنة بجوها الكئيب عالما جديدا ، غريبا ، منعزلا .. ولو لم يحس بوجوده هناك ، لقال أن هذه الثكنة غير موجودة فى مكانها تماما ... انها تتناقض مع الطبيعة التي تحيط بها ، انها تحتل هذه البقعة من الارض قسرا وتضفي عليها من مسحتها الكئيبة المنفرة ، جوا من الغرابة وعدم الترابط والانسجام .

وبعد أن اجتاز البشير عدة ردهات ، واخترق عدة مكاتب ، بين جنديين ، توقف أخيرا عند أحد الابواب ، بعد أن سمع هذا الامـــر :

ــقف هنـــا .

توقف البشير حالا ، ولم يزد خطوة ، فقد خشي أنه اذا لم ينفذ الأمر فى الحين ، سيجعل نفسه سخرية لمرافقيه ، ويتحول الى مصدر للتنكيت والتفكيه ، فربما يطلقون عليه لفظة حمار ، أو لفظة خنزير ... وهو يبغض هذه الألفاظ ، بغضا شديدا .. وهو يتذكر جيدا تلك الفترات المؤلمة ، المخزية ، التي مرت عليه ، وتحملها ذليلا ، صامتا ، لا يستطيع مسحها من ذاكرته .

يتذكر جيدا السنوات القليلة التي قضاها تلميذا فى احدى المدارس الابتدائية . كان يرشحه أحيانا معلمه الفرنسي للصعود الى السبورة ... فيفقد توازنه ولا يفقه معنى من أسئلة معلمه

PDF Eraser Free

.. يحدث له هذا بمجرد أن يجد نظر معلمه مثبتا عليه شخصيا .

هناك وفى تلك اللحظة تزدحم الصور من كل صوب أمام عينيه ... فيقف أبوه ، وأخوه ، وأقاربه ، وتقف أمه كذلك فى صف واحد ، يبتسمون له وينتظرونه بفارغ الصبر . فتسود الدنيا أمام بصره ، ويود التخلص حالا من هذا الجو الذي يحيط به ، ويخنقه بغير رحمة أو شفقة ... لماذا دفعه أبوه الى هنا ؟ لماذا حشره مع هؤلاء الأطفال ، أقرانه ، ليجلس فى هذا المكان ، ويستمع الى هذا المعلم ؟؟؟

لكن ، لماذا يخشى من معلمه ؟ لماذا يرتبك عندما يوجه اليه سؤالا ؟

انه مبهور بمعلمه ... يتفرس فى وجهه ، وفى ثيابه وفى كل ما يحيط به .. فيجده ساحرا محببا الى نفسه ، يود أن يقلده فلا يستطيع ، ويود أن يستمتع به فلا يقدر . يذهب الى بيته ، فلا يجد مشابها لما يجده فى المدرسة ...

ود من كل قلبه أن يصبح مثل معلمه .. أن يصبح مثله فى كل شيء ... لهذا فان البشير عندما سمع عبارة « قف هنا » ، رأى كأن معلمه هو الذي يوجه له هذا الامر ، أراد أن يطيعه .. فتوقف حالا ، حتى يكون عند حسن ظن معلمه .. أراد بتنفيذه الامر أن ينتصر على الآمر .

وما هي الا لحظة ، حتى خرج له أحد الجنود ، وطلب منه أن يتبعه داخل المكتب ... فتبعه مبعثر الشعور ، شريد الفكر ، لا يؤمن بوجوده .

PDF Eraser Free

وقف أمام مكتب كبير ، فى قاعة واسعة ، ساطعة الأضواء ، انتشرت فى أركانها ، عدة مكاتب ، يجلس خلفها أناس غرباء ، يرتدون اللباس العسكري ... وقف البشير صامتا ، واضعا يديه خلف ظهره ، ينتظر بفارغ الصبر أن يتكلم أحد معه ، ليزيح عنه القلق الذي يساوره ، ويحيط به ... فقد قلق من وجوده هنا ، دون ارادته .. كما قلق من وقوفه هنا .. ما هو ذنبه ؟

ــ أنت هو البشير بن بلقاسم ؟

تنحنح البشير واضطرب ، لكنه أجاب واثقا :

ــ نعم يا سيدي .

ــ فى أي سنة ولدت وفى أي مكان ؟

ــ ولدت سنة 1938 فى قرية (...) .

يا لذلك اليوم ، لماذا تحدد ذلك اليوم بالضبط لولادتـــه ؟ أ ابتعد ذلك اليوم عن هذه اللحظة ، بكل هذه السنوات ؟

ــ هل تعرف القراءة والكتابة ؟

أيستطيع أن يقول نعم ؟ أيستطيع أن يقول لا ؟ انه غير متأكد ... ان السنوات القليلة التي قضاها تلميذا ، والتي لا تتعدى أربع سنوات ، تعلم خلالها القراءة أو على الاصح بعض مباديء اللغة الفرنسية ، لم تجد نفعا كبيرا ... لكن كم هي السنوات التي قضاها وهو يتعلم العربية فى « الجامع » ؟

انه يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه الى الجامع ... كان النعاس ما زال يسيطر عليه ، عندما أنهض قسرا من فراشه ...

PDF Eraser Free

كان الظلام ما زال يخيم على الربوع ، عندما قطع بمفرده الطريق الطويل الذي يوصل الى الجامع .. يا للقشعريرة التي استولت عليه فى ذلك الحين ... وتركت أسنانه تصطك بقـوة كبـيرة ، فيلتفت فلا يجد مخلوقا .. تمنى فى تلك اللحظة لو رجع على أعقابه ، وعاد الى فراشه الدافيء ، ليبعث فى جسمه الحرارة والنشوة ... كم هو جميل أن يستيقظ الانسان ، فيجد نفسه داخل فراشه ، محفوظا ، محروسا ، هنيئا ، سعيدا .

لقد مرت على ذلك الصباح سنوات عديدة ، فلم يعد الآن سوى ذكرى . حقيقة ، بقي يذهب الى الجامع مدة طويلة ، حوالي ست سنوات ، لكن ، ما الفائدة ؟

كيف يجيب على السؤال ... أبنعم ، أم ب : لا ؟؟

ــ شيئا ما يا سيدي

ــ كم سنة وأنت تتعلم فى المدرسة ؟

ــ أربع سنوات يا سيدي .

ــ لماذا تركت المدرسة ؟

لماذا تركها ؟ ماذا يريد من وراء هذا السؤال ؟ أيقول له أنه كان يتضايق منها ، أيقول له أنه كان يكرهها ويمقتها ؟ لكن ما الفائدة من ذلك ؟ ليقول له :

ــ ان والدي هو الذي أخرجني منها .

ــ لأي سبب ؟ أكنت تلميذا غير مجتهد ؟

ــ لا يا سيدي ... كان أبي فى مسيس الحاجة الى اعانتي .

PDF Eraser Free

ــ أتحبذ الرجوع الى المدرسة ؟

ــ نعم ، يا سيدي .

هكذا أجابه بسرعة ، من غير أن يمعن فى التفكير ، كل ما يريده هو التخلص من هذه الاسئلة بسرعة ، ومن هذه النظرات الغريبة التي يحدجها به الجندي السائل . ماذا يعنيه هو ، لو يحب الرجوع الى المدرسة ، أو لا يحب ؟

ــ اذن ، سنعيدك الى المدرسة ... سندخلك الى مدرسة جميلة .. جميلة جدا ستعجبك من غير شك .. لكن قبل أن تنخرط فى هذه المدرسة يجب أن تتوفر فيك عدة شروط ... ان هذه المدرسة لا تستقبل كل من يقدم اليها .. فهي مدرسة خاصة بالشبان الأصحاء الاقوياء ، القادرين .. وأنا أنصحك أن لا تتأخر فى الانخراط فستحقق لك كل ما تريد .. ستخلق منك انسانا آخر ، انسانا شجاعا ، انسانا ذا قوة ، وسطوة وجبروت ونفوذ ... ستصبح قويا جدا ، وستلعب دورا هاما ، اذا ما اجتهدت ، ونلت الأوسمة ورضي عليك رؤساؤك .

لم يعد البشير يستمع الى ثرثرة الجندي ، فقد كانت الكلمات الاولى التي سمعها ، كفيلة بأن تسحره وتستولى عليه .. حتى أنه ندم أشد الندم عن العمل ، الذي كان قد قام به منذ ساعة ... حينما اختفى فى الجب ، ولم يقم ، فيرحب بالجنود الذين جاؤوا لينتزعوه من عالمه ، ويدفعوا به الى النور والمجد .. هل سيستطيع حقيقة تحقيق كل تلك الاشياء التي سمعها ؟ يدخل الى المدرسة ويتعلم ويجتهد ، ويحصل على الأوسمة ، ويصبح

PDF Eraser Free

ذا نفوذ وذا قوة ؟ .. لكن .. لكن كيف ؟؟ أيترك أهله ؟ أيترك زوجته ؟ والى متى ؟ المهم ، هو أن يعود منتصرا ... سيبين لهم أنه قام بعمل باهر . هذا شيء يجب عليه أن لا يفكر فيه الآن .. ليتغلب على عواطفه ..

بقيت هذه الأفكار تدور فى رأس البشير مدة طويلة .. ولم تتركه يشعر ، بأنه قد مر على طبيب وأجرى عليه فحص تام ، شامل ...

ولم يفق البشير من تيهه ، الا حينما فوجىء بهطول الماء عليه ، بهطول ماء دافق ودافىء ، ينزل على رأسه وينزلق على جسمه ويبعث فيه قليلا من النشوة .

الحجرة صغيرة جدا ، جدرانها بيضاء ، وأرضها أيضا بيضاء ، لامعة ، تستوعب الماء من ثقب فى طرفها ... لكن ليس بالحجرة باب ... فقد عوض بستار من النيلون ، ينسحب الى الجهتين بواسطة حلقات حديدية يخترقها قضيب مجوف مثبت فى الجدار من الطرفين .

كثيرا ما يشعر المرء بالسعادة ، عندما يجد نفسه وحيدا منفردا، داخل حجرة التنظيف ... فهو خال لنفسه ، حر فى تصرفاته ، يسكب الماء على جسمه ويتلذذ بكل حواسه .. لكن البشير رغم كل ذلك ، دهش كثيرا حين وجد نفسه عاريا ، داخل هذه الحجرة، لا يستره سوى رداء صغير ، تستطيع أية نسمة تهب فى اتجاهه أن ترفعه وتزيله .. فكان يحس بالاضطراب بمجرد التفكير فى

PDF Eraser Free

هذا الافتـــراض .. ماذا لــو رفع الستـــار ، وانكشف للناس عـاريا ؟ ..

ـ « لأنظف جسمي بسرعة ، ولأخرج وأرتدي ثيابي ... لكن أين هي ثيابي ؟؟ أين تركتها ؟ كيف أصنع عندمـا أنتهي مـن الغسل ؟ هل أمكث هنا ؟ ؟ ولكن الى أي وقت ؟ هـل أنادي أنني لم أجد ثيابي ؟ .. لا لأمكث هنا مستورا الى أن يكتشفونني .. وحينذاك ، سأطلب منهم أن يقدموا الي ثيابي .. يا لهـذه المصيبـة . »

سكن البشير الى تحليله الشخصي لوضعه ، وبقي فترة من الزمن ينتظر لو يحدث خلالها جديد .. فهو في حجرته معزول ، ينسكب عليه الماء دفاقا ، ولا يعكر الصمت الذي يرين غير صوت الماء المتساقط على أرض الحجرة الاملس .

لكن فجأة ، وبينما كان البشير ملتفتا الى الباب ، اذا به يرى الستار النيلوني ، يزاح عن مكانه ، ويقف بدلا منه رجل ، ضخم الجثة ، يروح يتفرس فيه بجرأة ووقاحة .

ـ « من هو هذا الشخص ؟ يا لوقاحته ... من الذي سمح له بازاحة الستار ؟ لماذا يقف هنا ؟ »

أحس البشير بالدم يتصاعد الى رأسه ... وبغشاوة تتكون أمام بصره .. فقد ملكه الحياء ورأى أن جميع عيوبه البدنية ، وجميع نقائصه ، وأسراره وتعقيداته الداخلية ، قد تكشفت ، وأمست واضحة للعيان دون رقيب أو ستار ...

PDF Eraser Free

انه لا يود أن يطلع أحد على أسراره ، فهذه الاشياء خاصة به .

فوجيء البشير عندما سمع ذلك الجندي ، الواقف بالباب يأمره بخشونة :

ــ اسرع ، وعندما تنتهي ارتدي هذه الثياب .

حمد الله عندما وجد لباسا ينتظره .

ــ « كم هو جميل ومريح أن يشعر الانسان بنفسه ، مستورا محفوظا .. »

هكذا كان البشير يفكر ... فأخذ المنشفة وجفف جسمه من قطرات الماء وراح بسرعة يرتدي الثياب الجديدة ، الثياب العسكرية ... وما كاد ينحني ، ليدخل رجله فى حذائه ، حتى انبعثت صورة أهله الى ذهنه .. وخاصة صورة زوجته ربيعة . لأن ربيعة كانت تساعده كل صباح على ارتداء حذاءه .. فحسب رأيها ، ان من الاعمال التي تظهر مدى طاعة الزوجة لزوجها ، هو الركوع عند قدميه ومساعدته . وقد كانت تفعل ذلك بارتياح وسرور ... ولم تكن تهنأ فى ذلك اليوم ، لو لم تكن قد قامت بعملها هذا ، المتواضع ، كما تسميه .. أو ليس لها الحق ؟ أو لم تكن تحلم بالركوع أمام رجل ؟ ألم تكن تحدث نفسها هكذا :

ــ « ان من واجب الزوجة أن تخدم زوجها ، وتتفانى فى ارضائه واراحته ، لو أتزوج من رجل يعجبني ، فسأعمل كل شيء حتى أكون نعم الزوجة . »

لمعت صورة ربيعة ، باسمة مشرقة ، فى ذهن البشير ... فشكر الله على احرازه عليها زوجة مخلصة ، وندم الندم الشديد على

PDF Eraser Free

تلك اللحظات التي كان يسمح فيها لها بالركوع عند قدميه

طرد البشير صورة ربيعة من ذهنه .. ان الجو هنا لا يدعو الى الانغماس فى الذكريات والتفكير . يجدر به أن يستيقظ ... وما كاد ينتهي من ارتداء ثيابه حتى خرج الى دهليز يوصل الى حجرة كبيرة .. فاندهش الاندهاش الكبير ، حين رأى بعض الشبان يرتدون مثله نفس الثياب ، ويتجهون معه فى نفس الاتجاه .. فقال فى نفسه :

ــ « هل هؤلاء الاشخاص مثلي ؟ لأتبعهم . »

وما أن مشى خطوة حتى لحق به جندي وقال له : « من هذه الجهة . » فالتفت اليه وتبعه ذليلا ، رغم أنه كانت تتردد على لسانه هذه العبارات :

ــ « سأتغلب عليهم جميعا ... نعم ، سأسحقهم ، وأمحيهم من طريقي .. »

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل الثـــالث

كم هي رائعة هذه المدينة .. كم هي بهيجة .. انها خلابة . ما يكاد المرء يضع فيها قدمه حتى يشعر أنه كشف عالما جديدا خلابا مشرقا . ان الجو هنا يخالف غيره فى أي مكان . فهو هنا يمتاز بالسحر والروعة ، لا يستطيع الانسان أن يدرك كنهه ، بل كل ما يستطيع أن يفعله ، هو ، أن يطيل اقامته ولا يفكر فى مغادرة وضعـــــه .

من أي مكان يقف المرء ، يكشف مناظر جميلة ... من أي مكان يرفع رأسه ، يبصر سماء زرقاء ، زرقاء ساحرة ، تنسحب عليها بتؤدة ووأدة شمس مشرقة ، فضية الأشعة ، دافئة منعشة .. فكأن هذه الشمس لا تريد حرمان النـــاس مـــن فضلهـــا ، فتستغرق يوما كاملا ، لتصل الى مغربها ... وهذا فضل تشكر عليه الشمس لأنها لا تجود به على أي مكان آخر ، أو أي بلد آخر .. فهذه منحة خاصة بالجزائر العاصمة . العاصمة البيضاء .. العاصمة المنورة ..

كم هي عديدة العمارات .. وكم هي بيضاء .

كم هي كثيرة الطرق .. وكم هي مزدحمة ..

كم يستغرق الانسان من الوقت لكشفها ؟ لاشك وقتا طويلا . لكن لماذا يجرؤ الانسان على التجوال فيها جميعا ، ان جزءا

PDF Eraser Free

واحدا منها لكفيل بأن يجعل الانسان يأخذ صورة صادقة عنها .. ان لها وجها واحدا ، وجها واحدا يمكن للانسان أن يلاحظه ويراه واضح المعالم ، فى كل شارع ، وفى كل محل أو بيت ... ان الجزائر لا تخدع الناس .. انها بلد مجيد ، له شخصيته الخاصة .. وكذلك سكانه .. انهم ظرفاء .. جميلوا التقاسيم ، وحيدوا الصورة .. مخلصوها .. هذا رغم ما كان يظهر هنا وهناك من أشياء غريبة ، تتناقض مع روح البلاد الأصيلة ..

فتلك المجموعات من الجنود الاروبيين ، وتلك السيارات العسكرية ، وتلك الأعلام الفرنسية المرفرفة ... كلها ، ليس لها دور كبير فى محاولة تغيير معالم البلاد .

لكن ، لماذا كان مكتوبا ومحتما على هذه العاصمة الجميلة ، أن تذوق طعم الذل والهوان ؟ ولكن هل ذاقت ذلك حقيقة ؟ .. انها ما زالت مرفوعة الرأس ، معتزة بكيانها الحقيقي ، تكافح ظروف الزمن ، وتصارع لتبقى كريمة الجانب ، وربما كان هذا الشيء هو السبب الاول فى المحاولات العديدة التي يقوم بها الاروبيون ، لمحاولة تغييرها ومسحها بمسحة جديدة .

لكن ذلك لم ينجح ... فهذه الجزائر وستبقى الجزائر ...

وهكذا وما أن نزل فيها البشير حتى شعر شعورا صادقا أنه فى بلده حقيقة ، وأن المسافة الطويلة التي قطعها ليصل هنا لم يكن لها أي أثر فيه .. فقد كان يعتقد عندما ركب مع عدد كبير من الشباب ، السيارات العسكرية ، أنهم سيذهبون الى مكان بعيد ، والى مكان جديد عليهم ... لا يعرفون فيه شيئا ... وقد

PDF Eraser Free

زاد فى اعتقاده هذا أنهم كانوا داخل السيارات لا يرون شيئا مما يحدث فى الخارج ... فقد كانت ستائر السيارات مسدولة ومشدودة ... لكن هذه التشديدات ، وهذه الالغاز ، لم تجعل البشير يضطرب ، ولا يدرك أنه فى بلده ... فرغم أنه لم ير العاصمة سابقا ، الا أنه شعر باطمئنان عندما حل بها .. فقد حدثته نفسه أنه ما زال قريبا من أهله ، ومن قريته ... فهو ليس غريبا بالنسبة لهذه المدينة ... وأن هذه المدينة من جهة أخرى ليست غريبة عنه ...

لكن رغم كل شيء ، فان البشير لم يكن مرتاح النفس تماما .. فرغم أنه كان مع أقرانه ، ورغم أنه كان محاطا بكل احترام وتقدير من طرف مرافقيه ، الا أنه كان يسرح بذهنه أحيانا قليلة الى ذكرياته ، وينغمس فيها ... وكان يقول لنفسه :

ـ « لو غادرت بنفسي أهلي لما فكرت فى شيء ... سيكون كل ما يحدث الآن عبارة عن نزهة ترفيهية ، أفعل ما أشاء وأذهب حيثما أريد بمطلق الحرية .. لو كنت غادرت أهلي بارادتي ، لأزحت عن صدري هذا القلق وهذا الكرب ، لو كنت جئت بارادتي لرحت أذرع كل الشوارع ، وأستطلع كل أثر لو كنت حرا لذهبت أستقصي جميع أبعاد بلدي العزيز هذا ، الذي كان مختفيا علي ... لرحت بكل سرور أصافح جميع الناس وأصادقهم ... لذهبت ونمت فى أي موضع يأتيني النعاس فيه ، دون أن أفكر فى شيء ... فهو بيتي . لو كان ذلك صحيحا ، لكان انتظاري من طرف أهلي مشبعا بالسعادة والبشر .. ولو كان ذلك، لكنت أنا كذلك سعيدا. لكن ما هو السبب فى هذا الوضع يا ترى؟

PDF Eraser Free

لماذا لم يستطع أهل البلاد أن يكونوا أسياد بلادهم ؟ لأي شيء يرجع كل ذلك ؟ أيشرف الفرنسيون على هذه المدينة أيضا ؟

عجبا لهؤلاء الناس ... عجبا لقوتهم ..

كم هم أقوياء ... كم هم عزيزو الجانب ... انهم يسيطرون على كل شيء .. انه لشرف عظيم أن يكون الانسان فى جانبهم . »

فجأة تقطع سيل هذه التساؤلات التي كانت تتهاطل على البشير ... وارتد تفكيره الى الواقع ... ان أحد الجنود المسؤولين ، يخاطبهم ... لم يستمع اليه البشير بانتباه ... فقد كان يمعن النظر فى الكتلة اللحمية الشحمية الضخمة التي وقفت متصلبة العضلات ، تشغل حيزا كبيرا من فراغ القاعة التي وقفوا فيها ... كان هذا الجندي ضخم الجثة للغاية متهدل الأوداج ، أحمرها ... يحمل نظارة مظللة الزجاج .

ان هذا الشخص يبعث الهيبة فى النفوس ويدعو كل انسان الى التزام حده وعدم التفكير فى محاولة العصيان ... ما أن يراه الانسان حتى يخيل اليه أنه يتكلم معه هو ، ويهدده ... فأشداقه التي تنتفخ ، وعيناه اللتان تلمعان ، توحيان بالاعتداء والوحشية، لا يتخيل أحد ، أنه يمكن لهذا الشخص أن يتفوه بكلمة لطيفة ، فهو متناقض فى كل شيء مع ما يمكن أن يسمى ظريفا ..

لهذا لم يستطع البشير أن يدرك كلمة مما قال ... فقد شعر دون سبب لذلك ، أن هذا الشخص الواقف أمامه يكن له العداء، وهو سينتهز كل فرصة للنيل منه والتنكيل به .

أحس أن جسمه ينفر من هذا الشخص ، وأطرافه ترتجف

PDF Eraser Free

رغما عنه ... انه يتخيل نفســه بين يــديه الحديديتين ، تتهشم عظامه بمجرد أن يلمسه ... يا لهذا المخلوق ..

ــ « ربما بهذا النوع من الجنود استطاعت فرنسا احتلال الجزائر .. لاشك أن لها أشخاصا عديدين من هذا النوع ... ماذا تريد أن تفعل بنا نحن ؟ نحن الاشخاص الضعفاء القاصرين ؟ لكن ربما نستطيع القيام بعمل آخر يكون مجديا كذلك . »

ــ خبرني ، ماذا كان يقول هذا الرجل الذي خرج الآن ؟

ــ لماذا ؟ ألم تكن تسمع ؟

ــ لا ، كنت أسمع ... لكن كنت أفكر

ــ أنا لا أعرف .

لماذا لا يريد هذا الشاب الاجابة على سؤاله ؟ هل آلمــه أن سأله ؟ يا لهذه الروح التي تتحكم فى هؤلاء الشبان ... لا توجد بينهم أي واصلة ... بمجرد أن يرى أحد أخاه يتكلم معه حتى تجده ينفر منه دون سبب وكأنه يخشى منه مكروها ... لماذا ؟ ..

ــ « اذن ، فهو هكذا ... لا يود مخاطبتي ... يعتقــد أنــه أعظم وأنبل مني ... حتى لا يتواضع ، فيجاوبني .. هكذا نحن دائما ، بمجرد أن يجد أحدنا فرصة للحط من قيمة أخيه ، حتى ينفذ ما يريد ... تبا لنا ... »

انبعث فى القاعة الواسعة التي وقف فيها البشير مع أقرانــه الشباب المجندين صخب شديد ، وعمتها فوضى كبيرة .. لم تعد هناك صرامة من طرف المسؤولين ، أو ، تشديد من طرف النظام ... أصبح كل شيء يشمله العبث ...

PDF Eraser Free

وما هي الا فترة من الوقت قليلة ، حتى خلت القاعة مـــن الناس ، وأخذ يشملها سكون وهدوء ...

التفت البشير حول نفسه ، فلم يجد أحدا ... بقي بمفرده ... لم يدرك ماذا يفعل ... سقطت من ذهنه الصور التي تخيلها ... تهدمت الصور البراقة المغرية التي تصورها تكون موجودة حيثما وجد الجنود الفرنسيون...هذه صرامةوهذا نظام،وهذا تشديد، وهـــذه قوة ، وهذه قـــوانين ، وأحكـــام ... لا تصرف فجائي هناك ولا عبث ...

اشمأزت نفس البشير وتقلصت . شعر بتفاهته ، وبتفاهة الامر الذي كان يعتقده ... لم يعد يثق بما كان يثق به ... اضطرب ولم يعد يحسن التصرف ، اتجه نحو الباب شاردا .. يريد الخلاص .... لكن ، هناك عند الباب اصطدم البشير فجأة بذلك الجندي صاحب النظارة الشمسية الذي كان يتكلم منذ حين ..

لم يستطع البشير أن يلفظ كلمة ... ملكه الخوف والرعب ، وأذهلته المفاجأة ، لم يكن يحمد هذا اللقاء ، ولم يكن ينتظره ... أقلقه أن يجد هذا الشخص الضخم ، أمامه ، تصوره يقف له بالمرصاد . يتابع جميع حركاته ، ويحاول محاصرته ... رجعت به ذاكرته الى أيام الصبا ... انبعثت فى ذهنه صورة ذلك الرجل المجنون ، الذي كان يخشاه ... كان الاطفال يثيرون هذا الرجل بمجرد أن يجدوه فى طريقهم ... ربما وجدوه جالسا عند أحد الجدران ، يتشمس ، عاقلا ، صامتا ، مسالما . .وربما وجدوه يمشي فى الطريق بين المزارع منفردا شاردا ، تائها ... لكن رغم كل ذلك لا يهنأ الأطفال الا بعـــد أن يثيروه حتى يحقـــن دمه

PDF Eraser Free

ويكاد ينفجر من جلده ، وكان الامل الوحيد الذي يراود الاطفال لحظتما يرونه ثائرا هو أن لا يقعوا بين يديه ...

ـ انكم أحرار منذ هذه الساعة ، حتى الخامسة مساء ... تستطيعون أن تخرجوا الى المدينة ، وتتجولوا فيها

تنهد البشير عندما سمع الرجل الضخم يتكلم معه بهذه اللهجة الودية ... فهو لم يكن يتصور أن تصدر من فمه كلمات مثل هذه .

حمد الله عندما رأى هذا الرجل يدور على أعقابه ، ويرى له أكتافه العريضة ، وجد نفسه حرا طليقا .

خرج البشير من الثكنة العسكرية الكبيرة التي كان فى داخلها ... وقد فوجيء ـ عندما خرج الى الشارع ـ مفاجأة شديدة ، حينما أدرك مدى ضخامة الثكنة ... رأى نفسه صغيرا جدا بالنسبة لها مثل البعوضة بالنسبة للانسان .

أخذ يبتعد عنها ... بخطى واسعة ومضطربة ، دون أن يحدد لنفسه أي هدف.لكنه ما كاد يبتعد قليلا ، وتتوارى الثكنة عن بصره ، حتى وجد نفسه وحيدا ، غريبا ، فهو لا يعرف المدينة . ويتعرض لأن يفقد طريق عودته ، ويتيه ... فكيف يفعل ؟

يرى أفواجا من الناس ... المدنيين ، يمرون بجانبه ، ويتابعون سيرهم بكل طمأنينة وراحة ، أفواجا من الناس ـ رغم اختلاف أحجامها وهيئاتها وهندامها ـ تتحدد فىالتقاسيم العامة ، والملامح الاساسية ، وكأنها خرجت من بطن أم واحدة .

PDF Eraser Free

راح البشير ، وقد انزوى فى أحد الاركان أمام محل للثياب ، يتظاهر بالانشغال يمعن النظر فى المارين ، ويحسدهم عن وضعهم ويعاتبهم لعدم اهتمامهم به . كيف ألا يثير شاب مجند ، يرتدي بذلة عسكرية خلابة ، اهتمامهم ؟ أيعتقدون أنهم أحسن منه وضعا ومرتبة ؟ أنسوا أنه منهم ؟

بقي البشير ينتظر ، متى ستأتي اللحظة التي تتلاقى فيها نظرته مع نظرة أحد المارين ... أخذ يشخص فى كل من يمر بجانبه ، لكن رغم التقاء نظرته مع نظرة أفراد كثيرين ، فانه لم يحقق ما كان يود ... كان يعتقد بأنه كفيل بأن يجعل المارين ينحنون له بمجرد أن يصوب لهم نظرة شزراء ... لكن أمله خاب ... فقد تيقن أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ... وما خوفه من الابتعاد عن الثكنة خشية التيه ، سوى دليل صغير على مدى ضعفه وصغره ... وأن بقاءه هنا وحيدا ، يراقب المارين ، ولا يستطيع مسايرتهم فى التجول فى الشوارع ، هو دليل آخر على حطته وبؤسه ...

لم يجد البشير سندا يعتمد عليه ، أو صديقا يثق فيه ... لم يجد مؤنسا ، يخفف عنه ، أو مرافقا ، يتكلم معه ... بقي وحيدا مع نفسه ... غريبا عن مكانه وعن بلده ... منعزلا ، طريدا ، لا يرغب فيه أحد ...

لكن ، ألا تربطه مع أهل هذه المدينة علاقة ما ؟ انه مواطن مثلهم ، يعيش بنفس الدم الذي يعيشون به ... يقاسمهم نفس التاريخ ونفس المصير ... يكون معهم وحدة ثابتة مميزة شاملة ، هي شعب هذا الوطن ... ألا فليصرخ فى وجوههم معاتبا موضحا ...

PDF Eraser Free

ــ « يا أيها المارين ، استيقظوا من نومكم ، والتفتــوا الي قليلا ، عيروني بعض الاهتمام ، لا تتركوني وحيدا ...أعاني الحزن والالم ... خففوا عني ، وشاركوني وحدتي ... أدخلوني فى وسطكم ، واطلعوني على حياتكم ... أنا وطني مثلكم ... تركت قريتي ، ونزلت ضيفا عندكم ، لا تحتموا علــي المستحيــل ، سأصرخ فى وجوهكم ، وأنعلكم . سأحطم الصلة التي تربطني معكم ، سأرجع الى الثكنة وأنزوي ... سأحمل لكم البغض فى قلبي سأذكركم دائما بالسوء ... »

لم يجد البشير واسطة بينه وبين أفراد الشعب المارين ... أراد أن يذهب معهم فى أي طريق يريدونــه ... أراد أن يــذوب فى جمعهم ، ويطلع على المدينة جزءا جزءا ... أراد فى تلك الفترة القصيرة أن تمسح عينه كل ما يكون المدينة ... أراد أن يبصر كل شيء : ما يجري داخل المحلات وما يجري داخل البيوت ... ما يحدث فى الازقة وما يحدث فى الساحات ...

لكن حينما تأكد البشير من أن كل ذلك مستحيــل ، وأنــه بفراقه أهله قد فارق كل حبيب وقريب ... رجع على أعقابــه قاصدا الثكنة ... فهي على الأقل لا تبخل عليه بالمأوى والغذاء ... ولو لم يكن هناك ، ذلك النظام الصارم ، وذلك الجو القاتم لاعتبر نفسه فى بيته ... ثم ان كل شيء ــ داخل الثكنــة ــ نظيف وبراق ومغري ... حقيقة ان الجو موحش وثقيل ، لكنه على الاقل يريح الانسان من التيه والغربة .

ورجع البشير على أعقابه ، واجتاز باب الثكنة العظيم ، ودلف الى الداخل ، غير مبال بأي شيء .... كل ما يهمه الآن هو أن

PDF Eraser Free

يجد الراحة ، ويلتزم الصمت ، ويريح نفسه من عناء التفكير ... اذا كان مرافقوه قد انتشروا فى المدينة ، مسرورين ، يبحثون عن اللذة ، ويتبخترون داخل بذلاتهم العسكرية ... فانه هو بالعكس قد تضايق وأصبح لا يطيق الحياة ... وانعقدت كل آماله فى المستقبل الذي سيغير فيه كل شيء ، ويخلق منه رجلا آخر .. شخصا يمتاز بنفوذ وسلطان وتقدير ، شخصا يثق فى نفسه ، ويعطيها اعتبارها ...

ألا فليصبر وليثابر ، حتى يحقق هدفه وينتصر ...

منذ أن ولدته أمه وهو يشعر بأن وجـوده فى هـذه الحياة لا مبرر له .

ومنذ أن بدأ يفكر ، وهو يتساءل عن سبب وجوده .

كان يقول أحيانا :

ــ « لماذا خلقت ؟ لماذا وجدت فى هذا العصر وهذا الوضع ؟ هل كان يمكن أن أكون انسانا آخر ، أعيش فى قطر آخر مع أناس آخرين ؟ هل أستطيع التدخل فى شؤوني ، وأغير مجرى حياتي ؟ ماذا أختار ؟ »

الآن ما زال البشير متذبذبا .

حقيقة انه كان لا يرغب فى الانخراط فى العسكرية . فالآراء التي جاء بها الناس منها ، غير مغرية ... ومن هذه الآراء ما كان يسمعه من والـده :

ــ « ماذا تريد أن أقول لك يا بني ؟ ان الحياة العسكرية ، فى صفوف الجيوش الفرنسية هو الشيء الوحيد الذي لا أتمناه

PDF Eraser Free

لك ... وأنا اذ أقول لك هذا يا بني ، فانما أقوله لك بعد تجربة مريرة قاسيتها ، وان أمك لعلى علم بها ؟ فقد رويت لها كل شيء . كنت صغيرا حينما جندت اجباريا ، وأرسلت بعد ستة شهور من التدريب ، الى صفوف القتال ... لم أكن أعرف لماذا أقاتل ، كنت أقتل كل من يأمروني بقتله . كنا مثل الحيوانات ، نسير وندفع الى المجازر ، وليس لنا فى الامر رأي . واني أحمد الله الآن ليلا نهارا ، لكوني نجوت من الموت ، فى بلاد نائية . »

لكن رغم كل شيء ، والآن وبعد أن أخذ عنوة ، وأجبر على التجنيد ، فليخاطر ، وليجرب ، وليتعلم ....

فليكتشف العالم ، وليطلع على الكون ...

أيستطيع الفرنسيون مغادرة بلادهم ، فيقطعون البحر ، ويحتلون الاقطار ولا يستطيع هو أن يغادر قريته فقط ! اذن فليكتشف السر الذي سمح للاروبيين بالانتصار والغلبة ، وليتمسك به ...ثم بالاضافة الى ذلك فليبرهن لهؤلاء الناس المتعالين ، الاسياد ، أنه يستطيع أن يماثلهم ، ويصبح ندا لهم .. ما المستحيل فى ذلك ؟

انقضى أسبوع على يوم وصول المجندين الجدد الى العاصمة ..

وخلال هذا الاسبوع ، لم يلاحظ البشير على المسؤولين شيئا يمكن تسميته بالقسوة ... كان كل شيء داخل الثكنة ، هادئا ، ما عدى فترات رفع العلم وانزاله ... تلك الفترات التي كان يرتفع فيها صوت الموسيقى العسكرية ، بصخب ، ليخبر

PDF Eraser Free

الجنود بموعد تحية العلم ... ولكن رغم ذلك فان الموسيقى لم تكن ناشزة .

فقد كانت تحتوي على ألحان جميلة ، كثيرا ما تبقى تتردد فى الآذان ، وتدور على الالسنة .

وما أن انتهى ذلك الاسبوع حتى حان وقت السفر الى فرنسا ذلك السفر الذي سمع به الجميع وتبادلوا حوله مناقشات وأحاديث عديدة ، كانت تبرز بصفة خاصة أثناء تناول الطعام وفترات الراحة .

وقد كانت جميع الآراء متحدة ، تقريبا ، وكانت هذه الآراء تقول : « ان السفر الى فرنسا أمر لا يدعو الى الافتخار والبشر ، بل هو يخفي وراءه مفاجآت غير سارة ... »

ما الذي حتم عليهم السفر الى فرنسا ؟ هل سيذهبون لأخذ التدريب العسكري فقط ؟ أم الى شيء آخر ؟ حسب كل ما سمعه الشبان المجندين ، فان فرنسا بلد لا يغري أحدا ، ليغامر بالذهاب اليه ، فقد كان ما حكاه أهلهم وأقاربهم دليلا كافيا لايقاف الشخص عن التفكير فى الذهاب الى فرنسا . ماذا سيجدون هناك ؟ هناك فى ذلك البلد الذي يقع على الجهة الأخرى من البحر ... لا أكثر من الاحتقار والاذلال ..

حكى كثير من الناس ماذا عانوه من الفرنسيين ، من عذاب ومآسي ... كانوا معتبرين فى مرتبة السفلة والسوقة ، وفى بعض الاحيان فى مرتبة العبيد المقهورين .

PDF Eraser Free

ألهذا البلد يذهب البشير ؟

ــ « لكن ، أنا لست فى ذلك الوضع الذي كان فيه أولئك الناس الذين يتألمون عندما يذكرون أيامهم فى فرنسا ... أنا ذاهب اليها باسم جديد ، أستطيع بموجبه أن أكون فى مرتبة لا بأس بها .. فى مرتبة يمكن أن توازي مرتبة الفرنسيين أنفسهم .. ألا أحمل الجنسية الفرنسية ؟ ألا أرتدي البذلة الفرنسية ؟ ألا أحمل على كتفي شرف فرنسا بأكمله ؟ كيف اذا لا أعتبر كأي جندي فرنسي ؟ ألا فلأذهب وأرى ماذا سيكون وضعنا هناك ... لأذهب وأطلع على البلد الذي غزى العالم بنفوذه الجبار ، واستطاع أن يبعث الرعب والخشية فى نفس كل انسان ... لأذهب وأرى ذلك البلد الذي كون هؤلاء الفرنسيين أصحاب البشرة البيضاء والعيون الخبيثة ... وأرسلهم الى الجزائر عظماء جبابرة ... لأذهب الى فرنسا ، ولأسير فى ثراها واستنشق هواءها ، وأذوق خبزها ... هذا البلد الذي جعلنا سخرية ، وهدد كياننا ، واستولى على أمرنا ...

لكن ... لكن ، ان هذا العمل الذي تقوم به فرنسا هو عمل خطير للغاية ، خطير جدا يستطيع أن يعود عليها بالخراب والدمار ... كيف ألم تفطن الى هذا الامر ؟

كيف ، ألا ترى أن فى تجنيد الجزائريين خطرا كبيرا ؟ ألا ترى أن هؤلاء الاشخاص ، الذين تعلمهم الحياة العسكرية ، يمكن أن يثوروا عليها ويوجهوا لها نفس السلاح الذي أعطتهم اياه ... ثم ان الامر أدهى من ذلك ، يا ليتها كانت تكتفي بالتجنيد فقط ، ان العلاج هناك يكون سهلا ... ولكن ماذا يكون لو ثار

PDF Eraser Free

هؤلاء الاشخاص الذين تأخذهم عندها ، وتعلمهم الحياة العسكرية ؟ ألا تعلم أنها تقضي على نفسها بيدها عندما تقوم بهذا العمل ؟ ألا ترى أنها ... أو أنها لا ترى سوى الفائدة العاجلة . آه .. أين أفكر أنا ؟ أيستطيع هؤلاء المجندين القيام بثورة على فرنسا بعد أن يكونوا قد تعلموا منها أمورا لم يكونوا يعرفونها جيدا ... ثم ، لاشك أن فرنسا قد درست جميع هذه الأشياء ، وكشفت ما يمكن أن ينتج فى الأخير ، ولو أنها رأت ما كنت أخشاه ، لما صممت على تجنيد هؤلاء الشبان وغيرهم لا شك أن هذا أمر لا يمكن أن يفوت على ذهن رجالها .. »

اصطف الشبان مثنى فى المرسى ، معتدلي القامة مستقيموها ، رافعي الرأس يتحدون الباخرة الجبارة التي أرسلت بوقار ملحوظ فى الميناء ... ورغم أن الباخرة كانت عظيمة الحجم تمخر عباب البحر ، وتلاقي بجأش ثابت العواصف والامواج الا أنها فى الحقيقة لا تبعث الهيبة فى أحد ... فهي هنا واقفة تنفث الدخان من منخرها وتستوعب فى جوفها العدد العديد من الاشياء ؛ الثقيلة منها والخفيفة ، ولا تبدي أي دليل للثورة ... وهذه هي الباخرة التي ستحمل على متنها الشبان المجندين وتقطع بهم البحر لتوصلهم الى فرنسا على الجانب الآخر من البحر ....

وما أن امتطى المجندون ظهر الباخرة الفسيح ، حتى ارتفعت فى الجو طقطقة أحذيتهم ، وجعلتهم يشعرون أنهم يقفون فوق يابس مجوف لا أمن فيه ، ولا سلام ... فهو لا يوحي بالبأس والثبات ... اذن فكيف لهذا السطح المضطرب أن يواجه أمواج البحر ...

PDF Eraser Free

بمجرد أن وجد البشير نفسه فى الباخرة ، وبمجرد أن رأى قدمه لا تقف على الأرض حتى أحس بأنه لم يعد ينتمي لأهل الارض ، وهو بعيد عنهم بعدا كبيرا .. فتلك المدينة التي يراها أمامه مفروشة على الشاطىء تضطجع دون حياء ، تعانق الشمس ، قد أخذت تنسحب رويدا رويدا ، وتودعه وداعا يبعث على الحزن .

فقد تشخصت له المدينة فى صورة أم كبلها العياء ، تقف مكانها ولا تستطيع حراكا ... فى صورة أم ، يأخذ ولدها من بين أحضانها ، ولا تحرك ساكنا

هكذا تفقد الجزائر أبناءها ، وهكذا يهجر الجزائريون بلادهم .

من الجزائريين من يترك بلاده دون سبب ، يتركها لمجرد الجشع ... ومنهم من يتركها بحثا عن العمل ... ومنهم من يتركها اجباريا ...

فرغم كل الآمال العظام التي علقها على ذهابه الى فرنسا ، ورغم كل الافكار التي صاغها ليبرر بها ذهابه ، ورغم كل الدوافع النفسية التي تجمل له الذهاب رغم كل هذا ، فان البشير شعر بعينيه تجهشان بالبكاء ، وبقلبه تزداد نبضاته . فهو لا يحتمل هذا ، ويود لو لم يكن مقدرا عليه هذا فانه حينما يرى نفسه هكذا يبتعد عن بلاده ، انما يرى أهله يبتعدون عنه ، ويرى ماضيه وذكرياته وأعماله ، كلها تذهب سدى ، وكأنها لم تكن ... فما يكاد المرء يضع قدمه على ظهر السفينة ويراها تمخر مبتعدة

PDF Eraser Free

عن الشاطىء ، حتى يرى نفسه وحيدا يضرب فى المجهول . ولماذا هذا ؟ يا لهذه الروح التي تربط الانسان بالأرض ...

كان سفر البشير الى فرنسا مؤلما له ، دارت بذهنه عدة أفكار سوداء . كان يقول لنفسه :

ـ « ما العمل اذا غرقت السفينة ؟ أين أجد قراري ؟ لاشك أنه لا يوجد من الناس من يركب البحر ولا يفكر فى الغرق ... الغرق فى أعماق البحر المحجوبة ، التي ، تكون عالما غريبا مخيفا .. ان الفرائص ترتعد بمجرد التفكير فىهذا .. اللهم انجنا واحفظنا ... اللهم أوصلنا بسلام ... اذا كنت نجوت من الغرق فى الجب فلا تجعلني أغرق فى قاع اليم ... »

وبعد عدة أيام عاشها البشير ، فى حالة لا يحسد عليها ، وصلت الباخرة أخيرا الى مرسى مدينة فرنسية ، هي مرسيلية .
انتعشت الحياة داخل السفينة وعمت الحركة ، وارتفع الضجيج ...

لم تكن هذه الصفات موجودة أثناء أيام السفر ، لم يكن هناك غير الصمت والسكون ، وصوت أمواج البحر التي تمزقها مقدمة السفينة ، فتقسمها بكل قساوة الى قسمين ... فيتفلق بطنها ، وينكشف شحمها الابيض الذي يروح هنيهة يلمع على السطح ، ثم يختفي فى الخضم ...

والآن ... الآن ، ها هي فرنسا عند أقدامهم ، ترقد بجانب البحر وتستقبل القادمين بأيد مفتوحة . ها هي مرسيلية ترحب

PDF Eraser Free

بهم ، وتعرض عليهم النزول فيها . ان فيها شبها ما يربطها بالجزائر العاصمة ... ان الجو متشابه والطقس كذلك .

لينزل المجندون الى الارض ولينتهكوا عرض هذه التربة المقدسة التي يكفي اسمها ، لبعث الرهبة والخوف .

ــ « أنظر يا البشير ، أتستطيع هذه الارض التي يفصلها عن الجزائر بحر عظيم أن تكون سيدة على العالم ؟ يا لعظمة هذه البلاد ... كم هو جميل أن يكون الانسان موجودا هنا لاشك أن جميع السكان القاطنين فى هذه المدينة ينعمون بكل الخيرات ، ويجدون تحت أيديهم كل ما يريدون ... ولا تحرم عليهم حاجة ... أينما وجدوا توجد السعادة. وأينما كانوا يكون الجمال. أي مكان أستطيع التحرر مدة قصيرة ، لأستطيع التجول تنتعش ... آه لو أستطيع التحرر مدة قصيرة ، لأستطيع التجول داخل المدينة سأجد حيثما أذهب وجوها مشرقة ... أنظر الى هؤلاء النساء المارات ... ما أجملهن ... يود الانسان لو يمسك باحداهن ويحتضنها بشدة الى صدره ليعبر لها عن مدى اعجابه بجمالها ، ومدى عبادته لحسنها ...

« منذ كنت صغيرا وأنا أعشق بهاءهن ... اني أتذكر تلك الايام الحلوة التي كنت أذهب فيها الى بيت مدام فرانسواز ، فى ضاحية القرية ... كان قد حدث لي فى تلك الايام أن عقرني كلب ضخم فى فخذي الأيسر ، بعد أن كنت قد ثورته بمحاكاتي لنباحه ، وبتكشيراتي التي أصورها على صفحة وجهي ، ولو لم يقدم صاحب الكلب ، لكنت ذهبت اربا اربا بين أنيابه الوحشية.. وحينما وجد السيد صاحب الكلب ، أني بامكاني أن أحدث له

PDF Eraser Free

مشاكل مزعجة ، أخذني معه فى سيارته وأوصلني الى بيته ... وهناك فى بيته ، الذي هو روعة فى البناء والتصميم ، أحاط بي أفراد عائلته : زوجته مدام فرانسواز ، وابنه بول ، وابنته جان ... أحاطوا بي مواسين ، تترقرق فى عيونهم روح العطف والمشاركة فى المضاب ـ هكذا رأيت ـ كانوا قد خشوا جميعا من أن يكون جرحي غائرا ، أو أن يكون الكلب مريضا ... لكن بعد أن اطمأنوا على صحتي ، انقشع الكدر عن وجوههم ، وابتسموا لي بقلوب مفتوحة صادقة أخذتني مدام فرانسواز من يدي وأقعدتني بجانبها على أريكة خضراء ، لينة الأطراف ... كم كانت نظيفة مدام فرانسواز ... وكم كان ساقاها أبيضين ... حدثتني نفسي مرات عديدة أن ألمسها ، لكن الحياء منعني ... وما هي الا لحظة حتى وجدت نفسي ، محاطا بكمية كبيرة من الحلويات والسكريات وكذلك النقود

« أجريت مقارنة بين مدام فرانسواز ، وبين أمي وكانت النتيجة أني أحببت أمي وعشقت مدام فرانسواز كانت يد مدام فرانسواز لينة ، طرية ، بيضاء ... مثل القطن . أحببت أن تلمسني هذه اليد وتحيط بعنقي ... أحببت أن أكون دائما بجانبها لأتطلع الى قامتها الهيفاء ، ولأرنو الى رأسها المرفوعة بكبرياء ، والمتوجة بشعر لونه أشقر خلاب

« ورغم مرور عدة أيام ، ورغم شفاء جروحي ، كنت أتحين الفرص لأكون بجانبها . ولو لم يرحلوا من القرية ، لبقيت الى الآن أتردد عليها

« لكن ماذا أفعل الآن ، وأنا بعيد عنها بعدا شاسعا ؟ لو تنزل

PDF Eraser Free

هنا فى مرسيلية ، ويمنحوننا بعض الوقت ، سأعمل لألتقي مع امرأة تشبه مدام فرانسواز ... سأقول لها : انك جميلة ، حسناء ، لم أر امرأة تضارعك فى البهاء ... اسمحي لي أن ألمس يدك ... وأمسح قليلا على ذراعك ان يدك طرية الأصابع مثل يد الولد الرضيع ، وان ذراعك أملس وأبيض مثل الرخام النقي ... لقد منح الله لكن أجساما فتانة فانعمن بها ... »

نزل المجندون من الباخرة التي أوصلتهم من الجزائر وبمجرد أن نزلوا ، حملتهم حافلات عسكرية واخترقت بهم شوارع المدينة دون توقف ... وبعد مدة غير قصيرة ، اقتحمت بهم ثكنة عسكرية يرفرف على بابها العلم الفرنسي مضى كل شيء بسرعة ونظام : نودى على الجميع بمجرد نزولهم ، ووزعوا على العنابر بمجرد انتهاء ذلك ..

كان البشير أثناء كل ذلك مضطرب التفكير ، مشوش البال ، كان يتراءى له ـ أحيانا ـ أنه يعيش فى حلم منذ اليوم الذي جيء به من قريته ... ويتراءى له ـ أحيانا أخرى ـ أنه يعيش فى واقع هو بعيد عنه ، يرى ويحس بكل ما يدور حوله ، لكن لا يعطيه أية أهمية ، كأنه لن يستفيد أو لن يتضرر من كل ذلك ...

كان مجرد التفكير فى أنه قد نزل فى فرنسا يصدمه ... لم يدرك بعد الهدف الذي جاء لأجله ... انه يعرف ، أن كل من يذهب الى فرنسا ، انما يذهب بحثا عن العمل ، وأن كل من يذهب الى العسكرية ، انما يؤخذ لحمل السلاح والاصطدام مع الثوار فى المعارك ... فى الجبال والهضاب ... فكيف به هو الآن

PDF Eraser Free

مع مرافقيه هؤلاء ، يأتي الى فرنسا دون سبب ... أم أيوجد ثوار هناك أيضا ؟ أوصلت أعمال الثوار الى قلب فرنسا ؟ . ان هذا أمر ليبعث على التعجب والحيرة ؟ .

انقضى يومان بعد وصول المجندين ، قضوهما داخل الثكنة . وأعطيت لهم فيها دروسا وتوضيحات حول : « عملهم الجليل الذي تنتظره فرنسا ، بلدهم العزيز ، الذي يفدونه بدمهم وأرواحهم دون تأخير أو تردد ... »

وفى اليوم الثالث غادر الشبان مرسيلية بالقطار قاصدين العاصمة الفرنسية باريس ــ مدينة النور كما يقولون ــ ... المدينة التي تصدر منها الأوامر لمختلف أقطار العالم التي تتبع فرنسا .

لكن باريس لم تستقبل القادمين الغرباء ، استقبالا حارا ، يرضي تطلعاتهم ، فقد سحبت يدها عنهم ، وأرجعتها الى صدرها ، وكأنها تقول لهم معتزة :

ــ « كيف سمح لكم أتتم أيها الغرباء ، أن تقدموا الى عاصمة العالم ... وتطمعوا فى كرمها ؟ أتعتقدون أنني غانية ، أضم الى صدري كل قادم ... ألا أحتفظوا بأمنياتكم في ، واجعلوها لا تخرج من قلوبكم ... لأن مجرد التفكير فى نيل شيء مني هو أمر لا يقبل منكم ... »

قضى المجندون ليلة واحدة فى باريس ، ونقلوا عند طلوع الشمس الى الشمال لكن ليس على بعد كبير من باريس ... الى سهل فسيح ، أقيم فيه معسكر عظيم وفى هذا المعسكر العظيم نزل المجندون ... فهنا تنتهي رحلتهم ... لكن البشير ــ رغم أن

PDF Eraser Free

موقع المعسكر قد أعجبه ونال رضاه ــ شعر أن نفسه تميل الى التحرر من هذا المكان ... فهو فسيح وخال ، تلتقي فيه السماء بالأرض ، وهو يشبه الى حد كبير سهول الجزائر ... وكل هذه المميزات لا تبعث على الراحة ، ولا تدعو القلب الى الانتعاش والهناء ... فالبشير يود لو مكثوا فى باريس ، هناك فى تلك المدينة ــ العالم ، التي يتوفر فيها كل شيء ... كل ما تطمح اليه النفس ، فلكل أحد أن يفعل فيها ما يشاء ، دون كدر أو تفكير ...

فلكل أحد أن يلبي آماله ويروي شهواته ...

ــ « يجب علي الرجوع الى باريس .. يجب أن أدخل باريس مــرة أخــرى ... »

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل الرابــع

أخذت الأيام تتوالى وتتعاقب ، تحمل فى طياتها عوالم جديدة ومغرية للبشير . فى هذه المساحة المحصورة من الأرض التي يوجد عليها المعسكر ، انحصرت حياته ، واصطبغت بصبغـــة خاصـــة : تمكنت من قلبه هذه البقعة وسحرته بموقعها وبطقسها وبكـــل طبيعتها ... يفتح عينيه فى الصباح ، فيجد نفسه مستلقيا عـــلى سرير مريح يشغل مكانا صغيرا من عنبر عظيم يستطيع أن يشمل مائة سرير بسهولة ... بمجرد أن يحس أنه لا يقطن هذا العنبر بمفرده ، وأن عددا كبيرا من الشباب فى مثل سنه يشاركونه المأوى ... بمجرد أن يدرك هذا حتى ينبعث فى داخله شعور بالأمان والراحة والهناء ... فكأنه فى بيته وبين أفراد عائلته ...

منذ أن كان وهو لا يحب النوم بمفرده ... لا يحبذ أبدا قضاء الليل فى غرفة خالية من الناس ... تعلم منذ ولد أن الانفراد فى غرفة ، يبعث على الحزن ويدعو الى الشجون ... ألم تكن أمه تقول له وهي تحكي له احدى حكاياتها :

ــ « ووجد الأمير نفسه وحيدا ، لا مؤنس له ولا رفيق ، لم يدر ماذا يفعل ... لقد سقط الليل ونزلت ستائره السود ، وجثم على الأرض دون رحمة ... وجد الأمير نفسه فى موقف حرج ... لم يستطع أن يقضي الليل وحيدا فى هذا البيت ... هجمت عليه

PDF Eraser Free

الشياطين ، وأخذته وهو لا يدري ، أخذته الى ديارها فى أعماق الأرض لتبتلعه وتأكله ... »

فما أن يجد البشير رفاقه معه حتى يتمطط فى فراشه من السعادة ، ويأخذ يستعرض فى ذهنه الأعمال التي قام بها ، والمشاريع التي خططها ... يأخذ يحملق فى سقف العنبر ، ويتفحصه جزءا جزءا ، وركنا ركنا ... ويسرح بخياله وهو فى وضعه هذا ، فيتذكر اليوم الأول الذي قدم فيه ، ثم تتتابع الأيام بالتسلسل الى اللحظة الراهنة .. فيتجاوز فى وقفة قصيرة حاضره ، ويذهب بعيدا ، يتطلع الى المستقبل وأخباره ...

انقضت سنة وستة أشهر على يوم مجيئه الى فرنسا .. سنة وستة أشهر مضت كأنها لم تكن ... ولو لم تكن تلك اللحظات والفرص الحلوة ، لما بقي يتذكر منها شيئا ... لقد تخللت عدة أحداث هامة حياته فى هذه الفترة ... فضمن مستقبله ، وأكد وجوده وفاز على أقرانه ...

والآن ، اذا ما أراد أن يتذكر ماضيه ، فانه يتصوره لنفسه هكذا :

ـ « نزلنا فى هذا المعسكر الجميل ... وكنت أعتقد أننا سنحمل الأثقال بمجرد وصولنا . فماذا يا ترى سيفعلوا بنا أو ماذا سينتظروا منا ؟ سيأخذوا فى تعليمنا التداريب العسكرية الوحشية، ويدفعوا بنا بعد ذلك الى الجبهات .... يا ويل على مستقبلنا ، بئس مصيرنا الذي دفعنا الى هذا الوضع ..

« لكن ما أن نزلنا حتى استقبلنا المسؤولون أحسن استقبال ، وبشوا فى وجوهنا وأعانونا فى كل شيء ...

PDF Eraser Free

« بعثونا الى عنابر مريحة ، وأوصلونا الى مطاعم فخمة ، وجادوا علينا بكل الخيرات دون أن نطلب شيئا ... كنا مدهوشين ومبهورين خلال مدة جاوزت عشرين يوما ... لقد انقضت هذه الأيام على أحسن ما تكون الأيام ... ننهض صباحا على الساعة السادسة والنصف ، فنغتسل ونرتدي ثيابنا ، ثم بعد نصف ساعة نذهب فنتناول فطورنا وابتداء من الساعة الثامنة ، نجتمع فى قاعة كبيرة ، وننصت للمحاضرات والتوضيحات التي يلقيها علينا الضباط ... وعند منتصف النهار تتناول الغداء ، ونستريح الى الساعة الثانية بعد الظهر ... ثم نعود فنسمع من جديد المحاضرات والدروس الى موعد الساعة الخامسة ... وبعد ذلك نستريح الى موعد العشاء ... وبعد ذلك نتمتع بسهرات سينمائية ومسرحية ...

« كنا خلال تلك الأيام نعيش كالتلاميذ الداخلين ، مع فرق بسيط هو أن دروسنا كانت لها صبغة عملية خاصة ، تأتي بثمارها فى وقت قصير ، فقد زدنا جميعا فى الوزن ... لكن ما أن انتهت تلك الأيام حتى تقلب كل شيء عرفناه رأسا على عقب . فلم نعد ننعم بالراحة وبالنوم ، مثل الأمراء ، ولم نعد نكتنز الشحم مثل الثيران ... ففي صبيحة أحد الأيام ، أيقظونا مبكرين ، وحينما نظرت الى الساعة ، وجدتها تشير الى الخامسة صباحا ... لم أفهم شيئا ... وما كدنا نرتدي لباسنا حتى أمرونا بالخروج وعندما وجدنا أنفسنا فى الخلاء ، رحنا نقوم بحركات رياضية عنيفة ، حسب ارشادات أحد الجنود ... وبقينا نقوم بتلك الحركات مدة طويلة من الزمن ، حتى شعرنا أن التعب قد أنهكنا، وأن العرق قد تصبب من كل جزء فينا ... ويا ليت المصيبة كانت قد انتهت هنا ... فنحن ما كدنا ننتهي من تلك الحركات

PDF Eraser Free

الرياضية وتتنفس الصعداء ، حتى فوجئنا بأوامر جديدة تأتينا من الضباط تدعونا الى الزحف على البطون تحت أسلاك شائكة موضوعة خصيصا لهذا الغرض ، وترتفع قليلا على سطح الأرض ... فانطرحنا على بطوننا ورحنا نزحف مثل الحيوانات على صدورنا

وكنت كلما أفعل هذا التمرين القاسي ، أتذكر اليوم البعيد الذي رأيت فيه عقربا يزحف على بطنه فقد كنت فى ذلك اليوم البعيد طفلا صغيرا ، لا أتجاوز السادسة ... وبينما كنت ألعب قرب الدار فى خرائب منزل تهدمت أركانه أبني « القصور » وأصمم الأشكال ، اذا بي أحس بشيء غريب يزحف على ظهري ، ويتمسك بثيابي كان هذا الشيء الغريب الذي لم أعرف كنهه بعد ، قد أخذ يتسلق ظهري خطوة خطوة من غير اضطراب ، فكأن له خبرة بهذا الميدان ... تسمرت فى مكاني ولم أقدر على تحريك طرف ... تسللت برودة قارسة الي حتى كدت أرتعد ... لكنني ، وبحركة غير ارادية ، لا أعرف مصدرها ، نفضت ثيابي بشدة ، وقمت فى مكاني ، وأطلقت ساقي للريح ، واتجهت فورا الى الدار دون محاولة الالتفات الى الوراء ، واتصلت بوالدي وأخبرتهما بلسان مضطرب وأنفاس متقطعة ، أن حية غريبة ، قد حاولت التسلق والصعود الى رقبتي لتخنقني وتقتلني ...

« فرجعت مع والدي ، ودخلنا الخرائب وقصدنا مكاني الأول ، لكننا لم نعثر على شيء ... فأكدت من جديد لأبي أن حية توجد فى الخرائب ... فقمنا بالتفتيش وبعد برهة قصيرة

PDF Eraser Free

من البحث عثر والدي على عقرب خبيث فأخرجه بواسطة عصا طويلة ، وسحقه بحجرة كبيرة .. فانفصلت أطراف الحية وأخذت ترقص وتتحرك ، وكأنها لم تمت ... ورحت أنا أبكي وأصرخ ... ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة ... لكن الحمد لله ان كل شيء قد انتهى على خير ، ولم يبق من تلك الحادثة المفجعة سوى الذكرى ولكنها لا تنبعث سوى في ظروف خاصة معينة مثل هذه التدريبات العسكرية التي نقوم فيها بالزحف على بطوننا ... وهكذا فبعد هذه التمارين تأتي تمارين أخرى أشقى وأصعب ... فقمنا بتسلق المتاريس وكم كانت صعبة علي هذه المتاريس ... فقد كنت أحسبها مثل الجبال ، واقفة في سبيلي لا تتزحزح ، ولا تشعر بوجودي .. نظرت اليها مليا ، فوجدتها تعلو علي كثيرا ، كيف الصعود على هذه المتاريس الملساء ؟ نظرت الى زملائي فوجدتهم بين مقدم ومحجم ، لكنهم جميعا غير مبالين ، فما كدت أرى فيهم هذه الصفة المحمودة حتى فعلت مثلهم ... فاندفعت نحو أحد المتاريس الخشبية ، وأنشبت فيه أظافري ، ورحت بكل ما أملك من شجاعة وقوة ، أحاول التسلق . وما هي الا لحظات حتى وجدت نفسي في قمة السد الخشبي .. فنظرت الى أسفل فوجدت الأرض ، ثائرة التربة لينتها ، فصممت على القفز، ورميت بنفسي ، فاذا بي عندما أسقط أرضا أشعر بألم في مفصل قدمي ، فلم أستطيع مغادرة مكاني ... لكنني رغم كل الآلام وكل المتاعب ، أجبرت نفسي على الجري واللحاق بزملائي ... فقد عرفت من تلك التمارين أن الحياة صعبة ولا يلحق بالتمتع بلذائذها سوى ذلك الرجل الذي يقتحم المصاعب ...

PDF Eraser Free

« ومنذ ذلك اليوم أصبحت مشكلة المتاريس بالنسبة لي — وكذلك جميع التمارين والألعاب العسكرية الأخرى — لعبة أطفال ...

« وبمرور الزمن أخذت أحرز الانتصارات فى جميع التمارين ... وكنت دائما فى الصف الأول ، أنال رضى رؤسائي وأتحصل على ثقتهم ، وبمرور الزمن أخذت السدود التي كانت موجودة بيني وبين رؤسائي تسقط وتذهب ، وأصبحت تلك الغشاوة المظلمة التي تحجب عني عالمهم ، أقل من السابق ، متانة وسوادا . وهكذا تحصلت على ثقتهم ، وأصبحت لهم عونا ، لا يستطيعون التخلي عنه ... فلم يرجعوني الى الجزائر وانما احتفظوا بي معهم فى فرنسا ، لأقوم بالواسطة بينهم وبين الجزائريين الذين يقدمون لتأدية الخدمة العسكرية ... وكم أعنتهم فى هذا الميدان ... فقد كان الجزائريون الذين يأتون جددا ، يشكلون جبهة صعبة ، ويخلقون مشاكل عويصة ، فى كيفية الاتصال والمحاورة والتفاهم ... فقد كان البعض ، يقدمون وهم لا يعرفون كتابة ألقابهم وأسمائهم ..

« آه ، من هؤلاء الناس ، يا لهم من بؤساء مساكين ، ينغصون حياتهم بجهلهم وينغصون حياة غيرهم ... لكن الحمد لله ، ان لي فرصا عديدة للتخلص من مضايقاتهم ومتاعبهم ... ان باريس بجانبي تسرى عن بالي الهموم وتفتح أبواب الحياة السعيدة أمامي ... نعم المدينة أنت يا باريس ... »

نعم ، لقد إنقضت سنة ونصف على قدوم البشير الى فرنسا لتأدية الخدمة العسكرية ، وقد استطاعت هذه الشهور أن تغير

PDF Eraser Free

من سلوك البشير ومن عقليته فانقطعت الصلة بينه وبين أهله ووطنه ، ولم يعد هناك سوى خيط عنكبوتي رفيع ، يربطه بهما ... فقد وردت له عدة رسائل من أهله — رسالة كل أسبوع تقريبا — لكنه لم يفكر يوما فى الاجابة عليها ، بل لقد ندم حتى على الرسائل الأولى التي بعثها لهم ، وذكر فيها عنوانه ... فما الفائدة من ذلك يا ترى ؟ ماذا يهمهم من أحواله ؟ ألم تنقطع العلاقة بينه وبينهم منذ اليوم الذي عبر فيه ، ونزل فى تربة فرنسا ... ثم ماذا يهمه من أن يقرأ رسالة مثل هذه ، جاءته من والده بعد شهر من يوم وصوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

ولدي العزيز :

انك بعيد عن عيني لكنك تسكن فى قلبي ... ان البحر الذي يفصلك عن نظرى لا يبعدك عن ذاكرتي ... اننا نفكر فيك دائما وتتمنى عودتك فى أقرب الآجال ... ان والدتك بخير ، لكنها تذرف الدموع ليلا نهارا على بعدك ، وان دموعها تكاد تجرح خدودها ... ان زوجتك ربيعة تفكر فيك دائما وتصلي وتضرع لله تعالى أن يعيدك اليها عما قريب — ان شاء الله — لتتنعم بقربك ، وتهنأ عند رؤيتك ...

تقبل منا السلام الحار ... وثق فى الله ، وآمن برسوله ... انك ستعود .

من والدك : بلقاسم . »

اذا كان والده يعبر عن شعوره نحوه ، وشعور الأهل تجاهه ،

PDF Eraser Free

فماذا يهمه هو من ذلك ، ألا يعرف أهله ؟ ألا يعرف البـلاد ؟ فليكتب وليكتب ، انه لن يستمع له ... انظر ، انظر الى هذه الرسالة ذات التعابير العاطفية السخيفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

ولدي العزيز

ان أخاك العباسي مريض فى هذه الأيام ، يعاني مـن حمى شديدة الوطأة ، ويطمع فى أن يراك عما قريب ، ليطمئن ويرتاح باله . ألا فارسل له يا بني جوابا لترتاح نفسه ويطمئن عليك .

ان والدتك وزوجتك وأنا ، كلنا ، نرجو منك باسم العلاقة المقدسة التي تربطنا معك أن تجاوبنا على رسائلنا ، وتصف لنا أحوالك ، وتطلعنا على حياتك ...

ان عيوننا مشتاقة الى مطالعة حرف مما تكتبه ، وان أيدينا لمتشوقة الى لمس شيء منك .. فلا تحرمنا يا ولدي من سطور تكتبها بيدك ، ولا تحرمنا من أوراق تصف فيها حالك .

من والدك : بلقاسم . »

ماذا يهمه من هذه الأخبار التافهة ، لقد انقطعت الصلة بينه وبينهم . فليمرض العباسي ، وليمت ... ان ملايين الناس تموت فى كل لحظة . فما الغرابة فى أن يكون أحد هـذه الـوفيات العباسي .. بأي شيء يمتاز عن الآخرين حتى لا يمرض أو حتى لا يموت . ان الفناء نهايتنا جميعا . فلماذا هذا الخوف وهذا الاضطراب ؟

PDF Eraser Free

حقيقة ، لقد مرت أيام سعيدة على البشير عاشها بمرافقة أخيه العباسي وقد كان يرى في أخيه الكبير ، النموذج الاول للشباب الممتاز الذي يمتدح كل انسان صلته به ، ويحاول الاقتراب منه ، والفوز بصداقته . لكن تلك الايام قد مرت وانقضت ولم تعد تشغل في الذهن حيزا . فهل يمكن لذكريات وأحداث مثل هذه أن تبقى في الذهن ، ويبتهج بها القلب ؟ أحداث البؤس والشقاء ، والقسوة ؟؟

كان يحدث أحيانا أن يذهبا مع بعضهما ، وهما طفلان صغيران ، الى رعي الاغنام والبقر فى المزارع والمروج .. كما كان يحدث أحيانا أخرى أن يذهبا لاصطياد العصافير بواسطة الفخخ ، أو بواسطة الحجارة ، وكانا يرجعان الى البيت مسرورين .

ومرات أخرى كانا يتآمران على والديهما ، فيعصيان أوامرهما ويذهبان الى حقول الجيران ، فيقطفان الثمار ، ويتوجهان نحو أحد المخابيء المعروفة لديهما ، ويلتهمان بشراهة ما خطفت أيديهما .. ولكن حينما كبرا ، لم يعودا يقترفان مثل هذه الاعمال وخاصة العباسي ، فقد استولت عليه أفكار جديدة ، تاه في شعابها ولم يعد يدرك ما يقوله له البشير .. لكن رغم ذلك فان البشير بقي يرى فى أخيه الشاب والرجل الذي سيصبح فى المستقبل .

لكن الآن ، وبعد أن حدثت هذه التغيرات على حياة كل من الأخوين ، فان بعض المفاهيم قد تغيرت ، وبعض العواطف قد

PDF Eraser Free

تبدلت . فتلك الأيام البريئة التي مضت ، قد ذهبت ولا رجعة لها ... وهذه ظروف الزمان التي تحدث فى الفرد ما تشاء .

مع مرور السنة والنصف التي قضاها البشير فى « معسكر » بفرنسا ، مرت تداريب عدة على يديه ... فقد عينه المسؤولون الفرنسيون ــ بسبب نجاحه المتفوق ــ على تلقين بعض التداريب العسكرية ... فكان البشير بمجرد أن يرى هؤلاء الناس ، حتى يتمعن النظر فيهم طويلا ، فيرنو اليهم جميعا بعيون شاخصة متحدية ، وكان لسان حاله يقول :

ــ « لعنة الله عليكم أيها الكلاب . لا يستطيع الانسان أن يتخلص منكم . فحيثما ذهب لحقتم به ، وأينما حل نزلتم عليه . فماذا تريدون مني هنا ؟ لن أتواضع حتى أتبادل معكم الكلام . سأكون بئس المدرب معكم ، سأمحي منكم الاعوجاج الذي ورثتموه عن جدودكم ... سأستعمل معكم القسوة التي لا مثيل لها حتى لا تحدثكم أنفسكم ، فتقولون أن هذا وطني مثلنا ، سيكون لنا نعم المعين ونعم الصديق ... »

وكانت أولى الأعمال التي يقوم بها البشير مع المجندين الجدد ــ وهم قلة ــ هو أن يذهب ، فيطلع على أسمائهم جميعا ، ويبحث عناوينهم فى بلادهم ... والسبب الذي يدفع البشير الى القيام بهذه الأعمال هو أن يطلع ان كان هناك أحد من « الأقارب » أو « الأهل » قد قدم ولحق به . وبمجرد أن يجد البشير أنه لا يعرف أحدا من المجندين ، وخاصة حينما يتقابل معهم ، وجها لوجه ، حتى يتنفس الصعداء ويشعر بثقل عظيم ينزاح عن صدره فيتركه مرتاحا . فهو لا يود أن يأتي أحد ، فيعكر عليه صفو

PDF Eraser Free

حياته المنعزلة ، ويفسد الضوابط التي أقامها لنفسه وخاصة حينما يأتي أحد من هؤلاء الشبان المجندين الجدد ، فينعزل بالبشير ، ويسر له فى أذنه أنه قد عرفه ، وأنه يحمل له أخبارا من أهله ... وبمجرد أن يقول هذه الكلمات ،حتى يبدأ فيتكلم ساعات دون توقف ، وكأن الأخبار التي أتى بها لا تنفذ فيتصنع البشير الصمت ، ويضع يديه وراء ظهره ، ويروح يتفحص المتكلم دون فهم ، بينما يستمر الشخص يقول :

ــ « ماذا تريد أن أقول لك يا أخي . لقد اعتقدت أني لن أجد جزائريا فى هذه البلاد . فأنت تعرف أننا لا نحب المجيء اليها ، فهي بلاد تبغض وطننا وتفعل فينا الشر ، لكن ، ماذا تريد أن نفعل ؟ لقد جئنا رغما عنا ... لم نستطع الهروب من وجه فرنسا . فأخذتنا وجاءت بنا الى هنا .

« يجب علينا أن نصبر ونثق فى الله ، لأنه سيحررنا يوما من أيدي هؤلاء الناس ... ولكن ماذا تريد أن نفعل الآن ؟ قل لي أنت يا أيها الذي جاء قبلي ، وجرب الحياة أكثر مني . سنكون من خيرة عباد الله ، ان نحن قضينا فترة الخدمة الاجبارية ورجعنا الى أهلنا معافين مسالمين . أما اذا أخذونا الى الجبهات ، وصففونا أمام اخواننا هناك فى الجزائر لنقاتلهم ، فماذا يا ترى سنفعل ؟. الله لا يتركنا نعيش الى تلك الساعة المشؤومة ، ان كان ذلك هو ما ينتظرنا . أو ليس صحيحا ما قلت ؟ خبرني بالله كيف تريد مني أنا مثلا أن أرجع الى الجزائر بلباس عسكري فرنسي ... فأرفع السلاح فى وجه أخي الذي صعد الى الجبال ، وأوجه اليه الرصاص ، فأجرحه أو أقتله ... أنا والله لن أفعل ذلك ولو

PDF Eraser Free

جروني جرا . سأثور وأفعل كل شيء حتى أبقى هنا الى الأبد ، أو أرجع الى الجزائر مدنيا مسالما ، واذا لم يصلح كل ذلك سأنتحر وأحرر نفسي من هذه الآلام وهذه المآسي . يكفي ما فعلوا بآبائنا وأجدادنا ، فلماذا نحن الآن ؟ ولكن ماذا تريد ، لقد اخطأت أنا . نعم لقد اخطأت الخطأ الكبير عندما لم أصعد الى الجبل مثل أخي ، وأرفع السلاح فى وجه فرنسا ... لأني لو فعلت ذلك لكنت على الأقل أدافع عن قضية صحيحة وعن قضية مقدسة ، مقدسة عند الله ومقدسة عند العباد ... هذا أمر لاشك فيه ولكن ماذا تريد ؟ لكل شخص ما كتب عليه ... لقد كتب عليك أنت مثلا أن تغادر أهلك وبلادك ، وتقطن هذه البلاد النائية الموحشة ،وأنا كذلك لقد كتب علي أن ألحق بك ... ولكن، نحن لا نعلم ، ربما سيحفظنا الله ، فنرجع الى وطننا ...

« آه ، ولكن لقد نسيت ما كنت أود أن أقوله لك . ان الحديث عن الحياة التي نعيشها ، يجعلنا نفقد عقولنا ، ولا نعرف ما نقول . لقد رأيت أخاك قبل أن آتي ، وقد أوصاني أن أبلغ لك سلامه وسلام الأهل ، وطلب مني أن أعلمك كذلك ، أنه يرجو منك أن تبعث له بعض الرسائل ... فهو يحاول بكل جهد أن يتقصى أخبارك ، وبأية طريقة كانت فلهذا طلب مني المسكين أن أخبرك ، أنه فى انتظار رسائلك بفارغ الصبر

« يا للعباسي ، انه رجل ممتاز ، واسع الصدر ، كريم النفس ، نبيل المشاعر ... أتعرف أنه يساند جميع المجاهدين فى الجزائر ، ويقدم لهم الاعانات بكل الوسائل ؟ بل لقد صعد مرات عديدة ، وشارك فى عدة اشتباكات ...

PDF Eraser Free

« يا للعباسي ، انه أوصاني أن أخبرك أن زوجتك قد وضعت لك ابنا ... وقد قال لي كذلك أن الطفل جميل وفى صحة تامة ، وقد أسموه « باديس » ، ولكن أتعرف لماذا أسموه بذلك الاسم ؟ انهم أسموه كذلك ، تقليدا لاسم عالـم الجزائر الكبير « ابن باديس » ، حتى يكبر الطفل ، ويصبح مثل عالمنا رحمـة اللـه عليـــه ... »

كان هذا النبأ المفاجىء هو الخبر الوحيد الذي سمعه البشير ... فهز كيانه وعصف بقلبه ... لم يكن ينتظر مثل هذا الخبر . فقد نسى منذ زمن بعيد ان كان هو متزوجا أم لا . فالأيام التي قضاها مع ربيعة كانت قصيرة للغاية ، لم تمكنه من أن يحمـل عنها ذكرى طويلة ..

لهذا فان عبارة « وضعت ابنا لك » كانت عبارة قاسية على قلبه ... فهي قد رفعته فى لحظة واحدة قصـيرة مـن حاضره وأرجعته الى ماضيه ... ربطتِ فى صدمة قوية بين حاضر مزهر وماض مكروه ... غير مرغوب .

عندما سمع البشير هذه الكلمات تنحنح واصطنع عدم المبالاة ، ورمق محدثه بعين حادجة ، وأوقفه عن حديثه ، وقال له وهو يود لو يستطيع أن يمسك بخناقه فيزهـق روحـه ، ويسكت الحديث الطويل الذي يصدر من فمه كأنه جدول من المياه ينبع من مصدر لا يمكن تصور نهاية له :

ــ لماذا تخبرني بكل هذه الأشياء ؟ أنا لم أطلب منك شيئا . لا تحسب سكوتي دليلا على انتباهي الى ثرثرتك ... فأنا ، ان كنت تود معرفة الحقيقة ، لم أكن أستمع اليك وانما كنت أتفرج

PDF Eraser Free

فيك وأسجل ما تلفظه من عبارات ذات أهمية خاصة . فانك قد أخطأت في شخصي . فأنا لا أسمى البشير ، واسمي الحقيقي ان كنت تود معرفته ، هو « جاك » فأنا لا أعرف العباسي ، هذا الذي تتكلم عنه ، وأنا غير متزوج . لكن على ثرثرتك فانك ستعاقب ، واحمد الله ان أنا لم أتشدد في معاقبتك ... هيا انصرف . »

كان البشير يرى أن الحل الصحيح الذي يمكنه به أن يبعد عن نفسه كل الشبهات ، يكمن في أن يغير اسمه ، ويتخلص من ماضيه . فليعرفه الناس اذا أرادوا لكنه سيخيب آمالهم ، يفاجئهم بشخصيته الجديدة التي ولدت في هذه البلاد ، وأينعت وازدهرت ، فكونت من عقله عقلا آخر ، وصنعت من قلبه قلبا آخر .

لكن ... لكن رغم كل ذلك ، فقد بقيت في البشير بعض من روحه الأولى . فهو وان كان قد صمم على أن يتخلص من ماضيه، ويجعل من نفسه فردا جديدا ، فانه يحن أحيانا الى أهله والى وطنه . فلكي يتخلص من هذين العنصرين تماما يجب أن تكون له ارادة حديدية لا تتأثر بالعواطف ولا تضعف عند الذكريات ... والبشير يشعر أنه لا يملك هذه الارادة الجبارة ، ولكنه رغم كل ذلك يصبر ويصابر الى أن يأتي ذلك اليوم الذي يتحقق فيه ما يريده .

أما الآن ، فان مجرد ذكر اسم من أحد أفراد عائلته ، أو مجرد ذكر اسم يشبه في اللفظ أحد أسماء أهله ، يجعله يتألم ،

PDF Eraser Free

ويعاني كثيرا . فيرى أحيانا أنه فعل فعلا أدا ، ويرى أحيانا أخرى أنه ظلم نفسه وظلم أهله .

ان مجرد سماعه لكلام الشاب المجند الجديد ، يعتبر اقداما . لكن لكي يستمر ذلك الشاب فى ذكر كل شيء ، فانه لن يطيق ذلك ، وسيصرخ فى وجهه ويلعنه .

انه لا يعتبر علاقته مع ربيعة شيئا يمكن أن يسمى زواجا . فان هذا كثير عليه . فما هو هذا الزواج ؟ ! ومن هي هذه الفتاة التي تسمى ربيعة ؟

انها تلك الفتاة القصيرة القامة ، الحيية ، التي يموج على جانبي وجهها ، شعر أسود ... تلك الفتاة التي رضخت الى ظروف حياتها القاسية ، وترضخ لكل ما يأتيها ويصيبها . لا ترفع يدا ولا ترفع صوتا . تكن وتئن وتصبر وتصمت وتعيش ، ولا تفعل شيئا آخر . ان هذه الصفات التي تتصف بها ربيعة ، لا تسمح لها بأن تجلس الى جانب البشير وتشاركه مصيره . لماذا ؟ لأنها لا تملك القدرة والشروط اللازمة لذلك ، فهي ليست رائعة الجمال ، وليست بشوشة . ثم انها لا تملك ذلك السحر الذي تستطيع بواسطته أن تجلب الرجل اليها ، وتخلبه بمفاتنها ، وتجعله يدور فى فلكها . بل ، انها هي التي تنتظر أن يجعلها الرجل تدور فى فلكه هو ...

كيف يمكن تفسير سلوك ربيعة ؟ هل هي مولودة بهذه الصفات ؟ أم هل اصطدمت بالحياة ، فخرجت كما هي الآن ؟ يا للفتاة المسكينة ، الجاهلة ، الغرة ، أيمكن أن نطلق كلمة حياة

PDF Eraser Free

على الحياة التي تعيشها ؟ أيمكننا أن نسميها باسمها ونعتبرها امرأة ؟ امرأة مثل جميع النساء ... بشرا مثل جميع البشر ؟ تكون طفلة ثم تتطور فتصبح مراهقة ، ثم تتزوج ، وتصبح أما ؟ أفي رأسها تلك الصغيرة ، ذات المسحة البريئة ، تدور الأفكار ؟ أفي صدرها ذلك الصغير الهش ، الضامر الثديين ، تختلج العواطف وتضطرم ؟ ... لكن ان كيان ربيعة وروحها ووجودها ، لا تستطيع مجتمعة أن تكون فى مستوى كيان وروح ووجود البشير ، فهي دوما أسفل منه نبلا ، وأحط منه شعورا واحساسا ... ولهذا فالبشير لا يحب ذكر اسمها أو التلميح اليها ... ان مجرد سماعه لاسمها يجعله يضطرب فكيف الحال اذا ، اذا أضاف المتكلم ، فقال « أن ربيعة قد وضعت لك ابنا » ... انه سيلعن ذلك المتكلم ويطرده من أمامه .

أتنجب له تلك الفتاة ابنا ؟ أيختلط دمه مع دمها ، فيكونان مخلوقا جديدا ؟ كيف يكون هذا المولود يا ترى ؟

ان البشير يتخيله هكذا : ولد ضعيف البنية ، كثيف شعر الرأس ، بليد النظرات ، أفطس الأنف ، بين الملامح ، دقيق الشفتين ، واسع الفم ... كيف !؟ أيمكن لهذا الطفل أن يكون محصول زرعه ونتيجة أعماله ؟ لا ... ان الولد الذي يتمناه البشير لا يتصف بالصفات المذكورة . فهو يجب أن يكون طفلا جميلا ، بهي الملامح ، متناسق القسمات ، ذهبي الشعر ، ذكي ، فهيم ، يستوعب الكثير ... لا يئن ولا يبكي ، مقداما ، شجاعا ... يستطيع أن يجد مكانا لنفسه أينما ذهب ... يفوز على جميع أقرانه فى كل الميادين ، لا يستكين ولا يعترف بالخوف ...

PDF Eraser Free

يتخلص من أحضان والدته ، ويندفع لأحضان الحياة ، فيحقق لنفسه المجد ، ويحقق لآبائه الخلود ... وبكلمة قصيرة ، يكون ابنا مكملا لأبيه . ابنا متمما لوالده ، ليصلا معا الى الكمال الانساني .. أما اذا لم يكن ما ينتظره من ابنه هو هذا الشيء ، فلماذا يدعوه بولدي ، ولماذا يسأل عنه ؟ والطفل الذي سيحقق للبشير ما يطلبه منه ، لن يكون بأية صفة ، ابنا لربيعة كذلك ... لماذا ؟ لأنه لن يرث منها سوى الخوف والاستكان والجهل والحطة . لا شيء غير هذا . فحيثما كانت الزوجة أمية ، جاهلة ، فان أبناءها سيكونون دائما متخلفين نفسيا وفكريا . والمثال على ذلك واضح للعيان ... فليرجع الانسان الى حياة البشير نفسها وليدرسها ... ماذا سيجد ؟ ما هي الكنوز التي يمكن أن يعثر عليها في حياته ؟ لا شيء . والبشير نفسه .. انه لا يحب التفكير في ماضيه الأول ، حيث كان طفلا ، ولا يريد التكلم عن فترة طفولته ... فهو كما يقول لنفسه دائما :

ــ « لم أعش الطفولة . وان كنت قد عشتها ، فأنا لا أعتز بها ... ولهذا فأنا لا أود أن يعيش ابني الطفولة التي عشتها أنا . »

قرر البشير مع نفسه قرارا حازما ، هو أن لا يهتم بالنبأ الذي سمعه ، فيقصيه عن ذهنه حتى لا يعكر عليه صفو حياته ... فليجعل كل شيء بعيدا عليه . انه يقطن فرنسا ، والولد يقطن الجزائر ، فكلاهما بعيد عن الآخر ، ولا يمكن أن يقع بينهما اتصال ... واذا كانت ربيعة قد أنجبت ابنا ، فمن يؤكد أن هذا الابن هو ابنه فعلا ؟ من يجبره على قبول الأبوة ؟ ان البشير بوصفه بعيدا عن زوجته يمكن له أن يثير الشكوك ... لكن

PDF Eraser Free

لتذهب هي وليذهب الولد الى الشيطان ... فماذا تستطيع أن تفعل ؟ لا شيء ... ثم بالاضافة الى كل ذلك ان البشير لم يعد يدعى باسمه السابق فهو يحمل اسما آخر ، اسما جديدا هو جاك ... وان الولد الذي يجب أن يكون ابنا له ، يتحتم عليه أن يحمل اسما آخر كذلك ... فما معنى الاسم الأول ؟ فما معنى « باديس » ؟ وما معنى أن يكون عالما مثل ابن باديس ، عالمنا. » ؟ فلماذا لا يكون اسمه مثلا « بيير » أو « كلود » أو « بول » .. ان لهذه الألفاظ رنة حلوة ، وسحرا خاصا يشغف القلب ، ويشنف الآذان ... وكل هذه الأسماء هي أسماء علماء ...

كان النبأ الذي سمعه البشير ، أو جاك على الأصح ، كما أصبح يدعي ، قد هزه هزا عنيفا ، وكدر عليه صفو أيامه . لكن التأثير لم يستمر طويلا ... فقد أخذ البشير ينسى ما سمع ، ويتخلص من الذكريات التي ترجع الى عهده القديم ... وحيثما يكون العمل شاقا ، ويكون قاسيا ، فانه يسنح للبشير الراحة والهناء ... وأصبحت وجوه الجزائريين الذين يراهم يوميا معه فى المعسكر أقل اثارة له .. فقد أخذ ينساهم وأصبح يجافيهم ..

وحيثما كانت فترة للراحة ، فان البشير أصبح يغادر المعسكر بصحبة رفاق فرنسيين ، ويتجه نحو العاصمة ليغرق نفسه فى « الكحول والمحرمات » . فما أن يرى رفاقه يقومون بعمل حتى يقلدهم أحسن تقليد ، ويقتفي آثارهم .

وهو يتذكر جيدا اليوم الأول الذي خرج فيه مع بعض الزملاء الفرنسيين ، كان ذلك فى مساء يوم السبت ... غادروا المعسكر واتجهوا نحو باريس ، ووصلوها عند المغرب ...

PDF Eraser Free

اقترح أحدهم أن يذهبوا لتناول العشاء فى أحد المطاعم المشهورة، ليتسلوا قليلا ، ويغيروا روتين المعسكر ... فوافق الجميع ... وفى أحد الشوارع الرئيسية وجدوا المطعم المذكور ، فولجوه مسرورين مبتسمين .

كانوا ستة أشخاص ، دخلوا بفوضى عارمة ، وجلسوا الى احدى الطاولات ... تقدم منهم نادل المطعم ، فابتسم لهم ، وطلب منهم أن يعلموه ماذا يطلبون ، حسب ما هو مسجل فىقائمة المأكولات ... ففاه كل واحد بما تشتهيه نفسه ، ووصل دور البشير ليطلب هو كذلك ما يريد ... فتحرج واصطبغ وجهه بحمرة قانية ، وقال :

ــ أنا أطلب الشيء نفسه الذي طلبه صديقي هذا ... نعم ، نفس الشيء من فضلك .

قال هذا رغم أنه لم يعرف تماما ماذا طلب صديقه . ولكن ماذا سيكون هناك ؟ لاشك أن كل ما يقدمه المطعم جميل وشهي . فلينتظر ماذا ستكون المفاجأة . وبينما كان النادل يعد لهم مأكولاتهم ، أخذ الجنود الستة ينكتون مع بعضهم : سأل أحدهم البشير قائلا :

ــ ماذا تقول فى هذا المطعم يا جاك ؟ هل رأيت مثله فى الجزائر ؟

لم يجب البشير بكلمة ، وانما رفع رأسه نفيا ... فقهقه الجميع ، وعلق أحدهم :

ــ ان الجزائر ما زالت بلادا متأخرة ... لكن لو تتوقف الثورة،

PDF Eraser Free

فان الفرنسيين سيعملون على محاربة التأخر الموجود ، ويجعلون من الجزائر بلدا مثل فرنسا ... يشيدون فيها مطاعم فخمة مثل هذه ، يستطيع الانسان أن يجد فيها كل ما يطلب من الأكل والخمر والحب ... كل مشاهي الحياة . أليس كذلك يا رفاق ؟

فأجابه الجميع بنعم ، بينما لزم البشير الصمت . فسأله أحدهم :

ــ ماذا تقول أنت ؟ ألا توافق على أن بلادك ما زالت متأخرة وأن فرنسا لقادرة على دفعها نحو التقدم ؟

التفت البشير الى الذي خاطبه وقال له ، وكأنه يود لو يهشم له ذقنه المدبب ويكسر أسنانه المعوجة ، لكي لا يعود فيلفظ مثل هذه العبارات :

ــ أنا لست جزائريا . والجزائر لا تهمني . لقد أصبحت مثلكم فرنسيا . لا علاقة لي بما هو فى خارج فرنسا

لزم الجميع الصمت ... لكن ما أن تقدم نادل المطعم بالأكل حتى رجعوا الى حديثهم الأول ... فراحوا يتكلمون فى جميع المواضيع التي تبحث فى الشهوات ، وتدعو الى التنكيب والتعليق ... ثم راحوا يلتهمون طعامهم بشراهة عجيبة . لكن ما كاد البشير يتذوق قطعة اللحم الموضوعة أمامه ، حتى توقف عن المضغ وراح يحملق فى المأكولات دون أن يسأل أحدا ... فنخزه أحد رفاقه بمرفقه وقال له بصوت منخفض :

ــ كل ... كل يا صاحبي .

فرجع البشير يأكل دون أن يحاول معرفة ما يأكل . لماذا يسأل ؟ ان كل شيء حلال هنا ... وهكذا شعر البشير بسعادة

PDF Eraser Free

عجيبة تغمره وهو يجلس بجانب رفاقه الفرنسيين ، أبناء البلد ... هذا البلد الذي يرن اسمه فى كل أذن ، ويملأ صداه مسامع الناس .. والدنيـــا

فليعش مثلما يعيشون، يأكل مما يأكلون ، ويشرب ما يشربون، يمارس ما يمارسون ويعتنق ما يعتنقون .

انتهى الجميع من تناول العشاء ، فخرجوا سعداء يتمشون فى الشوارع ، ويقتفون أثار النساء ... لكن عملهم هذا لم يعد عليهم بفائدة ... ولهذ اقترح أحدهم :

ــ اسمعوا أيها الرفاق اسمعوا أيها الأصدقـــاء ... سنتعب أنفسنا كثيرا دون فائدة فلماذا لا تتبعوني ، وسأوصلكم أنا الى ما تتمنـــون ؟..

فاتبع الجميع نصيحة هذا الأخير ، واقتفوا أثره . فأوصلهم الى حي يبعث على الريبة ويدعو الى الشكوك . فوجدوا هناك بمجرد دخولهم الحي ، نساء عديدات تقفن على الأرصفـــة ، وتستندن الى الأعمدة والجدران ، نساء تبعن الهوى مقابـــل النقـــود ...

اشمأز البشير من هذا المنظر وكاد لا يصدق ما رأى . فراح يسأل نفسه ، دون أن يجد أجوبة شافية :

ــ أهذا الحي موجود حقيقة فى فرنسا ؟ وفى باريس ؟ ماذا تفعل هذه المجموعة من النساء هنا ؟ انه لعار على فرنسا أن يكون فى مدنها مثل هذه الأحياء ، ومثل هؤلاء النساء ... نساء جميلات، بل رائعات الجمال ، يقفن على الأرصفة ليبعن الهوى لكل قادم

PDF Eraser Free

مقابل بعض النقود ... يا لذلك العار الذي يتندى له الجبين ... أيوجد هذا الشيء فى فرنسا ، البلاد المتقدمة التي تحتل الأقطار وتستعمر القارات ،ويكاد رأسها يلمس السماء من شدة الكبرياء والاعتزاز بالنفس ...

ولكن ان هذا لا يوجد فى الجزائر ، رغم أنها بلاد متأخرة ، تتعرض لكل الأمراض الاجتماعية ... ان شعب الجزائر لا يرضى بأن يشمل مجتمعه على فئات مثل هذه ... ان عقيدته تحرصه ... ولكن لماذا توجد هذه الموبقات فى فرنسا ؟ ان جميع الأفراد هنا يعيشون فى رفاهية ، ويتلقون أجورا مرتفعة ... كلهم يعرفون الجميل من القبيح ، ويميزون بين الصالح والطالح ، ولا يسمحون لأنفسهم بأن ينغمسوا فى مثل هذه الرذائل التي تدعو الى الغثيان ... فماذا حدث اذا ؟

سأل البشير أحد رفاقه :

ــ خبرني ، لماذا تتاجر النساء بشرفهن ؟

فأجابه صديقه ، وهو لا يكاد يصدق السؤال الذي سمعه :

ــ طبعا لأنهن لم يجدن أزواجا ... ثم انهن يتحصلن على « أجور » مرتفعة من عملهن هذا ، فلماذا يذهبن ويبحثن عن العمل ... ان هذا العمل مريح لهن ، لحد لا يمكن تصوره ... ثم انهن يعدن بفائدة كبيرة على المجتمع ... فهن يسمحن لكل رجل أن يمارس العلاقة الجنسية معهن ...

نطق الزميل بهذا التفسير ، ثم أكمل حديثه وهو يبتسم :

ــ أو لا توافقني فى أن دورهن يعود علينا بالنفع كثيرا ؟

PDF Eraser Free

فتصور نفسك وحيدا ـ كما أنت بالفعل الآن ـ فكيف يمكنك أن تنال بعضا من الحب ؟ ألا تموت فى جلـدك ، وتشيـخ فى شبابك ؟ اذا لتبقى هؤلاء النساء ، بائعات الهوى ، ولا تذهب رائحتهن لأنهن لو ذهبن لما استطعنا نحن أن ننعـم بفترات راحتنا التي نأخذها من حين لآخر ... هل أنت معي الآن ؟ ...

استمع البشير الى تعليق زميله ، ولم يرد عليه بحرف ... وانما أخذ يفكر :

ـ « هذا صحيح . هكذا يستطيع كل الناس أن يعيشوا فى سعادة ، فلا قيود هناك ولا محظورات ... فلماذا أبحث أنا الآن عن الأسباب التي أدت الى وجود هذه الفئة من المجتمع ... ماذا يهمني ؟ لأنال بغيتي وأذهب . أنا لا أخسر شيئا لتحيا فرنسا، ولأحيـا لهـا ... »

وهكذا أصبح البشير كثير الزيارات على مثل هذه الأماكن ... يفر اليها بمجرد أن يرى نفسه قلقا ، أو بمجرد أن يشعر أن ضميره قد استيقظ وراح يحاسبه ويؤنبه ولكن كيف كان ضميره يؤنبـه ؟

كان يحدث له أحيانا أن يفكر فى شيء بعينه ، حتى يجد فجأة أن ضميره قد استيقظ ، وراح يحاسبه ... بمجرد أن ينظر الى ورقة مكتوبة حتى يأخذ فى قراءة حروفها ، وبعد أن يقرأهـا يتوغل كثيرا ... فيسأل عن الانسان الذي خط هذه الحروف ، وعن السبب الذي دفعه الى كتابتها ... ويستمر تسلسل الأسئلة الى أن يصل الى الرسائل التي تصله هو ، فيذهب يبحث عنها ،

PDF Eraser Free

لكنه حينما لا يجدها يأخذ يتألم ويندم على ما فعل بها ، فيقول :

ــ « آه لو بقيت ، لاستطعت على الأقل أن أقرأ حروفها وأحس منها رائحة الأهل والبلاد ... لو بقيت لاستطعت رؤية خط والدي ، ذلك الخط المعوج الذي لا يريد أن يستقيم ... فمنذ كان والى الآن ، وهو ما زال يرسم بنفس الطريقة وعلى نفس الشكل ... آه كم كنت أحسب ذلك الخط وعرا ، حينما كان يأمرني أحد بكتابته . كنت أتخيل الحروف مثل الأشياء ، ومثل المخلوقات الحية ... هذه ألف مثل العصا وهذا دال مثل العقرب ، وهذا صاد مثل العنكبوت ، وهذا كاف مثل حية مكسورة الطرف وهذا واو مثل الذنب ، وهذا سين مثل المشط ... آه لتلك الحروف ، كم كانت صعبة علي ، وكم كانت عزيزة الي ... لاشك أن والدي يصرف طاقة كبيرة لكي يصل الى طبع تلك الحروف على الورقة ... فهو قد أخذ يفقد بصره منذ مدة طويلة . اني أتخيله الآن ، وقد أعد أمامه الرسالة والمدواة والقلم، انه يجلس على « الزربية » القديمة ، وقد اقترب من الباب ليرى أكثر ، ثم يأخذ القلم فيغمسه بكل صبر فى الحبر ، ثم يخرجه وينفضه قليلا قبل أن يشرع فى الكتابة . وبعد البسملة يشرع فى الكتابة ، فيكتب فى أول الصفحة هذه العبارة التي لا ينساها أبدا : « ولدي العزيز » وعندما ينتهي من ذلك يأخذ فيرفع القلم نحو فمه ، ويروح يتمتم الجمل التيسيكتبها. وعندما يستريح الى العبارة التي يتمتمها ، يطأطيء رأسه ويحني ظهره نحو الورقة الموضوعة فوق ركبته والمستندة على قطعة من الورق المقوى ، فيأخذ بكل صبر يسجل ما وقف عليه من العبارات ... وبعد فترة طويلة من الزمن يرفع رأسه مرتاحا ، راضيا ، فيثني

PDF Eraser Free

الرسالة ويضعها فى ظرفها بكل عناية ليأخذها الى مكتب البريد . وقبل أن يخرج يتجه نحو زوجته ، فيخبرها بصوت كله اعتزاز ، وكلــه حنــين :

ــ اني كتبت رسالة الى البشير ، وقد ذكرتك فيها ، وأنــا ذاهب لأرميها فى مكتب البريد .

فتجيبه الأم بكل فرح :

ــ نعم ما فعلت يا بلقاسم . ولكن أتعتقد حقا أن هذه الرسالة ستصل اليه هكذا ، لمجرد أن تكتب عــلى الغــلاف اســمه وعنوانــــه ؟ ..

فيبتسم بلقاسم ولا يرد على سؤالها ... ثم يخرج . »

وبمجرد أن يصل التفكير الى هذا الحد حتى يشعر بالحزن والكآبة تغمرانه ... فيغمض عينيه من الألم ، لكي لا يرى شيئا أمامه ... ثم يمسك بشعره ويشده بأصابعه المضطربة ، ويجذبه وكأنه يود خلعه ...

وتبقى الصور تتوارد الى ذهنه فلا يقدر على الصمود أمامها ، فيخرج ويلتجىء الى أحياء باريس التي يباع فيها الأكل والخمر والحب ... وهكذا اعتاد على الفسق ، وأصبح يرى فيه راحته وسعادته ... ومرات أخرى يكون البشير أمام المرآة ، يتصفح فى وجهه المنعكس على السطح الصقيل ، فيروح يتمعن فى نفسه جزءا جزءا ، يدرس كل زاوية وكل خط ... ثم فجأة يجد نفسه ينظر الى وجه آخر ، ليس له هو ، لكنه لأحد الأشخاص المقربين اليــــه ...

PDF Eraser Free

تنبعث فى المرآة من صورته هو ، صورة أبيه بلقاسم ، أسمر البشرة ، متقد النظرات ... يفكر . يشبهه فى كل شيء : فى شكل الرأس . فى استقامة الأنف . فى صرامة الملامح ... لكن بعد لحظة يرفع بلقاسم نظره ، ويرنو الى ابنه وكأنه يعاتبه فيقول له :

ـ « لماذا تفعل بنا هذا الشيء ؟ ألسنا عائلتك ؟ انتظرنا رسائلك وأخبارك ، فلم ترحمنا ، وتريحنا من الانتظار ... تخلص لنا بعض الدقائق من وقتك ، وتكتب لنا بعض الجمل تصف لنا فيها أحوالك ، وتبعث معها سلامك ، لنطمئن عليك . ماذا فعلنا لك حتى تقسو علينا ، فتنسانا ... نحن لو كان بمقدورنا ولو كان باستطاعتنا لما تركناك تغيب لحظة عن أبصارنا ... فأنت أملنا فى هذه الحياة ، وأنت روحنا التي نعيش بها ... فى كل يوم أذوق طعم الموت ... أنتظر من الصباح الى المساء لعل خبرا يأتيني منك ، فلا أفوز بأي شيء ، فأرجع الى البيت ذليلا محطما ، أذرف الدموع وأتألم من صميمي ... أنا لا أكاد أصدق أنك تستطيع أن تفعل بنا هذا . فنحن جميعا نعرفك . فأنت نعم الابن ونعم الرجل ... منذ أن ولدت لم تلفظ كلمة لأحد ، ولم تنغص حياة أحد ... تملأ العين فرحا عندما تراك ، ويتشبع القلب بشرا عندما يشعر بوجودك ... لماذا تفعل بنا هذا يا بني ؟

أعود الى البيت فأجد أمك تنتظر قدومي بفارغ الصبر ، فما أكاد أراها حتى أذوب ألما وأشعر بقلبي يعتصر ، وكأنه بين صخرتي الرحى ، فأمر بجانبها صامتا ولا أرفع بصري اليها ، فتتبعني المسكينة ساكتة ترنو الى فمي ، متى ينفتح ، فأبقى أنا صامتا رغما عني فتفهم هي ما كان ، فتنصرف الى أحد أركان

PDF Eraser Free

البيت ثم تنزوي لتذرف الدموع ... وأبقى أنا مكاني ، لا أستطيع أن أمد لها يد العون . فقد أصبح كلامي معها مجرد تخريف . أصبحت لا تصدق كلامي ... وهي محقة في ذلك ، فأنا قد كذبت عليها مرارا ... وصبرتها كثيرا .

والحال كذلك مع ربيعة ، فهي حزينة دوما ، وقليلة الكلام . والله اني أشفق على الفتاة المسكينة . لقد كان الدهر قاسيا عليها ، فأبعد زوجها عنها ، ثم كنت أنت قاسيا معها ، فنسيتها وأهملتها . لكن الفتاة رغم ذلك كله ، مازالت نشيطة ، تدير شؤون المنزل الداخلية مثل أحسن زوجة ... فكأنها تنتظر من لحظة الى أخرى قدومك .. فان أرض الغرف نظيفة ، والأثاث منظم ومنسق ... فلا غبار عليه ولا اهمال فيه ... يا بني اني أتكلم معك فانظر الي وأشفق علينا ، اننا دوما في انتظارك ، ودوما في انتظار أخبارك ... ألا يحزنك أن تتركنا في هذه الحالة ، لا نعرف أين أنت ، في أي بلاد تقطن وفي أي أرض تعيش ؟ هل أنت سليم البدن معافي ، أم أنت مريض مهدد ؟ اننا نعيش بالأمل في رؤيتك ... فاذا كنت لا تستطيع المجيء ، فارسل لنا على الأقل صورة لك ... وفي هذه الصورة حاول أن تبتسم ، وتزيل الحزن عن نفسك ... لأننا لو رأيناك على هذه الحالة ــ المحزنة ــ ، لما استطعنا الراحة .

اننا جميعا مشتاقون الى رؤيتك ، فلا تبخل علينا بصورة منك ، أتسمعني يا بني ؟ أتسمعني يا بني ؟ ... »

وهكذا كان يحدث للبشير أن يتخيل والده يكلمه من خلال المرآة ، فيشقى عندما يراه يحدثه بمثل هذه العبارات الحزينة ،

PDF Eraser Free

فلا يستطيع أن يرد بكلمة ، وانما يطأطىء رأسه ويستمع ... وبالاستماع يشعر أنه يكاد ينفجر حسرة وألما ... فيصبر ثم يصبر لكنه فى الأخير يفقد كل قواه ، فيصرخ ، ثم يرفع يديه ، ويضرب المرآة ويضربها الى أن تتهشم ، وتدمى يداه ... وعند ذلك فقط يعرف أن ضميره هو الذي استيقظ ، وأن ما كان يراه ، انما كان خيالا وهميا ، خلقه ضميره ، فأحياه وكلمه .

فاذا لم يكن الضمير ، فكيف يمكن لصورة والده أن تخلق وتبعث من صورته هو ؟ وتروح تكلمه وتثير عاطفته ؟ . ثم اذا لم يكن ضميره ، فهل يمكن لأخيه العباسي أن يظهر له فى كل حين ، بمجرد أن يرى أحد الأشخاص يحمل اسما يشبه فى اللفظ كلمة « العباسي » ، فيروح هذا التصور يقلقه ويعاتبه ... ؟

ان هذا هو الضمير .

لكن كيف يمكن التخلص من هذا الضمير اللعين ، الذي يعكر صفو حياة الانسان ، فيجعل اللحظات السعيدة لحظات كريهة ، ويحول الأيام الصحوة الى أيام ملبدة الآفاق ؟

اذا كانت المرآة تدعو الى استيقاظ الضمير ، وتوحي له بالانبعاث ، فليتجنب المرآة ... واذا لم يستطع ذلك فليغير من ملامح وجهه ، حتى اذا ما نظر الى نفسه فى المرآة ، لن يكون هناك أي تشابه بينه وبين ملامح والده ، وبذلك لا تنبعث صورة والده منه ... أو صورة أي قريب آخر ...

وهكذا أخذ البشير فى محاولات تغيير ملامحه ... فكون شاربا ضخما ، لا يتناسب مع سنه ، وتركه ينسدل على فمه ،

PDF Eraser Free

فيغطـي شـفته العليـا ... وبـالاضـافـة الى كـل ذلك فقد غير من طريقة مشط شعره ، فلم يجعله كالعادة ينسدل على جبينه ، وانما أخذ يمشطه الى أعلا ويكون به ذؤابة جميلة الشكل ، تتوج هامته ... وقد سأله بعض الأصدقاء عن سبب هذه التحويلات ... فقال لهم بكلمات يقصد بها الاضحاك :

ــ لقد سئمت من وجهي لأنه يشبه بعض الناس ، لا أود رؤيتهم مدى الحياة . فلهذا قمت بهذا التغيير المهذب ... أيعجبكم وجهي الآن ؟ ما الأفضل الأول أو الثاني ؟

فيجيبه أصدقاؤه وهم يبتسمون :

ــ طبعا الآن ... انك تبعث الرعب فى النفوس ..

فيضحك البشير مع زملائه ملء أشداقه ..

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل الخامـــس

تكاثر عدد الزبائن فى الحانة ، وامتلأت جميـــع الطـــاولات بالأشخاص . ازدحم الناس على هذا المكان ، كأن لهم موعدا جماعيا . فامتلأت القاعة بالدخان ، وانبعثت فيها رائحة منفرة من شدة الازدحام ... وفى أحد أركان هذه الحانـــة ، انزوى البشير على نفسه بصحبة زجاجة خمر عتيقة ، لا يبالي بما يدور حوله ... فهو لا يهمه ان كان يجلس بمفرده ، أو ان كان بصحبة أفراد آخرين ... ماذا يهمه ؟ المهم أن تكون فى يده زجاجة خمر يمتع بها نفسه ، وينسى بها ذكرياته الأليمة التي لا تريد الانسلاخ منه والذهاب عنه ... هذه الذكريات التي شقي بها ، فأصبح يعمل كل شيء لكي ينساها .

أخذ البشير يحملق بعيون ذابلة ، فى الزبائن الذين يشاركونه « المأوى » ... فرآهم جميعا يتكلمون أو يبتسمون أو يقهقهون، وكأن السعادة فى أيديهم ، يتمتعون بها كما يريدون . ســـأل البشير نفســـه :

ـ « لماذا هم على هذا الحال ؟ أيسعدون هم وأشقى أنا ؟ ما الفرق بينهم وبيني ؟ ألسنا جميعا آدميين ، تفرحنا نفس الأشياء وتحزننا نفس الأشياء ؟ لماذا أجلس أنا هنا بمفردي مثل المنبوذ ، أحتضن الزجاجة الى صدري كأنها فتاة ، ولا أجد مرافقا يؤنسني

PDF Eraser Free

فى وحـــدتي ؟ أنظر الى جميــع الحاضريــن ، ان لهــم جميعا مرافقين يؤنسونهم ... »

أخذ البشير يجول بنظره المضطرب الى الواقفين والجالسين بقربه ، وراح يتفحصهم باتقان ، من أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى ... فرأى بجانب كل امرأة رجلا ، وبجانب كل رجل امرأة ... فاقترب من احدى الطاولات ، والزجاجة فى يده ، وهو يترنح من شدة السكر ، وراح يحملق فى فتاة تجلس الى جانب شاب فرنسي وسيم ... فلم يهتم به أحد . فقد كـــانت الفتـــاة منصرفة الى رفيقها تتكلم معه وتبتسم له . وعند كل ضحكة من ضحكاتها الرنانة الحلوة الخلابة ، كان شعرها الأشقر المنسدل على ظهرها مثل خيوط الذهب ، يمسح وجهها باغراء ، وينزلق على جبينها الوضاء ، فيزيده بهاء وروعة ... فكان البشير يترنح عندما يرى هذه الصورة ، ويمد يده ليمسك بالفتاة ، لكن فى كل مرة كان بصره يخونه فتنمحي الصورة من أمامه ويسود الظـــلام ... فيـــرجع يده ، ويبقى ينتظر متى يتجلى الضياء . وأعجبت هذه اللعبة البشير ، فسر سرورا كبيرا ... ثم كرر نفس الحركات عدة مرات . لكن فى النهاية ، وقف الشاب الوسيم ، وتقدم من البشير وكلمه بكل أدب :

ــ أنت تزعجنا كثيرا يا سيدي ... لو تسمح لنا قليلا ، وتتركنا نتكلـــم

لم يهتم البشير بالشاب الوسيم الذي وقف يكلمه ... بل فقد تقدم عدة خطوات أخرى الى الأمام ، ومد يده فلمس شعر الفتاة، ثم كرر العمل ، فأخذ الشعر بين يديه ، وراح يلمسه باشتهـــاء

PDF Eraser Free

واعجاب ... وكأنه يمسك بين يديه شيئا نفيسا ، يخلب اللب . لكن الفتاة ، بحركة رشيقة وثائرة ، خلصت شعرها من يديه ، وتحركت مبتعدة عن البشير ، وهي تلفظ هذه العبارات :

ـ يا لكم من رجل وقيح ... هل لا تستحون من فعلتكم هذه؟ كيف لا تتندون حياء من هذا العمل الخسيس الذي تقومون به ، وأنتم ترتدون هذه الثياب الرسمية ؟ .

لم يفقه البشير شيئا من ما سمع ... بل فقد ابتسم ببلاهة ، ثم رفع الزجاجة عاليا ، وهشمها على طرف الطاولة ... فتناثرت قطع الزجاج فى كل جهة ... وتطايرت قطرات الخمر على ثياب الناس المجاورين ... فهب هؤلاء واقفين مبتعدين متصايحين دون أن يجرأ أحد منهم على مخاطبة البشير ونهيه ... بل فقد انتظروا ماذا سيفعل بقطعة الزجاج التي بقيت فى يده ... أخذ البشير يحملق فى ما يدور حوله دون أن يفهم شيئا . لكن الفوضى التي عمت الحانة أحزنته ... فترك عنق الزجاجة يسقط من يده ، ثم التفت الى صاحب الحانة ودفع له ثمن ما شرب ، ثم خرج ... كأنه مل الحانة ومل زبائنها ... لكنه ما كاد يبتعد قليلا ، حتى شعر بموجة تجتاحه ، وبريح قارسة تلسعه لسعاً شديدا . فرفع ياقة قميصه وتدثر جيدا . وما هي الا لحظة حتى شعر بنشوة تملأه ، وتسكن كيانه . فرفع رأسه الى السماء ، ثم التفت الى جميع الجهات ... ولكنه عندما لم يعرف أي شارع يأخذ ، قرر أن يسلك أقرب طريق ... فاتجه يمينا ، وراح يسير وحيدا تحت المصابيح المضاءة التي أضيئت حينا ، لأن الليل بدأ يرخي سدوله السوداء على باريس .

PDF Eraser Free

وأخذ البشير يسير وحيدا فى الشوارع ، دون أن يفكر فى العودة الى المعسكر فقد وجد راحة فى الانفراد ، ومتعة فى المشي ... لكن الطقس لم يدم على طبيعته الأولى ... فبعد مدة قصيرة تلبدت السماء بالغيوم ، واختفت منها النجوم ، وهبت ريح باردة ... والذنب ليس ذنب أحد ... فان الفصل خريف ، ولابد أن يتبدل الجو ، من صحو الى ممطر ، ومن مشرق الى مظلم .

لكن رغم كل هذا فان البشير ما زال على طبيعته الأولى ، فهو حزين ويتألم ... ولا يجد أحدا يبث له شكواه ، ويتبادل معه الكلام . فقد نفر منه أصحابه ، وكرهوا صحبته لهم ، لأنه بات يغضب دون سبب ، ويخلق لهم المشاكل دون داع لذلك ، حتى أنه فى احدى المرات تجمع أصدقاؤه قبل أن يخرجوا من المعسكر ، وتناقشوا حوله . هل يأتي معهم أم لا ؟ فقال أحدهم :

ـ أعتقد يا جماعة أنه من الأفضل لنا أن نخرج ، ولا ننتظر جاك . فأنتم تعرفون أنه يسبب لنا المضايقات ، ويخلق لنا المتاعب .

ـ فقال آخر :

ـ نعم لنخرج ونتركه .

ـ فقال ثالث :

ـ أنا معكما . بالله لقد سئمت من صحبته .

فأتم الرابع :

ـ ما لنا ول : جاك ؟ لماذا نحتم على أنفسنا وجوده ؟ ليذهب هو حيث يشاء ، ولنذهب نحن حيث نشاء ... ألم نمل منه ؟

PDF Eraser Free

فوافق واحـــد :

ــ نعم هذه هي الحقيقة ، هيا بنا نذهب ، هيا بنا نذهب ..

أخذ البشير يعي قليلا ما يدور حوله ، بعد أن تخفف عليــه أثر الخمر ، لكنه راح يسير دون كلل ساعات متوالية ، الى أن قرب انتصاف الليل ... ورغم هطول المطر بغزارة ، فقد قرر أن لا يوقف تطوافه ، ويستمر فى المشي الى أن يكل تماما ، ولن يعود بمقدوره فعل خطوة ... واستمر على هذا الحال . كل من يراه يقـــول :

ــ « ان هذا الشاب لمجنون . ماذا حصل له حتى يسير تحت هذا السبيل العارم من المطر ؟ ان ثيابه تقطر ماء ، يا للمسكين ... سيصاب بمرض خطير اذا لم يذهب ويخلع ثيابه .. ويتدفأ . »

ولكن ماذا يهم البشير من المطر ؟ وماذا يعنيه من ثيابه اذا كانت مبتلة ؟ انه يفكر فى أشياء أخرى أكبر من هذه ... انه يرى الآمال التي كونها لنفسه تتحطم على الجدران ، وتذهب سدى، وتتلاشى كأنها أحلام اليقظة ... لم تبن على أساس ، ولم يعد لها ما يلزم لتحقيقها ... رغم كل المتاعب وكل المحاولات فان النتيجة مازالت سلبية ... ها هو يعيش وحيدا ، منبــوذا ، لا يــرغبِ أحد فيه ولا يحاول أحد كسب صداقته .

انه لا يملك تلك الأشياء الخفية التي يمتلكها الناس الآخرون، والتي يستطيعون بمقتضاها أن يعقدوا العلاقات المتينــة مــع الأطراف الأخرى ، فلا يعيشون فى الوحدة أو يفكرون فى اليأس ، فان الطريق أمامهم مزدان بالورود ، تنشرح له قلوبهم وتسعد

PDF Eraser Free

به حياتهم ... انظر الى ذلك الشاب الفرنسي الوسيم مثلا ، انه يتمتع بكل مباهج الحياة يرتدي الثياب الجميلة الغالية ، ويتمتع بصحبة فتاة حسناء ، يقطر الشذى من كل جزء من جسمها ، ويلوح الحسن عند كل خط أو ثنية من بدنها . مجرد ابتسامة منها ، تنعش النفس ، وتبعث الروح ... فلماذا توثقت العلاقة بين ذلك الفتى وهذه الفتاة ، ولم تتوثق مع غيره ؟ لأي سبب ؟ لماذا مثلا ، لا تعقد تلك المودة بين البشير وتلك الفتاة ، بدلا من الفتى الوسيم ؟ ما العيب فى ذلك ؟ ما الفرق بين الفتى والبشير ؟ حقيقة ، ان الشاب الفرنسي وسيم جدا ، ومعتدل القامة فى كيفية عجيبة ، ولكن ذلك لا يرشحه لأن ينال مباهج الدنيا بسهولة . عكس الآخرين ، الذين لا يلحقون حتى بالتفكير فى هذه المتع والمباهج ... أم أن السبب يرجع الى أشياء أخرى غير هذه ... يرجع مثلا الى الأصل والعرق والدم ثم الى التكوين والطبقة والسلوك .. أو غير ذلك مثل الوراثة والحسب والنسب.؟ فماذا يستطيع البشير أن يقدم من هذه الصفات ؟ بأي ميزة يستطيع أن يميز نفسه عن غيره ، ويفوز بذلك على منافسيه ؟ لا شيء .

انه مثل الكلب الطريد ، الذي لا يحمد أحد مجيئه .. فهو حيثما نزل ينزل الداء ، وأينما حل يحل الوباء ... انه مثل ذلك السجين الذي يطارده القانون ، فلم يمد له أحد يده ليصادقه . بل ان كل الناس تفر من وجهه وتتركه يمر ، لكي لا يحدث الفوضى والاضطراب بين صفوفهم ... بل انه أدهى من ذلك ، لانه لا يشاركهم فى أي صفة بدنية كانت ، أو غير بدنية ... فهو

PDF Eraser Free

من أصل عربي غريب على هذه البلاد . انه ينتمي الى شعب متأخر ، ذليل ، منذ أن كان وهو مثال للشعب المغلوب والمقهور ، الذي لا صيت له ولا كلمة ... وان جميع التحويرات والتبديلات التي يحدثها البشير على نفسه شكلا وروحا ، لن تعود بأي فائدة عليه ، بل فهي تعمل على ابراز مميزاته الخاصة ، أكثر مما سبق . فماذا يعني ذلك الشارب الكبير الذي ينزل على شفتيه ؟ وما يعني ذلك الشعر الغزير الذي تركه ينمو على رأسه ، فيكون منه ذؤابة تترنح على جبهته ؟ وماذا يعني ذلك الاسم الثاني الذي أطلقه على نفسه ، وأراد به أن يخفي شخصه عن العيان ... فليكن مرتاحا انهم يستطيعون كشفه بأية وسيلة ، فان بريق العيون لا يخفى على أحد وان التصرفات لمعروفة ... فمن المستحيل أنْ يتصرف شاب فرنسي متأدب ، يرتدي الثياب العسكرية بمثل تلك التصرفات التي قام بها البشير فيسكر ثم يحاول مضايقة الناس ، ويعتدي على سلامتهم .... وبالاضافة الى كل ذلك يهشم الزجاجة أمام أنظار الملأ ، ويخرج يطرق فى الساحات والشوارع الى منتصف الليل تحت سيل المطر المنهمر ، دون وعي أو احكام عقل .

رأى البشير أنه فقد كل قوة وكل عزيمة يملكها . فقد بقي وحيدا منشردا ، لم يربح جانب الجزائريين المجندين معه فى المعسكر ، ولم يربح جانب الفرنسيين الذين يعيش فى بلادهم .. فأصبحت فرنسا تتراءى له مثل المرأة البغي ، التي تغري كل الرجال وتنصرف عن كل الرجال فى آن واحد . فليس لها أصالة . تعيش للحظة ، وتموت فى اللحظة نفسها

PDF Eraser Free

وهكذا بعد ساعات طويلة ، وجد البشير نفسه منهكا متعبا ، يسبح فى الماء ، ويرتعد من البرودة القارسة التي تسللت الى عظامه وسكنت نخاعه ... التفت البشير الى جميع الجهات ، فلم يجد شيئا ، غير العمارات والبيوت والمحلات التجارية المغلقة الأبواب ... لم يستطع أن يلمح انسانا ، فقد كانت جميع الشوارع خالية ، لا يطرقها أحد .. تسبح فى الظلام وترقد بصمت رهيب ومخيف ، تحت سيول المطر الذي لم يكف لحظة عن النزول ... فكأنه يريد اغراق المدينة ، أو يريد تنظيفها واخلاءها من كل الأدران التي علقت بها أثناء النهار . ارتجف البشير من البرودة والوحدة ، ولم يعرف ماذا يفعل ... لكنه بعد تردد كثير قرر أن يأخذ أحد الشوارع ، ليحاول البحث عن فندق ينزل فيه . وما كاد يخطو بعض الخطوات فى اتجاه الشارع الذي عينه حتى وصل الى سمعه صوت غريب ، لم يكن يتصوره ، هو طقطقات حذاء ، يخطو بسرعة . فقال يسأل نفسه وهو لا يكاد يصدق سمعه :

ــ « ماذا أسمع ؟ ان هذه خطوات سيدة تلبس حذاء ذا كعب صلب ... ولكن ماذا تفعل هذه السيدة فى مثل هذا الوقت وفى مثل هذا الطقس ؟ لأختفي عند تلك الزاوية من الجدار ، وأنتظر قدومها ، انها حسب ما أسمع من خطواتها ، تتجه نحوي . انه أمر غريب . ألا تخشى من المخمورين واللصوص والمجرمين ؟ ان التجول فى مثل هذه الساعة أمر غير محمود العواقب .. لا شك أن الأمر الذي دفع بهذه المرأة الى الخروج ، يرجع الى سبب هام . آه ، انها أخذت تقترب ، لأختفي حتى لا تراني . »

PDF Eraser Free

بقى البشير ينتظر وصول المرأة .. وما هي الا مدة قصيرة من الزمن حتى مرت بجانبه ــ دون أن تراه ــ امرأة فرنسية ، تحمل مظلة فى يدها ، تحمي بها نفسها من أذى المطر المنهمر ، وترتدي وشاحا صوفيا على رأسها وعلى أذنيها ... تسير بسرعة وتلهث ، فكأنها مشت طويلا ... فأخذ صدرها يرتفع وينخفض بشدة تحت المعطف النيلوني الذي شد عند وسطها بحزام عريض .

فما كاد البشير يراها حتى انشرح قلبه ، وشعر بسعادة تنبعث فى نفسه فقد نالت المرأة اعجابه ، رغم أنه رآها مدة ثانية فقط ... فقال يحدث نفسه :

ــ « يا للمرأة الشجاعة التي تخترق الشوارع بمفردها دون حارس أو حام ، يا لقامتها المديدة وجمالها الساحر الفتان ... انها تمشي مرفوعة الرأس ، متصلبة القامة ، معتزة بنفسها ، تتحدى الزمن ، وتدعو الى الاعجاب .. هذه هيالمرأة التي يمكن للمرء أن يفتخر بها ويعتز بقربها ... انها نعم المرأة فى جميع النواحي : فى الشجاعة ومقارعة الصعاب ، وفى الجمال ... أما تلك الفتاة الغرة ، ذات الشعر الذهبي ، التي رأيتها فى الحانة مع الشاب الوسيم ، فانها ما زالت طفلة تحن الى حضن أمها ، ولم تجرب عوادي الزمن ... هذه هي المرأة التي كنت أبحث عنها منذ زمن بعيد ، هذه هي المرأة التي يلزم علي أن أتقرب منها وأنال رضاها . هذه هي الأنثى التي تجدر بي ... فلأتبعها وأحاول التقرب منها ، ولا أتركها ، الى أن أعرف كل شيء عنها ... فلربما كانت تتيجة تيهي ، هذا الذي وقعت فيه ، هي مصاحبة

PDF Eraser Free

هذه السيدة ، وتكوين صداقة متينة معها .. فلأقتفي أثرها ولا أتركها تغيب لحظة عن عيني ... »

خرج البشير من الركن الذي اختفى فيه عند مرور المرأة بقربه، وراح يتبع السيدة خطوة خطوة دون محاولة اخفاء نفسه ... بل فقد أسرع كثيرا حتى يقترب منها ويجعلها تشعر بوجوده . وعند كل خطوة يخطوها نحو السيدة ، يشعر بسعادة كبيرة أكثر من السابق . فقد سمر نظره عند ساقيها المستديرتين العاريتين اللامعتين عند أضواء الشوارع ، وراح يتمعن فيهما طويلا ...

اعتقد البشير أن السيدة سمعت وقع خطواته وراءها ، ولكنها لا تريد الالتفات الى الوراء لكي لا تجعله يفهم أنها أحست به . فهي ان فعلت ذلك ، ستظهر الخوف على نفسها ، وتدعوه الى التقدم أكثر من السابق .. لهذا فانها تحبذ المضي قدما ، دون أي التفات .

بقي البشير يتبع السيدة دون كلل . ولم يعد يشعر بالتعب الذي كان أنهكه منذ مدة ، كما أنه لم يهتم بالمطر الذي أخذ ينزل بغزارة ، ويتسلل الى جلده ، فيغرقه بطوفانه .

مرت دقيقة دون أن تحاول المرأة الالتفات الى البشير الذي أخذ يقترب منها ويكاد يلمس ذراعها . فهي تسير الى الأمام كأنها جندي صمم على التقدم رغم كل الصعوبات ... يتصاعد بخار الهواء أحيانا من فمها المنفتح قليلا من شدة التعب ، ويتصاعد مرات أخرى من أنفها المستقيم الذي قد على وجهها في

PDF Eraser Free

شكل مغري جميل . وفي كل مرة كان البشير يسأل نفسه هذه الأسئلـــة :

ـ الى أين تتجه هذه السيدة ؟ فمتى تصل الى سكناها ؟ . »

لكن رغم التعب الذي شعر به فقد قرر أن يتبعها الى هدفها ، ويصل الى نقطة الانتهاء .

ظهر أن السيدة الفرنسية أخذت تشعر بوجود البشير المشبوه ، وتتضايق مع صحبته الصامتة المستمرة لها ... هذه المصاحبـــة الغريبة والعجيبة ، التي تحدث في منتصف الليل ، وتحت سيول المطـــر ...

صبرت السيدة طويلا ، لكنهـــا فجأة ، وعند أحد الأركان ، التفتت بسرعة الى البشير ورمقته بنظرة فاحصة مؤنبة ، وقالت له :

ـ أيها السيد المحترم ، هل تتفضلوا فتخبروني لماذا تلاحقونني منذ زمن طويل ؟ ألا تستحون من فعلكم الخسيس هذا ؟ فتتركوني لشأني ، وتذهبون لعملكم ، لقد سئمت ملاحقتكم المســـتمرة لي ، واعتقدت أنكم ستفهمون ، وترجعون عن غيكم لكنكم الى الآن ما زلتم لم تفهموا ... أطلب مـــن سيادتكم الكـــريمة أن تتفضلوا ، فتتركوا لي السبيـــل مفتوحـــا ، دون مضايقـــات وملاحقات ...

لم يأبه البشير باحتجاجات السيدة الغاضبة ، التي أخـــذت تهدده برأس المظلة الحاد ... لكنه أخذ ينظر اليها دون مبالاة ، وكأنه لم يسمع شيئا من كلامها ... فقد وقف في مكانه وتسمر ،

PDF Eraser Free

بمجرد أن رأى السيدة تقف أمامه وتواجهه ، ولم يهتم بمنظره المحزن الذي كان عليه فى تلك اللحظة : عيون ذابلة مرتخية وكيان منهك متهدم ، يكاد يفارق الحياة . مجرد هيكل متحرك .

عندما انتظرت السيدة الجواب ، عرفت بيقين ان البشير لن يستطيع لفظ كلمة من شدة التعب والعياء ... فهو مفتوح الفم يلهث مثل الكلب الذي أخذ الناس يطاردونه من كل مكان دون شفقة أو رحمة ... لكن رغم كل ذلك فانها لم تثق به ، وحدثتها نفسها بأن البشير يختفي وراء هذا المنظر المحزن المؤلم ليحاول التأثير فيها ، واستعطافها ، ليوقعها فى فخاخه . فخاطبته مرة أخرى بلهجة أكثر حزما :

ـ سيدي من فضلكم ، لا تضيعوا لي وقتي واتركوني أرجع الى بيتي . اننا فى منتصف الليل ... واذا استمريتم تلاحقونني، فاني سأتوجه فورا الى خفير الشرطة وأرفع شكاية على تصرفاتكم معي ... أفهمتم الآن يا سيدي ؟

مرة أخرى لم يأبه البشير بتهديدات المرأة وكأنه لم يسمعها ، لكنه بمحاولة يائسة حاول أن يقترب منها ويلمسها . فابتعدت السيدة خطوة الى الوراء ، وتعجبت من هذا الفتى المتهدم ، الذي لا يتكلم . وعندما لم يستطع البشير مسكها وملامستها تعثر على الرصيف وسقط على وجهه ، ولم يقدر بعد ذلك على رفع جزء من جسمه .

تسمرت السيدة الفرنسية فى مكانها واحتارت ماذا تفعل : أتعين الشاب المنهوك ، أم تتابع سبيلها وتعود الى بيتها ؟ أخذت

PDF Eraser Free

تفكر وتقلب الرأيين المتضادين على جميع الوجوه ... تنظر مرة الى الفتى المطروح عند قدميها ــ مثل عبد يسجد عند قدمي سيده ــ وتنظر مرة أخرى الى الطريق الممتد أمامها ، الذي يوصلها الى بيتها ... ولم تعرف ماذا تقرر . رأت أنه من اللاانساني أن تترك الفتى وحده وتعود الى منزلها . ورأت من جهة أخرى أنها ستسبب لنفسها المشاكل ، ان هي أعانته . ولكن كيف يمكن أن تعنه ؟ انه فاقد الوعي ، يكاد يفارق الحياة . أتوقظه من غفلته وتصاحبه الى دارها ، أم أتوقظه وتنفحه بعض المال وتتركه ؟ ولكن كيف ذلك ؟ من يثبت أن الفتى سيستيقظ ، ويتقبل ذلك المال بالشكر ، والثناء ؟ ثم ان الفتى يرتدي ثيابا عسكرية ، وهذا يعقد المسألة ويجعلها خطيرة ... فماذا يفعل هذا الشاب ، ولماذا يبقى الى هذا الوقت فى مثل هذا الجو ؟ ومن يؤكد حسن سيرته ؟ ..

تعقد الأمر على السيدة واحتارت ماذا تفعل . فكرت فى الأول أن تتابع سيرها وتجعل كل شيء ينتهي عند هذه البقعة ، ولا تجشم نفسها فى مشاكل هي بعيدة عنها . ولكن منظر الفتى الراقد على الأرض بجفاء وقسوة ، بعث فى نفسها الشفقة والعطف . فقالت تحدث نفسها :

ــ « لاشك أن هذا الشاب مريض ، واذا لم يكن مريضا ، فسيكون عما قريب ... لكن ماذا أستطيع أنا أن أفعل به ، وهو فى هذه الحالة المؤسفة ؟ انه لن يقدر على فعل خطوة ... أأحمله على ظهري وآخذه معي ؟ ! . »

حقيقة لقد كان البشير فى تلك اللحظة ، فى وضع يبعث على

PDF Eraser Free

الشفقة والرحمة ، فلم تقدر السيدة على الصمود ، وأجبرت نفسها على الانحناء على البشير . فرفعته بكل ما تملك من قوة ، الى أن استقام على قدميه ، واحتضنته بذراعها الأيمن الى نفسها، ووضعت ذراعه حول عنقها ، وأخذت تسير به بخطوات بطيئة ثقيلة ، نحو بيتها ، وكأنها تحتضن عشيقا مخمورا الى صدرها ... فاستحت من هذا الوضع الغريب وتضرج وجهها بالحمرة ، لكنها تشجعت وتقدمت فى مسيرها . فلماذا يكون الوضع محرجا؟ ألا تساعد شابا مسكينا ، لتنقذه من المطر وتنجوه من البرودة وخطوب الليل ... سيفعل أي انسان فى الأرض مثل هذه الأعمال ولو كانت أنظار جميع الناس تراقبه ... وما العيب فى أن يكون الانسان الذي يقدم المساعدة ، امرأة ؟ ألا تمتاز بالعاطفة ، وتملك قلبا رؤوفا يحن على كل مظلوم ، ويشفق على كل مخطوب ؟

ثقل الحمل على السيدة الفرنسية ، لكنها صممت على أن تصل به .. ولو لزم ذلك قضاء ساعات من الشقاء والمصارعة فقد مال قلبها الى الفتى الذي تحتضنه الى نفسها ، وشعرت بحرارة جسمه الذي أخذت الحمى تستعر فيه ، تصل اليها ، وتبعث فيها الدفء والنشوة .. فأخذت تنظر اليه من حين الى آخر ، وتتفرس فى وجهه وكأنها تريد دراسته دراسة لن تستطيع بعدها أن تنسى شيئا منه . وأصبحت كل خطوة تخطوها الى الأمام تملؤها سعادة وهناء ... فهي قد قامت بعمل جليل يحسدها عليه الناس ، فقد اصطادت شابا ، وعادت به الى بيتها . شاب فى ريعان الشباب وذروة القوة ، رغم الحالة التي هو عليها ... لكن ذلك

PDF Eraser Free

الضعف الذي يظهر عليه سيذهب عمـا قريب بسبب العـلاج والعناية ، وتعود مكانه الصحة والعافية ، والبهجة والذكاء .

بعد مجهود استغرق وقتا طويـلا ، وتطلب ارادة جبـارة ، وصلت السيدة بحملها الغالي الى باب احـدى العمـارات ... فتوقفت لحظة ، ثم دفعت الباب المكون من دفتين ... وجرت وراءها الشاب المغشى عليه ، ثم أغلقت الباب وتنفست الصعداء. الآن انتهى الشطر الأول من المهمة ، لكن الشطر الثاني ، مازال ... وهذا يتطلب مجهودا أعظم ، ومصارعة أعتى .. حيث أنه يتمثل فى اعتلاء الدرجات والوصول الى الطابق الثاني

وقفت السيدة لتأخذ شيئا من الهواء فى صدرها ، ثم بكل شجاعة وتحمل ، وصبر ، ربما لا تستطيع أي أم أن تتصف بهم ، اسندت البشير الى نفسها ، وأخذت تعتلي به الدرجات ، درجة ، درجة ، دون أن يصدر منها أي أنين وأي تألم . وكانت تحدث نفسها فى تلك اللحظات الصعبة ، وهي تعض على شفتها السفلى بأسنانهـا :

ــ « يجب علي أن أصعد به الى البيت دون أن أحدث أي صوت يمكن أن يوقظ الجيران .... ويفطنهم الى ما أنا فاعلة . لقد قررت أن أعمل هذا الشيء فلأتممه اذا . سيكـون مـن اللاانساني ومن اللاأخلاقي أن أترك فتى فى مثل روعة هـذا الشاب ، يموت فى الطريق . انه فى أشد الحاجة الـى الاعانـة والعطف والدفء ... وبما أن الله قد جعلني فى طريقه ، فلماذا لا أشفق عليه وأحاول انقاذه ... لو كنت أعلم من أول لحظة رأيته

PDF Eraser Free

فيها أنه فى مثل هذه الحالة لما أغلظت معه القول ، ولما جعلته يجري ورائي طويلا ... لو كنت أعرف ، لمددت له يد الاعانة بكل سرور ودون أن أحاول معرفته ، ولتركته يقول لي ما يشاء ... لكن كيف كان يمكن لي أن أعرف كل هذه الأشياء عنه ، والمجرمون واللصوص يجوبون الشوارع ليلا نهارا ؟ . »

وبعد مجهود عظيم ، بذلته السيدة ، بكل بسالة ، استطاعت أن تصل الى الطابق الثاني ، حيث سكناها ... فتنهدت من العياء، وحمدت الله على السلامة . فأخرجت المفتاح من أحد جيوبها ، وأدارته فى فتحة الباب ، ثم تقدمت ودخلت . أضاءت الأنوار ، ثم أجلست البشير الفاقد الادراك ، على أريكة قريبة ، وغابت لحظة فى احدى الغرف ، ثم عادت تحمل بين يديها منامة .... فجلست بقرب البشير ، وراحت تنزع له ثيابه المبتلة التي لصقت بجسمه ... فأبعدتها ، ثم ألبسته المنامة وما كادت تنتهي من ذلك حتى قالت تحدث نفسها :

ــ « لقد أرحته من بذلته العسكرية المبتلة ، لأنه لو ينام فيها فلن أضمن له العافية ... لكن رغم كل ذلك ، فانه متين البنيان لا أخاف عليه من البرد ... يا له من شاب جميل ، يسعد النفس ... انه حسن الصورة فى هذه المنامة ... وان حظه لسعيد ، اذ عثرت له على هذه المنامة ... »

بعد أن اطمأنت السيدة على البشير ، احتضنته مثل طفل صغير عزيز على قلبها ، وأدخلته الى غرفة جانبية ، مربعة الشكل ، تشمل على نافذة ، وتحتوي على سرير ذي مكان واحد ...

PDF Eraser Free

فأعدت له الفراش بكل عناية ، وأدخلته تحت الغطاء ، ثم دثرته جيدا ، وجلست على حافة السرير تنظر اليه بعيون ذابلة متعبة وسعيدة . لقد رضيت على العمل الذي قامت به ... ولن يرتاح لها بال ، قبل أن تتم مهمتها على أحسن ما يكون ... فلن يخرج الفتى من هذه الدار قبل أنترجع له قوته ويعود الى طبيعته الأولى ... ستقدم له كل ما يود ، ولن تبخل عليه بشيء ... فهي لا تترك عملا الا بعد أن تتمه على أحسن صورة ممكنة ، وترضى عليه أحسن الرضاء . ولكن كيف استطاعت أن تدخل هـذا الفتى الشاب الى بيتها دون خشية من أحد ؟ أليست سيدة ؟ أيـن زوجها ؟ أتسكن بمفردها فى هذا البيت ؟ أتعيش وحدها ؟

قامت السيدة من مكانها بجانب السرير ، وهي تقول لنفسها :

ــ الآن وقد أرحت الشاب ، ووضعته فى السرير ، يجب علي أن أذهب وألقي نظرة على ولدي « بيير » ، لقد تركته نائما عندما خرجت وقمت باحدى الزيارات لاحدى الزميلات ... لقد أخبرته أني ذاهبة ، وطلبت منه أن يبقى عاقلا ، ولا يقيم الفوضى فى البيت ... لكن الطفل المسكين غلبه النعاس فى الساعات الأولى ، ونام دون أن يقوم بأي ضوضاء . »

انقضت تلك الليلة الممطرة ، وفى صباح اليوم التالي ، استيقظ البشير من نومه فى حوالي الساعة العاشرة صباحا ... فما كاد يفتح عينيه ، حتى وجد نفسه فى مكان غريب عنه ، لا يعرف شيئا مما يحيط حوله ... تعجب من وضعه فى هذه الغرفة فراح يسأل نفسه :

PDF Eraser Free

ـ « الله ... ماذا أفعل فى هذا البيت ؟ كيف جيئته ؟ من أتى بي الى هنا وأرقدني فى هذا السرير ؟ »

ولكنه حينما لم يجد أجوبة لأسئلته المحيرة ، نهض من فراشه بسرعة ... واقترب من النافذة ، ومسك بمقبضها يريد فتحها ... لكنه ما كاد يفعل ذلك حتى سمع صوتا من ورائه يحذره :

ـ حذارى أن تفعل ذلك ... انك ما زلت غير مشفي ... وان أية نسمة ، لكفيلة بأن تبعثك الى الفراش لمدة غير قصيرة .

التفت البشير الى الجهة التي جاء منها الصوت ، وتعجب عندما رأى امرأة تناهز الثلاثين من عمرها ، تقف عند عتبة الباب ، تنظر اليه بحنان ، بعيون زرقاء مزدانة برموش طويلة ، وترتدي فستانا أزرق اللون شفافا ، يكشف شيئا من مفاتنها فلم يستطع لفظ كلمة ...

تقدمت السيدة الفرنسية ، وبكل سرور وبهجة قدمت نفسها :

ـ صباح الخير يا سيدي ... هل لا تعرفني ؟ أنا مدام‌فرانسواز انك الآن فى بيتي ... وأنا سعيدة جدا بوجودك فى ضيافتي ارجع ، ارجع من فضلك الى سريرك ولا تحاول فتح هذه النافذة ... انها فى مواجهة الريح ، ولو فتحتها قليلا ، فان هذه الغرفة ستصبح مثل الثلاجة ...

قالت السيدة هذه العبارات ، ثم بكل جرأة تقدمت ، وأخذت البشير من يده وأعادته الى فراشه ... فانقاد لها هو مثل طفل رضيـــع ...

PDF Eraser Free

لقد أثرت كلمة « فرانسواز » فى البشير ، ومخضت له فكره ، فأعادته الى الذكريات الجميلة الى نفسه ... وجعلته يعيش لحظات سعيدة فيها .. لقد كان يحب منذ كان صغيرا ، اسم «فرانسواز»، ويرجع السبب فى ذلك ، الى تلك الحادثة القديمة التي حدثت له عندما عقره كلب ... فجاء صاحب هذا الكلب وأخذه الى بيته ليداويه ... لكنه عندما دخل بيت ذلك السيد ، عرف مدام افرانسواز ... فعشق جمالها ، وهام بها حبا ... وأصبح اسمها يتردد فى كل حين على لسانه ، ويرفرف مثل العصفور الجميل على قلبـه ...

أخذ البشير يعقد المقارنات بين السيدتين التي تعيش فى الذكرى ، والتي تجلس بقربه على حافة السرير ، وتلاطفه ... كانت الأولى بالنسبة له مثل الملاك ، مستورة ومحفوظة مثل الكنز ... جميلة ورائعة مثل الآلهات ... حنونة ومتواضعة مثل الأنبياء ... لا يستطيع الانسان وصفها بعبارات محدودة فهي أروع من كل العبارات تبعث الراحة فى النفس ، وتخلق فى القلب ــ ولو كان القلب ، قلب صبي ــ الحب للحياة ... أما الثانية ، فهي بالنسبة له ، مثل المرأة اللعوب ، التي ينكشف سرها لكل عين ، ويميل الى نيل ودها كل بغيض ... لا حياء فيها ولا ستور ... تخلب القلب من أول نظرة ... وتسقط من القلب والفكر عند أول نظرة ...

كانت نتيجة المقارنة أن حن البشير الى الذكرى ، وكره الحاضر ... لكنه رغم كل ذلك لم يصمت طويلا ، فقد سأل السيدة :

PDF Eraser Free

ـ ماذا أفعل هنا ؟

ـ فأجابته فرانسواز ، بين الابتسام والجدية :

ـ انك فى بيتي ... لقد وجدتك مخمورا فى أحد الشوارع ... وجئت بك الى هنا بعد أن كنت قد فقدت وعيك ، وبقيت ساعات تحت المطر دون القيام بأدنى حركة فأشفقت عليك وجئت بك هنا لتبقى بعض الوقت الى أن تنال صحتك ، وتعود الى حالتك المعهودة .

تذكر البشير ما حدث له ، عندما سكر ... لكنه لم يتأكد من الزمن الذي وقع فيه ذلك ، فسأل :

ـ ومن متى وأنا هنا يا سيدتي ؟ أعتقد أنه منذ مدة قصيرة ..
فطمأنته السيدة ، وهي تبتسم :

ـ منذ الليلة الماضية فقط يا سيدي ... أو بالأصح منذ عشر ساعات ...

ثم أعقبت :

ـ ولكنك لم تخبرني الى الآن ، عن اسمك يا سيدي ... فهلا تفضلت ، وعرفتني عليه حتى أستطيع أن أناديك به ، وأتحاشى استعمال لفظة يا سيدي ، دوما ...

فكر البشير قليلا ، وتعجب من هذا السؤال ... كيف أتأخذه الى بيتها دون أن تعرف اسمه ؟ ! . ولكن ، لا شك انها اطلعت على الاسم من الأوراق الموجودة فى جيوبه ... فهي قد خلعت له ثيابه ، ووضعتها بقرب الموقد ، ولا يمكن الاعتقاد فى آنها

PDF Eraser Free

فعلت كل ذلك ، دون أن تحاول ، ولو مرة واحدة ، الاطلاع على أوراقه ... فأعاد البشير السؤال على فرانسواز :

ـ كيف ألم تعرفي اسمي من أوراقي الخاصة ؟ !

فقالت فرانسواز بلهجة بريئة :

ـ لا ... لم أعرف اسمك ... ليس لأني لم أطلع على ما ف جيوبك ... ولكن لأني وجدت جيوبك خالية ... لا شيء فيها .

تذكر البشير كل شيء ، فقد عمل منذ مدة طويلة ، على عدم أخذ أوراق رسمية معه ... وذلك لكي يتجنب مثل هذه المغامرات التي تحدث له الآن ... ففي أوراقه الرسمية ، ما زال يحمل اسمه القديم ... أي البشير ... وهو لا يود أن يعرف أي مخلوق ، على هذه الارض ، هذه الحقيقة ... فهو لم يعد يدعى بهذا الاسم ، وانما أصبح يدعى جاك ... نعم ، جاك ... رغم أن هذا غير مسجل فى تلك الأوراق الرسمية .

تنهد البشير ، عندما تذكر هذا الشيء ، فرد حينئذ على سؤال فرانسواز :

ـ أنا أدعى جاك يا مدام ... وأنا جد مسرور بمعرفتك ... واسمحي لي ان كنت غليظا معك ... فأنا مازلت تحت أثر الصدمة التي عانيتها البارحة ... فلا تأخذيني على ما أقوله ، أو ما أفعله ... فأنا فى الحقيقة ، لا أستطيع أن أرد لك جميلك ، مدى الحياة ... فقد قمت معي بما تعجز الأمهات عن القيام به ..

PDF Eraser Free

تشجعت فرانسواز حينما رأت البشير ينطلق من اساره ، فيروح يتكلم ويعبر عن شعوره .... فاقتربت قليلا ، وقالت :

ـ لا تمدح عملي كثيرا يا جاك ... لأنك لو استمريت تكرر على سمعي مثل هذه الألفاظ الجوفاء ، فاني سأغضب ولن أعود أحبك ... وأتركك وحدك ، ولا أقدم لك يد المساعدة . فأنا حينما أفعل شيئا لا أحب الشكر كثيرا ... أفهمت يا عزيزي جاك ؟ هذا هو طبعي .

فسايرها البشير ، وقال :

ـ حسنا يا سيدتي ، سأصمت ولن أعيد على سمعك مثل هذه الترهات التي لا تحبذينها وان كنت لا أنسى جميلك ... سأبقى أتذكر دوما كرمك

امتلأت فرانسواز سرورا وسعادة حينما وجدت البشير فى مثل هذا الحبور وهذه الجسارة فانفتحت أبواب المستقبل أمام بصرها ، وراحت تنظر الى الأيام السعيدة التي تنتظرها ... فرأتها منيرة ، مشرقة ، ضاحكة باسمة ... فقالت تحدث نفسها :

ـ « يا للفتى الجميل ... يجب علي ، أن لا أتركه يفر من بين يدي ... لم أكن أعتقد أنه فى مثل هذه الروعة وهذا السحر ، حينما رأيته لأول مرة ... لكن الآن وقد فهمته يجدر بي أن أكون حارسة أمينة ، وامرأة قادرة ... سأنسج حوله حبائلي ، وأروعه بمفاتني ، حتى لا يعود يقدر على نسياني لحظة واحدة يعيشها .. سأكون الصورة الوحيدة التي يراها والذكرى العزيزة لديه ، حتى لا يذهب فيحاول تجربة حظه مع أخريات ... سأكون المحور

PDF Eraser Free

الذي يدور فيه ، والمجال الذي يعيش فيه سأستجيب لجميع مطالبه ، وأحقق له كل أمانيه . سنكون معا ثنائيا مثاليا سعيدا. »

ضحكت فرانسواز عندما سمعت البشير يعتذر ، لكنها قالت :

ــ لا بأس ، لم يحدث شيء خطير ... ولو تسمح لي ، سأذهب لآتيك بفطورك ... لقد قمت فى بكرة الصباح لأعد لك فطورك ... وأنا سعيدة جدا بهذا العمل .

ومن غير أن تنتظر كلمة ، خرجت تجر أذيال ثوبها الأزرق الشفاف ... وحينما بقي البشير وحده ، أخذ يمعن النظر فى الغرفة ... ويبحث فى كل جزء منها . فى الخزانة الواقفة عند احدى الزوايا ، وتحت السرير ، وبقرب الطاولة ووراء الستائر ... لكن أبحاثه لم تصل به الى نتيجة ... فقد كانت الغرفة خالية ، لا أثر فيها ، يمكن بواسطته الوصول الى استنتاجات ثابتة لكن البشير رغم كل ذلك لم يطمئن . فقد تعجب من هذه السيدة التي تعيش بمفردها ، وتقوم على خدمته ... ولكن ، هل كانت تفعل ما تفعله الآن لو كان لها زوجا ؟ طبعا لا ... اذا ، فأين هو زوجها اذا كانت متزوجة ؟ أو أين ذهب ان لم يكن هنا ؟ .. ولكن ماذا يهم البشير من كل هذا ؟ لماذا يسألها ، ولماذا يحرجها ؟ تلك أمور تخصها ... وهو لا يخشى شيئا : لأنه لم يكن السبب فى كل ما حدث ... فان جميع ما حدث ، وما يحدث الآن ، يرجع اليها هي ... انها هي التي قررت كل شيء ... وهي أدرى بالعواقب التي يمكن أن تحدث ، أكثر من أي انسان آخر ... سيغض الطرف عن كل الأسئلة التي تدور فى ذهنه الى وقت آخر ... سيجعل

PDF Eraser Free

كل شيء يجري حسب الظروف . سيجعل نفسه مثــل اليتيم ، الذي يشكر احسانها ... ولا يفعل شيئا آخر ... انها حسب ما يرى امرأة شابة ، ثرية ، لم تسعد فى حياتها الزوجية ، تبحث عن المغامرات وتود كسب أحد الرجال ... ولكن ، وبما أن البشير قد فاز بصداقتها ، وبودها ، فليجعلها صديقته ، وليجعل الوثاقة تشتد بينهما ، وتتطور ... فهي امرأة فاتنة ، جديرة بأن تكون زوجة لأعظم رجل فى فرنسا ...

استكان البشير للأمر ، ورضي بالواقع ... بل وقد سر به .. فهو لم يكن يفكر ، فى أن المودة ستحصل بينه وبين امرأة بمثل هذه السهولة ... وعلى هذه الصورة العجيبة ... ولكن الآن ، وقد حدث كل هذا الشيء ، فليحافظ على هذه العلاقة ، ويحرسها، ولا يجعلها تذوب وتنمحي بسرعة ... أما مشاكله مع رؤسائه ، فليؤجلها الى وقت آخر ... لأن تلك المشاكل تأتي فى الدرجــة الثانية ، وحلولها سهلة نسبيا

ودون أن يفهم البشير ما حصل له ، فقد أحس أنه يميل اليها ، ويشتاق الى رؤيتها فى كل حين . فأخذ ينتظر بفارغ الصبر عودتها من المطبخ ... فقد أراد أن يمتع نظره بجمالها وينعــم نفسه بقربهــا ...

وما أن مرت دقيقة حتى عادت فرانسواز تحمل بين يديهــا صينية عليها ابريق وفنجان وقطع من الخبز ، وكذلك قطعة من الجبن ، وســكين ... وبمجــرد أن اقتربت من البشير ، قالت معتــذرة :

PDF Eraser Free

ـ لقد أطلت عليك ، لكن لا تلوموني على ذلك ، فان الحليب قد برد ، ووجب علي تسخينه من جديد ... لكن الى درجة معينة حتى لا يفسد ... ويصبح غير صالح للشرب ... فلهـذا تطلب العمل بعض الدقائق .

صمت البشير ولم يرد عليها ، لكنه اكتفى بالابتسام ... فقد رأى أن هذه السيدة تحب الكلام من طبعها ... وتحب امتداح أعمالها بأية طريقة ... فتعجب من سلوكها هذا ... وقال يحدث نفســه :

ـ « يا للمرأة ، ماذا بها تتكلم هكذا ؟ هل تريد التأثير في ، وكسب مودتي بهذه الطريقة ؟ ان نساء كثيرات يتصفن بهذه الصفات ، لكن ، ماذا يهمني منها لتفعل ما تشاء ... »

استحى البشير عندما رأى فرانسواز على حافة السرير بجانبه ، تمسك الصينية على فخذيها ، ثم تقوم ، فتفرش الجبن على الخبز ، بيد رقيقة ملساء جميلة . رآها تجلس بقربه ، دون أدنى شعور بالحشمة ، أو بالخوف ... فكأنها تجلس عند ولدها ، تطعمه وتسرى عليه ... أخذ يتابع جميع حركاتها دون أن يتفوه بكلمة . رأى اليد اليمنى تمسك على مقبض السكين بلـين ، تمرره مرة على قطعة الخبز ، وتغيبه مرة أخرى فى الجبن ... وعند كل مرة ، حينما تكرر هذا العمل ، يرتفع نبض البشير فى صدره ، ويروح قلبه يدق بشدة ... فقد تعجب ، كيف يمكن ليـد ظريفة وخلابة مثـل تلك اليـد ، أن تقوم بذلك العمل القاسي الوحشي ، ولا يسرى اليها الاضطراب والوجل

PDF Eraser Free

فان رؤية قطعة الجبن وهي تنشطر تحت السكين ، آمر يبعث على التقزز والرعب ... وخاصة اذا كان الشخص الذي يقوم بهذا العمل امرأة ، جميلة ، حسناء ، طرية الأطراف ، لينة العضلات ، خفاقة القلب ، رهيفة النفس ، حساستها ... أما اليد اليسرى فقد رآها تمسك الخبز ، وتحركه من جهة الى أخرى حتى تستطيع امرار الجبن عليه بسهولة ...

وحينما انتهت فرانسواز من هذا العمل ، رفعت الابريق ، وصبت الحليب فى الفنجان ... فانساب هذا صافيا ، يتصاعد منه البخار بشدة ... بخار ساخن شفاف ، أحاط بوجه فرانسواز ، وانساب فى خصلات شعرها المقصوص بطريقة عصرية ، وغاب فى فمها المنفرج قليلا ، وفى منخاريها الصغيرين الدقيقين ، فجعلها أروع جمالا ، وأقوى سحرا وفتنة ... لكن حينما استدارت بوجهها الى البشير لتقول له :

ــ ستذوق الآن هذا الحليب ، وترى مدى درجة حلاوته ... واذا كنت تريد المزيد من السكر ، فاخبرني ... فأنا بطبعي لا أحب الحليب المركز ، الشديد ...

حينما استدارت فرانسواز لاحظ البشير ، أن شفتها العليا مرتفعة نسبيا عن مستوى الشفة السفلى .. ولا تنزل على أختها ، الا عند ارادة صاحبتها   اما اذا لم تكن تلك الارادة ، فهي معلقة ، تكشف باغراء عن بعض الأسنان البيضاء المظللة الجوانب ... كأنها قطع من الماس المخفي فى حفرة مظلمة ...

أخذ البشير الفنجان من يدها ، ورشف منه رشفة ... وما كاد

PDF Eraser Free

يفعل ذلك حتى تلمظ ، وقال :

ــ يا للحليب الرائع ... زوديني بالخبز من فضلك ... انك أيقظت شهيتي ..

فضحكت فرانسواز ملء شدقيها لهذه العبارات ، وقالت هي بدورها : ــ حذارى أن تتجاوز احتمالات معدتك يا جاك .... انك مازلت ضعيفا ، والقليل من الطعام يكفيك ...

فأحب البشير أن يزداد فى التنكيت ، فقال مرة أخرى :

ــ ماذا تقولين يا سيدتي ... ان معدتي لا بأس عليها ... وأستطيع أن أبتلعك أنت بأكملك ... أنت وما عليك ...

راحت فرانسواز تضحك مرة أخرى بينما راح البشير يفكر ويقول لنفسه :

ــ « اضحكي ، اضحكي ، مثلما تريدين ، فأنا فهمت طبعك وعرفت ما تريدين ، لكن لا تخشى شيئا ، فلن أفر ، ولن أبتعد عنك ... فأنا أبحث عن امرأة مثلك ... لآخذها كمؤنسة فى أيامي هذه التي بلغ فيها يأسي درجة لا تتصور ... »

لكن البشير سألها :

ــ هلا خبرتني أين هي ثيابي من فضلك ؟

فتعجبت فرانسواز من السؤال وقالت :

ــ ولماذا ؟ ماذا تفعل بها ؟

PDF Eraser Free

ـ لألبسها طبعا ... فأنا قد تأخرت ...

ـ ولكنك مازلت مريضا يا جاك ... وان أي تهور تقوم به لكفيل بأن يجعلك تمكث فى الفراش ، أياما أخرى ، طويلة ..

ـ شكرا ، لكن كوني مرتاحة النفس ... فسأحتاط لكل تلك الأمـــور .

تعجبت فرانسواز من تصرف البشير الغريب ، هذا .. فقالت :

ـ كيف ؟ أمللت من هذا البيت ، واشتاقت نفسك الى الحرية؟ ... على كل حال أنت حر فى البيت ، تستطيع أن تفعل ما تريد ... فأنا هنا أعيش بمفردي ، ويحزنني كثيرا ، أن تذهب وتتركني هكذا بهذه القسوة ، ولا تشكرني على ما فعلته معك .

ـ لا ، لا تخشى شيئا .. فأنا من طبعي ، لا أحب المكوث فى السرير ، ليلا نهارا . لكن سأكون رهن اشاراتك ... فأنا مستعد فى كل حين ، لأنفذ طلباتك ، ولو كانت هذه الطلبات ، تتطلب حياتي نفسها

سرت فرانسواز سرورا كبيرا ، عندما سمعت هذه العبارات العسلية ، تلفظ من فم البشير ... فقالت :

ـ اذا كان الأمر كذلك فأنا راضية على كل ما يمكن أن تقوم به مسبقـــا ....

ـ اذا ، فأنا أرجو منـــك أن تسمحي لي بالخروج ، بعد ما أنتهي من تناول هذه الفطور اللذيذ ... فأنت كما تعرفين ، يمكن أن أقع فى مشكلة كبيرة ، اذا لم أذهب وأقوم بالتسويات السريعة مع رؤسائي ، فى المعسكر الذي أنتمي اليه ...

PDF Eraser Free

ـ حسن يا جاك ... سآتيك توا بثيابك ... ولكن ألا يهمك ان كانت غير مكوية ؟ فهي فى الحقيقة مازالت مبرومة قليلا .

ـ لا . لا يهم ذلك ... سأغيرها حالا ، حينما أصل الى المعسكر .

ـ وهل أنت متأكد من أنك ستستطيع معرفة طريقك ... انه لم يسبق لك أن خرجت .

ـ أشك فى ذلك .. فأنا الى الآن ، مازلت لا أعرف أين أنا ..

ـ آه ، اذا ، سأخرج معك وأوصلك قليلا ، حتى تستطيع مرة ثانية معرفة العنوان بالضبط ، ولا تقع فى مضايقات .

ـ نعم ما تفعلين يا سيدتي ...

ـ أرجو منك أن لا تدعوني « سيدتي » ... فأنا بطبعي ، لا أحب هذه الكلمات الجوفاء ... فانه مسموح لك أن تدعوني باسمي ... فرانسواز ، وانتهى الأمر ...

ـ نعم ما تفعلين اذا يا فرانسواز ...

ـ شكرا لك ... على هذه العبارات .

وبعد دقائق ارتدى الاثنان ثيابهما ، وخرجا الى الطريق مبتهجين ، وكأنهما زوجان سعيدان ، ينعمان بشهر العسل .

لم تهتم فرانسواز بما يمكن أن يقوله الناس ... فهي تحتقرهم جميعا ولا تعتني أو تهتم بهم .. ان ما يهمها الآن ويعنيها هو : البشير ...

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل الســـادس

بعد هذا اللقاء الذي حدث صدفة بين البشير وفرانسواز ، تعددت اللقاءات وضبطت حسب ظروفهما وأوقاتهما فأخذا يلتقيان مرتين كل أسبوع ، ولا يتفرقان الا بعد ساعات طويلة يقضيانها معـــا

أصبح البشير يتجه الى بيت فرانسواز فورا ، بمجـرد أن يخرج من المعسكر ، فلا يهتم بما يصادفه فى طريقه ، ولا يعتني بمن يلاقيهم ... وأصبح يخلق الأعذار فى كل مرة يحدث له فيها أن يتلاقى مع بعض المعارف ... وكانت أمنيته الوحيدة فى كل مرة ، هو أن يصل فى أقسى سرعة ، الى البيت دون أن يتعرض لأي تأخير ...

أما فرانسواز فقد أصبحت هي كذلك ، تنتظر قدوم البشير بفارغ الصبر ، وما تكاد تراه يسرع فى الطريق ، قادما اليها ، حتى تشعر بسعادة كبيرة تغمرها وبفيض من الحياة يملأ كيانها فلا تعود ترى شيئا فى الدنيا غير نفسها وغير البشير ... وكأن العالم خلق لهما فقط ... ففي تلك اللحظات تعمى العين عـن المرئيات وينفتح القلب على مصراعيه ، فلا يعود يرى شيئا آخر غير الحياة والحب والخلود ... أما جميع الأشياء الأخرى ، فانها تذوب وتضمحل وتفنى وتغيب ... فلا يشعر بها أحد ...

PDF Eraser Free

توثقت أواصر الحب بين البشير وفرانسواز .. وتعلقت آمال كل واحد فى الآخر فان غاب أحد الطرفين ، غابت هذه الآمال ، وان حضر حضرت وتحققت ...

تمر أيام الأسبوع على البشير ثقيلة طويلة ، لا فرح فيها ولا بهجة ... يبقى القلب محطما ، يعيش على الذكرى ويأكل بعضه بعضا ... يقوم البشير بواجباته نحو المعسكر رغما عنه ... ولو كان يستطيع الفرار والتخلص منها ، لفعل دون أي تردد ... فأصبح يعيش على الانتظار ، ولكن ما أن يقترب يوم السبت حتى تنبعث فيه الروح ، فيبقى صباح ذلك اليوم كثير الحركات ، بشوشا مع جميع الناس ... ينتظر بفارغ الصبر انتهاء ساعات عمله ، لينطلق مثل العصفور ، حرا من قفصه ، ينشد الطبيعة والفضاء والسعادة والحريـــة .

كثرت اللقاءات بين البشير وفرانسواز ، ولم يحدث مرة أن جاء واحد ، وتطفل عليهما ، أو جاء أحد وأفسد عليهما وحدتهما ... فقد أخذا يضربان لنفسهما المواعيد فى مختلف أنحاء باريس .. مرة فى مطعم مشهور .. ومرة فى قاعة سينما .. ومرة أخرى عند نهر السين ... وعند كل موعد كان الاثنان يستعدان ... فيزينان نفسهما على أحسن صورة ... ثم يتأهبان بكل فـــرح وبهجة ، ليتقابلان ، ويتناجيان ... فينعم كل واحد بصاحبه ويفوز بما يمنحه له من ود وحنان وعطف ..

لكن فى احدى المرات بعد أن توثقت الصلات بينهما ، ولم يعد أحد يخفي على الآخر شيئا ... حدثت مفاجـــأة للبشير ،

PDF Eraser Free

مفاجأة غريبة لم يكن ينتظرها ... فقد كان فى ذلك اليوم يجلس مع فرانسواز ، منفردين فى بيتها ، بل فى الغرفة نفسها التـــي أنزلته فيها يوم وجدته تحت المطر ... يتذكران ذلك اليوم الذي تعـــارفا فيه وتحابا ... فيمــــدحانه ويتناقشان حوله . ولكن ، وبينما هما يتحدثان حول تلك الذكرى الغالية اذ بطفل يقارب سنه سبع سنوات ، يدفع الباب دفعا دون سابق انذار ، ويلج الغرفة ، فكأنها غرفته ، أو كأن له سابق معرفة بها ... فتعجب البشير من ذلك ، ولم يدر ماذا يفعل ... التفت الى فرانسواز سائلا دون ألفاظ :

ــ « من هو هذا الطفل الغريب ، الذي يعكر علينا وحدتنا ، فيدخل دون اذن ، وكأنه يدخل بيت أهله ؟ »

فاعتذرت فرانسواز واحمر وجهها ، وقالت :

ــ يا للطفل الشقي ... لم أكن أعتقد أنه هنا ... أرجو المعذرة يا جاك ، ان كنت قد تأخرت فلم أخبرك عن هذا الولد ...

فقاطعها البشــــير :

ــ ومن هو هذا الطفل ؟ هل لك سابق معرفة به ؟

فأجابت فرانسواز وهي تحتضن الطفل الى صدرها ، وتمسد شعره الأشقر :

ــ ان هذا الطفل ابني ، يا جاك ... انه بيير . وهو يقارب السبع سنوات .

PDF Eraser Free

فتعجب البشير من هذا النبأ وكرر السؤال :

ــ هل هذا الطفل ابنك حقيقة ؟

فقالت فرانسواز موضحة

ــ نعم انه ابني ... الوحيد الذي أنجبته من زوجي المتوفى ..

فزاد استغراب البشير وسأل من جديد :

ــ هو ابنك من زوجك المتوفى !! ما هذه القصة ؟ انك لم تطلعيني عليها من قبل ... كنت أعتقد أنك غير متزوجة ..

فعارضت فرانسواز البشير وقالت :

ــ لم أرد أن أخبرك بهذه القصة ، لأني كنت أعتقد أن ماضيي في هذه الناحية ، لا يفرحك ولا يحزنك ... ولهذا قمت بمجرد أن عرفتك ، بارسال ابني الى أقاربي لكي لا تراه ، ولا يراك ، ولا تسألني مثل هذه الأسئلة ...

فاحتج البشير ، وقال :

ــ كيف ، لكي لا أسألك مثل هذه الأسئلة ؟ أيجب علي أن لا أسألك وأبقى لا أعرف شيئا عنك ؟... كيف يمكن أن يحدث هذا ، وأنا قد قررت أن أتقاسم معك الحياة ... فأعرف ما ينفعك وأعرف ما يضرك ؟ ...

قال البشير هذا ، ثم التفت الى الطفل ورمقه بنظرة فاحصة ، فرآه ولد هزيل الجسم متناسق الأطراف ، يلمع شيء غريب في

PDF Eraser Free

مقلتيه ... لكن الطفل التفت هو الآخر الى البشير ، وراح ينظر اليه بشيء من الخوف ... وعندما لم يتماسك أمام نظرة البشير الغامضة ، الغاضبة ، لصق بأمه بصورة أكثر من السابق ، وقال :

ــ من هو هذا السيد المجهول يا أمي ... وماذا يفعل هنـا عندنـا ؟

فقالت فرانسواز تريد أن تطمئنه :

ــ انه سيد ظريف يا بيير ، ويحب الأطفال كثيرا ، فتقدم اليه وعرف نفسك اليه ...

ثم دفعته برفق الى الأمام لينفذ ما قالت له ... فتحرك الولد بخطوات بطيئة وكأنه يقترب من احدى الحيات ، ثم مد يـده الصغيرة مصافحا البشير وقال :

ــ مساء الخير يا سيدي ... أقدم نفسي لحضرتكم ... انني أدعى بيير ... وأنا جد متشرف بمعرفتكم ...

فاستجاب البشير لطلب بيير وقدم له يده مصافحا، وهو يقول :

ــ وأنا أدعى جاك يا بني ... واني كما قالت والدتك أحب الأطفال الرائعين مثلك كثيرا

وما كاد يتم هذا اللقاء المفاجيء بين البشير وبيير ، حتى تغير الجو السائد فجأة ، وانقشع الغيم ، وعمت الراحة ... وبمرور الأيام توثقت العلاقة بين البشير وبيير ، وأصبح كل منهما يرى فى الآخر بغيته وهدفه ... فالبشير يسر سرورا كبيرا عندما يمسك

PDF Eraser Free

بيد الطفل ، ويروح يلعب معه ، ويسعد سعادة لا مثيل لها عندما يروح فيسرد عليه القصص والحكايات ، أو يأخذه كمرافق له فى الجولات والتنزهات ، والطفل كذلك ... فانه يبقى ينتظر بفارغ الصبر قدوم البشير الى البيت ، ليحكي له كـل مـا رأى فى الأسبوع ، وكل ما فعل أثناء الأيام ... فلا يخفي عليه شيئا .. بل يطلعه على جميع ما أثر فى نفسه أو ما هو بقريب من ادراكه ... فيحكي له عن أمه وعن أقاربه وعن مدرسته وعن جيرانه ، وعن زملائه وأترابه ... فهو يحب أمه كما يحب أقاربه ، لكنه يتقزز قليلا من مخالطة بعض زملائه ، وبعض أقرانه ... وهو يأمل لو يكون البشير دوما بصحبته ... ولا يغيب لحظة عنه ... وهو يرجو منه أن يكون له عوضا عن أبيه المتوفى ، فلا يبخله نعمة الوالد الحنون ، ولا يقسي عليه بالوحدة والبعد ...

وهكذا أصبح البشير يرى نفسه فى عائلة جديدة .. فى عائلته : هذه فرانسواز ، زوجته ... وهذا بيير ابنه .

وبمرور الأيام وتعاقب الشهور ، نمـا فى صدر البشير حب كبير لهذين الفردين ، حب لا يوصف ... ولهذا قرر أن يطلع على كل ما وقع لهما ، ويتعرف على ماضيهما ويسبر أغوار نفسيهما ... اذ يجب ، أن لا تبقى هناك زاوية مظلمة من تاريخهما مختفية عليه .... فاقترب فى أحد الأيام من فرانسواز ، وكانت وحدها فى الغرفة . فاحتضنها طويلا الى صدره ، وربت قليلا على شعرها وقال لها ، وهو يحاول أن يلطف من كلامه فيجعل ألفاظه تنبع من قلبه وتصب فى قلبها ، دون واسطة :

PDF Eraser Free

ـ حبيبتي ... حبيبتي فرانسواز . نفسي عن صدرك بعض عبأك ، وخبريني على ماضيك من أول لحظة رأت فيها عيناك النور ، الى هذه اللحظات السعيدة التي أضمك فيها الى قلبي ... اني مشتاق الى معرفة تاريخ حياتك بالتفصيل ، لأني أخشى أن تكون هناك مسألة خافية علي ـ لم أستطع أن أدركها ، رغم كل ما أحمل لك من الود ـ فأسبب لك مضايقة أو احراجا ، أو أجرح شعورك ببعض التصرفات البريئة ... اني أعتقد ان كل ما سمعته منك ، هو غير كاف ، أو بالأصح هو ليس كل شيء ...

بمجرد أن انتهى البشير من لفظ الكلمة الأخيرة ، حتى شعر أن فرانسواز قد اندفعت نحوه بقوة ، كأنها تود الاختفاء فيه ... ففهم أنه لمس نقطة حساسة من وجدانها ، وأيقظ جرحا قديما فى كيانها ... ففكر أن يلوذ بالصمت ويترك لها الفرصة لتستعيد وتتهيأ وتسترجع ماضيها فأحس بصدرها يعلو ويهبط فى شكل غير متوازن ، وسمع تنفسها يخرج من منخاري أنفها الصغيرين ، فيسخن بقعة من صدره : فوق ثديه . فاستلذ هذه الحرارة اللطيفة ، وود لو لا تتوقف . لكن فرانسواز تقهقرت فجأة الى الوراء ببعض الخطوات متخلصة منه بلطف ولين ، وتركت جسمها يسقط على الأريكة دون حذر ، وكأنها ملت منه ، فرمته بعيدا عنها ... ثم قالت بعد لحظة قصيرة :

ـ سوف لن أعيد على سمعك ما كنت قد قلته لك فى المناسبات القديمة ، لأني لا أريد أن أثقل عليك كثيرا ، لكني سأطلعك على بعض الأحداث الهامة فى تاريخ حياتي لم أكن قد عرفتك عليها فى السابق ... .وهي وان كانت مؤثرة وحزينة ،

PDF Eraser Free

الا أنها في الحقيقة ليست بالدرجة التي يمكن أن يكون لها تأثير كبير على مستقبلي ... ولكن كيف أبدأ لك الحديث ؟

ـ ابدئي كيفما تريدين ...

ـ آه ، ولكن يحسن بك أن تجلس بجانبي ، لأني اذا بدأت في الكلام فسأتعبك ... لهذا يجدر بك أن تستريح منذ الآن ..

نفذ البشير طلب فرانسواز ، فجلس بجانبها ينتظر وكله آذان صاغية متى تبدأ الحديث ... فلقد رآها مالت اليه ، وأسندت رأسها على كتفه ، وراحت تحملق فيه حينا وفي الجدران حينا آخر ، وكأنها تستلهم شيئا ... فحمل نفسه على الصبر ، وترك لها الفرصة ، وبعد حين أخذت فرانسواز ، بحبل الكلام فقالت :

ـ المرأة التي تجلس الآن بجانبك يا جاك ، وتطلب رعايتك ، هي كريمة عائلة فرنسية كبيرة ، رفيعة الشأن ، عظيمة المجد ، مشهورة الغنى ... لقد ولدت في أحضان دافئة رحيمة ، وفزت بكل مباهج الحياة ... فلم ينغص لي عيش منذ أن أبصرت النور الى اليوم الذي تزوجت فيه من (برنار) ... فقد كان مكتوبا على أن ألتقى ببرنار ، وأحبه . ولم تكن لي حيلة في ذلك ، فبادلني هو الحب كذلك ، وكان أول لقاءنا في الجامعة فأصبحنا نجلس معا في جميع القاعات ، في جميع الدروس ، لأننا كنا نحضر نفس المحاضرات ... وقد زاد اتحاد اتجاهنا في الدراسة وهوايتنا لنفس الموضوع ، أن توثقت العلاقة بيننا ، وأصبحنا نكون شيئا واحدا ، لا يستطيع أحدنا الاستغناء عن الآخر لحظة واحدة من الزمن ... ورغم أني كنت من عائلة

PDF Eraser Free

رفيعة ، أرستقراطية ، كما قلت لك ، ورغم كون برنار من طبقة عاملة ... فاننا قد عزمنا على الاقتران ، وبناء بيتنا ... فلم أهتم أنا من جهتي بنصائح وتحذيرات والدي ، ولم يراع هو شيئا من ما كان يسمعه من أهله وأقاربه ... ولكن يا ليتنا كنا نعرف ماذا كان ينتظرنـــا ...

أغمضت فرانسواز عينيها بشدة ، كأنها لا ترغب فى رؤية شيء ، فقد كرهت الضوء ، وسئمت النور ... فاشتاقت الظلام وعشقت السواد ... وامتد صمت فرانسواز طويلا ، كأنها لا ترغب فى الحديث واعادة الذكريات ... لكنها ما شعرت بيــد البشير تمسح شعرها ببطء ، وتلمس عنقها بحنان ورقة ، حتى ارتعشت ارتعاشة داخلية دافئة ، وفتحت عينيها ، وأكملت :

ـ لم تدم سعادتنا طويلا يا جاك ... فقد رغب برنار ، رغم كل محاولاتي ، أن يتطوع فى الجيش الفرنسي ، ويذهب الى الجزائر لقهر الثوار هناك وللاستطلاع فى عين المكان على تاريخ وحضارة ذلك البلد الافريقي ، الاسلامي ... فلم يستمع الى توسلاتي ، ولم يرحم ولدنا الذي كنت قد وضعته حديثا من أحشائي ... فقد كان ولعه بالاكتشاف طاغيا على تصرفاته ، فتركني أنا وبيير وذهب مع القوات الوطنية الى الجزائر ... وقد كتب لي رسائل عديدة ، لا تشم فيها شيئا من الندم والحسرة ، لكن تشعر أن فيها شيئا من السرور والاغتباط ... وقد ذكر لي فى احدى هذه الرسائل التي كانت معظمها قليلة العبارات ، أنه يتهيأ لتأليــف كتاب عن أحوال ذلك البلد .

PDF Eraser Free

تصنع البشير ، لكي لا تشعر فرانسواز بشيء من تأثره ، وقال مقاطعا :

ــ وما هو الدافع ــ اذا سمحت لي أن أسألك ــ الذي دفعه الى القيام بهذه المغامرة فى مثل ذلك البلد النائي ؟ ألم تكن أوضاعه هنا مستقرة ، وغير هنيئة ؟ فارتحل تخلصا منها وبغية للانفصال ؟ أم أنه شعر ببعض النفور من جانبك أنت ، فلم يرد أن يصارحك ، وذهب ليخفي نفسه عنك ؟

انطلقت فرانسواز معترضة :

ــ لا ... لا . لم يكن شيء من ذلك ...

ــ ثم أتمت بعد فترة صمت ، فكرت فيها بعمق :

ــ لكن ، ربما .. ربما ..

ــ وهل ألف ذلك الكتاب الذي أخبرك عنه ؟

ــ لا أعرف شيئا الى حد الآن حول هذا الموضوع .

ــ أو لا يهمك أن تعرفي ؟

ــ لست أدري ... فقد كان للخبر الذي جاءني من القوات الفرنسية ، صدمة كبيرة حطمت نفسي ، ودفعتني للانزواء والصمت ... فأنا لا أرغب فى اثارة ذكراه ، أو التساؤل حول آثاره ...

لم يصبر البشير قليلا ، لتشرح له فرانسواز كيفية وفاة زوجها فسألها وكأنه يحتمها على الكلام :

PDF Eraser Free

ـ ولكن كيف كانت نهاية برنار المسكين ؟

ـ لقد كانت نهايته مؤسفة يا جاك ... وان الدموع الآن تكاد تغشى بصري .. فهو لم يزل شابا ، يافعا ونشيطا وذكيا ... مؤنسا وعزيزا ... يا لمصيره المشؤوم . ذهب يبحث عن العلم فوجد الموت تنتظره ... ذهب ليحيي الجهلة ، فقتلته الجهلة ، تبا لأولئك الذين قتلوه ... لم يرحموا شبابه ولم يراعوا فتوته ... فأخذوه أسيرا ونفذوا فيه الاعدام دون تأخير ...

وقد أقسمت أنا بمجرد سماعي خبر وفاته على الاخلاص له والبقاء شريفة لذكراه الخالدة ... فلم أرد التزوج من أحد ، وبقيت أحمل لقبه ... فأنا الى الآن أدعى مدام برنار ... أو بالأصح الأرملة برنار .

صمتت فرانسواز برهة من الزمن تسترجع أنفاسها فسألها البشير مشفقا عليها أو مساعدا اياها على تحمل الذكرى الأليمة :

ـ حسنا فعلت ... لكن ألم تجدي صعوبة فى العيش فى هذه المدينة الكبيرة ؟

فأجابته فرانسواز مطمئنة أياه ، ومطمئنة نفسها كذلك :

ـ اني ابنة باريس يا جاك ، لا تنسى ذلك ، فقد تعودت على الوحدة والعزلة . ولكن الحمد لله الآن ... لقد عوض الله لي برنار فى شخصك الكريم ... فأنا أحبك مثلما كنت أحبه ، وأعزك مثلما كنت أعزه ... ان لم أقل أكثر ... فربما كان غرامي الأول مع برنار ، يرتكز كثيرا على عواطفنا الدفاقة

PDF Eraser Free

التي يمتاز بها الشبان الذين هم فى مثل سننا : لم تعتركهم الحياة ولم يكتووا بجمراتها ... أما الآن معك يا جاك فاني أكثر تجربة وأعمق نفسا وأوسع صدرا ... وأستطيع أن أصمد أمام دواهي الدهر ونكائبه

أتمت فرانسواز كلامها بصعوبة ، فقد وجدت نفسها بين أمرين هامين جليلين : ذكرى برنار ، وحب البشير... فالتصقت بالأخير التصاقا كبيرا ، وأخفت رأسها تحت ابطه ، كأنها ولد صغير يخفي نفسه من العقاب ... فمال البشير عليها ، وواساها بحنان وقال مشفقا

ــ لا تعودي تتذكري هذا الماضي يا عزيزتي ... انه لا داعي لذلك ، ما دمت أنا بقربك ... فلن ترى من الخطوب شيئا ... أو لا تستطيعي أن تفعلي مثلي ... فأنا قد نسيت كل ما كان لي من ذكريات أليمة ، وعهود حزينة ... فأنا قد فقدت أفراد عائلتي جميعا فى الجزائر ، اثر هجوم خاطف قام به الثوار على المنطقة التي نسكن فيها ... وقد صدمت أمام ذلك الحدث ، وصبرت ... بل وأنا الآن لا أوليه أي اهتمام على الاطلاق فكأنه ليس مني ، وكأن الأفراد الذين ماتوا لا يتصلون بي بأية قرابة ... سواء أكانت هذه القرابة ، متينة ، أو غير متينة ... فأنا قد عرفت كيف أنجو من هوس الذكريات ، وضغط المآسي

تعجبت فرانسواز من تصريح البشير هذا ، فسألت وهي مضطربة :

ــ ماذا تقول يا جاك ؟ ماذا تقول ؟ أ أنت وحيد فى هذا

PDF Eraser Free

العالم مثلي ؟ .. لماذا لم تخبرني بهذا قبل الآن ؟.. أنا لم أجرء على سؤالك ، فقد اعتقدت أنك لست وحيدا .. أ أنت اذا ، بدون أب وبدون أم ... بدون أخ وبدون أخت ؟ ..

ـ نعم يا فرانسواز ، أنا لا أملك أحدا منهم ... لكن الحمد لله ، اني أملكك أنت . فأنت عوضهم جميعا ... أليس كذلك ؟

ـ نعم يا جاك . نعم . وأنت كذلك ، فانك عـوض برنـار وعوض كل أفراد عائلتي . فأنت ، وبيير ، وليس غير ..

بعد هذه الذكريات الحزينة رجع كل واحد الى الواقـع ، فاستقامت فرانسواز على قدميها وأصلحت شعرها ، ثم تبعها البشير ... فبقيا معا ، مدة من الزمن حضر خلالها بيير ... فبعث فى البيت جوا من السرور والبراءة ... وحينما اقتربت الساعة من الثامنة مساء ، اعتذر البشير ، وأخبر أنه يود العودة الى المعسكر.

وفى طريقه الى المعسكر،عرج على حانة معروفة،سبق له أن غشيها بمفرده ، أو بصحبة فرانسواز فأصبحت مألوفة لديه ... فجلس عند احدى الطاولات ، وراح يجرع ما قدم له ... فأخذ يشرب دون شعور : يملأ الكأس ثم يفرغها فى جوفه دون وعي ... أين وعيـه ؟

لقد تذكر البشير ما كان قد ذاعه على مسامـع فرانسواز ، حينما قال أنه فقد أفراد عائلته فى الجزائر اثر هجوم خاطف قام به الثوار على المنطقة التي يسكنون فيها ... وهو الآن يعيد ما قاله سابقا على نفسه ، لكن بشكل آخر ..

PDF Eraser Free

لقد فقد بعض أفراد عائلته اثر معركة طويلة دارت بين الثوار والقوات الفرنسية فى القرية التي يسكنون فيها لقد فقد والده ووالدته ... هكذا جاءته الأخبار ... هذا ما فصحت به رسالة عاجلة ، جاءته من أخيه العباسي من الجزائر .

حاول البشير أن يقطع الذكريات التي تربطه بعائلته ، لكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ... لقد حاول كثيرا ، لكن رغم كل ذلك بقي شيء خفي ، دقيق فى صدره يحن الى الماضي ، والى أفراد العائلة ... وهو يتذكر الآن هؤلاء الأفراد شخصا شخصا :

ها هو والده يجلس خلف الدار عند الجدار ... يستظل ... يدخن سيجارته المبرومة برفق ولذة ، ويرنو الى الآفاق المحيطة به بعيون دافئة حنينة ومخيفة .

ها هي والدته ، لا تكف عن الحركة ، تنتقل من مكان الى مكان ، ترفع مناديلها على رأسها ... ها هي تفتل الطعام بيديها الكبيرتين وتنتظر قدوم أوان العشاء لتقدم الكسكسي الى أهل الدار ...

ها هو العباسي ، نشيط ، حاضر فى كل حين ، مستعد فى كل وقت ، يمشي بوقار وعظمة ، ويتكلم بحنين وغلظة ...

ها هي ربيعة ، خفيفة الظل ، جميلة القد ، ترنو الى الباب تنتظر قدومه . تنزل جفنا وترفع جفنا .. تتهيب للابتسام والانطلاق، لكنها لا تفعل شيئا غير الانتظار ثم الانتظار ...

PDF Eraser Free

وها هو ، وها هي ... وها هو ، وها هي ...

أتفرق شمل هذه العائلة حقيقة ؟ أمن المعقول أن يحدث هذا فى مثل هذا البيت السعيد ؟ أيقسو الزمان الى هذا الحد ، فيمزق الأكباد ويحطم القلوب ؟ لا . لا . هذا شيء غير ممكن ... من المستحيل أن يحدث هذا ..

ان كانت فرانسواز تتأسف لفقدان عشيق أو زوج ... فلماذا لا يتأسف هو على فقدان والد ووالدة ؟ أليس له قلب ينبض بين ضلوعه مثل جميع المخلوقات ؟ ألا يملك من الشعور ما يجعله يحس بالذي دهمه ؟ أليس لديه من العقل ما يجعله يتفهم مدى الخسارة ومدى الخطب الذي وقع عليه ؟ أيحسب نفسه وحيدا فريدا ، غريبا عن جميع الناس ؟ هم يدورون فى فلك وهو يدور فى آخر غريب ؟ أيمكن أن يتحول انسان الى هذه الدرجة ؟ أيمكن يا عباد الله أن يحدث هذا ؟

ارتفع الغيظ الى صدر البشير فكاد يفجره ويبعث بمكنوناته ... لكن البشير استطاع بقوة عظيمة أن يصمد ويتحمل ... ولكنه لكي يتحمل شرب حتى ثمل ... وعندما ثمل أحس بنفسه خفيفا حرا طليقا ... فراح يلعن فى داخله العواطف البشرية ، والروابط الانسانية ، وقال بتلعثم ، وهو يتحدث لمفرده بعد أن وجد نفسه وحيدا فى أحد الشوارع الضيقة ، المظلمة :

ـ « لقد كدت أن أشي بنفسي اليوم ... .لعن الله هذه الرسالة التي جاءتني ، سأمزقها حالا بعد أن أجدها .. سأقسمها الى مائة قسم وأذروها للريح ، لتأخذ روحها ، وكل ما تحمله

PDF Eraser Free

من أسى ، وتنثرها فى مشارق الأرض ومغاربها ... ولتبتعد عني ولا أعود أراها أو أتذكرها أو أجدها مصادفة أمامي ...

لقد كدت أكشف نفسي أمام فرانسواز ... لأم أقرر الصمت ، ولا أخبرها على شيء عن أهلي ؟ ألم أخطط لهذا ؟ وقلت لنفسي أنه اذا ما ألحت على معرفة هذا الأمر ... فسأقول لها أني يتيم لا أعرف أحدا ... فكيف يحدث بعد هذا أن أعمل على كشف كل شيء ؟ ولكن الحمد لله ، لقد نجوت ، فقد استطعت بطريقة مفاجئة ، أن ألفق الخبر وأصبغه بصبغة أخرى ... فماذا كان يهمني أنا لو أنها كانت قد فقدت عشيقها أو زوجها فى الجزائر ؟ أتوجد علاقة لي مع هذا السيد ؟ فلماذا أتصنع الشفقة والرحمة ، وأروح ، فأقاسمها ، الآلام ، وأحكي لها قصتي أنا ؟ ماذا يهمني أنا من تاريخ حياتها ؟ أكانت شريفة أم لا ؟ أكانت متزوجة أم لا ؟ أهي أم أم لا ؟ ...

لقد اتفقت مع نفسي فى الأول على أن أعاشرها معاشرة الرجل للمرأة فقط ، وان وجد شيء من الحب بيننا فلا بأس ... ولكن أن يصل حبي بها الى هذا الحد ، حتى أصبح أغير عليها ، وأريد الاطلاع على حياتها السابقة ، ومعرفة تاريخها ... هذا شيء لا أريد الوصول اليه

انها حقيقة امرأة طيبة ، وأنا أميل اليها وأنشد قربها ، لكن الى أي حد ؟ لقد كنت أرى فيها أثناء أيامي الأولى هنا فى فرنسا، ملجئي الوحيد وهدفي الفريد .. وربما كان ذلك لعهدي القريب بهذا البلد ، لكن الآن وقد أصبحت كأحد أفراده ، لا فرق بيني

PDF Eraser Free

وبين أي أحد آخر ، فلماذا لا أنفصل عن هذه السيدة وألتجىء الى سيدة أخرى ان الطريق مفتوح أمامي ... اذا كانت هناك امرأة تعمل للكشف عن أسراري ، فلن أعاشرها وسأبحث عن أخرى لا يهمها مني شيئا ، سوى ما يمكن أن يهمها فى الدرجة الأولى كامرأة ...

ثم ، ثم ، أنظر الى حكاية فرانسواز ... بل الى حكاية زوجها المتوفى ... ما معنى كلامه ، أنه مصمم على تأليف كتاب حول الجزائر ؟ أيحسب نفسه قادرا على تأليف كتاب حول الجزائر ؟ أيسمو الى هذه الدرجة ؟ أيتجرأ شخص مثله على وضع دراسة حول الجزائر من غير أن يكون من أبناء الجزائر ، ومن غير أن يكون قد عاش فى الجزائر ، وعرف طقسها ، وأطلع على أهلها ، واستكشف ذخائرها ؟

لعنة الله عليه ... أيتجرأ على قول هذا الكلام ، وعلى فعل هذا المراد ؟ ما هو قصده من وراء هذا التأليف ؟ أيرغب فى التسلية ، ويبحث عن الطرافة ، ويطلب الغرائب والعجائب ، ليبهر بها قراء كتابه ، حول هذا البلد الذي هو الجزائر ؟ أيجعل تاريخ هذا البلد حكاية يتندر بها الأدعياء مثله ؟ لماذا لم يكتب على فرنسا ؟ أو على أي بلد آخر غير الجزائر ؟ ثم ، ثم ، أنظر ، أيذهب به ولعه بالتاريخ الى أن يهجر زوجته ويترك ابنه وهو صغير ، ويتطوع فى الجيش لغرض تأليف هذا الكتاب الذي ولاشك ، سيكون كله تخريف فى تخريف ، وأكذوبة فى أكذوبة ..

اذا كان الولع بالتأليف قد وصل به الى هذا الحد ، فهو ولاشك

PDF Eraser Free

مجنون ... لقد نوى السيد المتوفى أن يؤلف كتابا عن الجزائر ... اذا ، سأفعل أنا أيضا مثله وأؤلف كتابا على فرنسا ... وسأحكي فيه كل ما وجدت من عيوب وتفاهات وعبث ... وسأقول للناس أني ألفت كتابا ... ولماذا لا ؟ وسيكون كتابي أصدق من كتاب زوج فرانسواز ، الذي لحسن الحظ ، قد مات ولم يؤلفه ... أو على الأقل لم يتممه ...

آه ، لهؤلاء الفرنسيين ، يا لهؤلاء ... يجب علي أن لا أفكر فيهم فى المستقبل . اذا أردت أن أبقى على اتصال وثيق معهم .. سأعود كما كنت ولن أقلق نفسي من جديد يجب علي أن أذهب الآن بسرعة الى المعسكر . »

بعد أيام قليلة تمكن البشير من الحصول على راحة تستغرق أسبوعا كاملا ... فحمد الله على هذه النعمة ، وقرر قراره على أن يمضي هذه الفترة عند فرانسواز ... يقضي نصفها معها ومع ابنها بيير ، ويقضي النصف الآخر من الأسبوع فى المطالعة والقراءة ... فقد شعر أنه فى حاجة ماسة الى اطلاع والبحث وفى حاجة أكيدة اليها ... فهو يشعر أنه يعيش فى فراغ ، أو فى وسط تنعدم فيه كل الأشياء الهامة التي يطلبها عقل ووجدان الانسان ... وقد وجد فى مكتبة فرانسواز الشيء الكثير من المؤلفات التاريخية فى كل ميدان ... وقد اهتم بدافع غريزي ، أو بدافع ضميري ، أو بدافع مجهول ، بالكتب التي تبحث فى تاريخ الجزائر ... وقد تعجب لكثرة المؤلفات حول هذا البلد الاسلامي ، وسأل نفسه :

PDF Eraser Free

ـ « لماذا تهتم فرانسواز بهذا الشكل بتاريخ هذا القطر ؟ لكن لماذا أسألها ؟ انها لا تطالع هذه الكتب على كل حال ... »

تمتع البشير بالقراءة متعة لم يرها فى السابق ؛ فأخذ يقضي الساعات تلو الساعات مع الصفحات ... وان تضايق وشعر بالضجر خرج مع فرانسواز فى نزهة تفسحية وقا. كانت هذه النزهات شيقة ومتنوعة ... فهما يذهبان الى حي راق ، عظيم وتارة أخرى يقصدان حيا فقيرا معرى الجدران شقي الأطفال ...

ومع مرور الأيام أصبح البشير يشتاق زيارة هذه الأحياء الفقيرة ، بل ولقد أراد أن ينتقل ليسكن هناك .. الا أن فرانسواز أبت عليه ذلك ، وطلبت منه الاكتفاء بالنزهات زاعمة له :

ـ ان الخطر يكتنف هذه الأحياء وان الغرباء يعتدون على المواطنين ، فيقتلونهم ، ويستولوون على أموالهم ... ان سكان هذه الأحياء عرب ... لا يفقهون الفرنسية .

لم يبق البشير مكتفيا بحب فرانسواز ... فقد شعر أن هذا الحب تهدده الأخطار ، وسيذهب عما قريب ، وكأنه لم يكن ... ولكن كيف أحس البشير بذلك ؟

ان قلب فرانسواز لكبير ، وان حبها لعظيم ... لكن تفكيرها وتصرفاتها ، وسلوكها معه ، لا تدعم هذا الحب ... بل يبعث على التساؤل . فهي لا تميل اليه كما تميل المرأة الى الرجل .. وانما تميل اليه كما يميل العالم على مادته وكما يميل الدارس على موضوعه ... فهي تعاشره لتستطلع منه أسراره ... وهي

PDF Eraser Free

ترافقه لتستلهم من كلامه مادتها .. وهي ترضى بتصرفاته لتكشف سلوكه ، فالبشير ــ كما يشعر ــ ، هو بالنسبة لها موضوع للدراسة والاكتشاف والتجربة ، ولا شيء آخر ...

تتيجة لكل هذا ، وجد البشير نفسه مرغما على المغامرة والبحث عن حب آخر فأخذ يربط العلاقات مع نساء أخريات ، تحدث المصادفة أن يتصل ويتكلم معهن . فأصبح كثير العاشقات ، عديد العلاقات ... وبمرور الأيام ، وتزايد التجارب ، قرر أن لا يبحث عن الحب من جديد ... ويكتفي بالصداقة والمعاشرة ... ان الحب فى هذا البلد لنادر ، وان الفسق لكثير ... اذا فليفسق ، ويعربد ويعبث .

ــ « ان كل ما يبحث عليه الانسان فى هذا البلد ، يجده ... الا الطمأنينة ، والسعادة والحب .. فهذه أشياء ثلاثة منعدمة .. »
هكذا أخذ يقول

PDF Eraser Free

الفصـــل السابــع

أخذ العباسي يمشي بخطوات قصيرة ، مطأطأ الرأس ، منحني القفا ، ذابل الرموش ، كأنه أمام سيد ، أو فى حضرة قديس .. ان السبب الذي دفع به الى المجيء الى هذا المكان هو سبب حتمي ، اجباري ، لا يستطيع له ردا .. على الأقل فى هذه الفترة ..

فالعباسي قد شعر منذ اللحظة الأولى التي توفي فيها والداه ، أنه أصبح وحيدا منعزلا ... لا رفيق له ولا أنيس ... فقد كانا رحمهما الله ، يملآن فراغا كبيرا ، ويلعبان دورا هاما فى حيـــاة الأسرة ... فهما عمودها الفقري وأساسها المتين الذي من دونه تتهدم جدران الأسرة وتنهار ..

لقد ود لولا يقترب من هذا المكان ، ولا يدنو من هذه الناحية ... لقد ود لو بقي فى البيت ، يجتر أحزانه ، ويقضي يومه ، يقوم بأعماله مثل الآلـــة

ان مجرد رؤية هذا المنظر يبعث الأشجان فى النفس ، ويوقظ ذكريات الأمس تلك الأشجان التي تسكن صدر كل انســـان يفقد أهله ، وتلك الذكريات القديمة التي تسكن أيضا صـــدر كل انسان له ماض وله أحباب ...

PDF Eraser Free

لقد جاء العباسي هنا ليملأ لحظة ، الفراغ الكبير الذي يشعر به ... كما جاء ليطلب النصيحة والهداية ... انه يمر بفترة عويصة، صعبة ، لا يستطيع أن يبين بدايتها من نهايتها ... ولا يستطيع فهمها .. انه جاء يطلب الرشد والهداية من أبيه ومن أمه .. لقد كان يفعل هذا منذ القديم . فهو منذ اليوم الذي رأى فيه نور الشمس ، واستنشق عبير الوجود، كان يلتجىء اليهما للاستفسار والاستفهام والنصيحة ... نعم لقد كان يفعل ذلك دائما .. ولماذا لا يفعله الآن ؟ أليس الظرف مشابها ؟ ان لم يكن أقسى ... وماذا يهم ان كان مكان الالتقاء هو فى هذه المقبرة ؟ أليست الأرض فى أي مكان هي نفس الأرض ؟

ثم ماذا يهم ان كان الأهل أحياء أو أموات ؟ أليست العبرة هي أن يأخذ من قربهم ومن حضرتهم العون والغوث والنجدة ؟ ان مجرد الشعور بكونه يقف قريبا منهم ، يبعث فيه الأمل والصبر والشجاعة ... انه لا يهمه ان لم يكن يراهم ويتحسسهم .. ان مجرد التفكير فى أنه قد جاء اليهم قصدا يكفي .. ان ما يفيده منهم هو ما تبقى منهم فى ذاكرته وفى وجدانه وفى أعماقه ... ان ما يفيده وينفعه منهم هو ما أخذه منهم من صور وذكريات وأفكار ... ان ما يطلبه منهم لا يرى ... ان ما يطلبه منهم يدرك ويتصور فى باطن النفوس ... وأعماق الاحساس .

لهذا فما كاد العباسي يصل الى ضريحي والديه حتى وقف بخشوع ، وأوجشت عيناه بالدموع   لقد رأى ضريح أمه مجاورا لضريح أبيه .. ملتصقين .. يا للعجب .. من

PDF Eraser Free

كان يعتقد أو من كان يفكر فى أن هذا سيحدث على هذا الشكل؟ من كان يعتقد أن الشيخ الوقور بلقاسم سيسقط شهيدا ؟ ومن كان يفكر فى أن زوجته ، ستستشهد معه فى نفس اللحظة ، وتوارى التراب معه فى نفس البقعة وفى نفس الدقيقة ؟

لقد كان مصير الاثنين عجيبا ... أحبا بعضهما منذ الصغر ، وعاشا معبعضهما فى نفس الظروف .. ثم فى الأخير تزوجا، وأنجبا أولادا ، وماتا فى نفس اللحظة وفى نفس اليوم ... وكأن ذلك كان مقصودا .. ان المصير الذي لقياه قد أحزن كثيرا العباسي ، وتركه يعيش شاردا تائها لقد كانت النهاية شديدة عليه .. ولكن كيف حدث كل شيء ؟ ان العباسي ما زال يتذكر القصة على أتمها ... أنه يود لو ينساها ولا يعود يذكرها ... لكنه البائس الضعيف ... لا يستطيع نسيان شيء ... ان كل شيء قد نقش فى ذهنه ، وان كل التفاصيل قد رسخت وتأكدت :

« لقد كان النهار ، نهارا مشرقا ، يوحي بالربيع ، ويبعث النشوة فى الصدر فما يكاد الانسان فى ذلك النهار يستنشق كمية من الهواء ، حتى يرفع بصره الى السماء ، ويقول وكله خشوع وابتهال :

ــ رحماك يا رب انك رفيق بنا ... انك كريم ... ما أحلا الحياة ، وما أجمل الوجود .

لكن ، لكن الشيء الذي كان يخفيه ذلك النهار ، كان عظيما ، كان حزينا ، كان أليما ... فبمجرد أن توسطت الشمس كبد السماء وتعرت فاضحة عورتها للكون .. حتى ارتفع فى الجو

PDF Eraser Free

دوى الطائرات المقاتلة وامتلأ الفضاء صدى وتخلخلا ... فخرج بعض سكان القرية المتناثرة البيوت من أكواخهم ، ورفعوا أبصارهم يستطلعون مصدر الدوى وبقي البعض الآخر كامنا فى بقعته ، بعد أن قطع كلامه ، وانتظر ... وبقي آخرون وهم الأطفال ، يلعبون ويمرحون فى الحقول ، رافضين قبول ايقاف ألعابهم ومحتقرين الغريب الذي أوشك أن يبعث الفوضى والانحلال بين صفوفهم ... ولكن يا ليتهم كانوا يعرفون ما كان ينتظرهم ... يا للمساكين ... يا للأغرار ، فقد تحولوا الى ألعاب بعد أن كانوا يبحثون عن الألعاب ... وقد تحولوا الى أشلاء ممزقة ، متناثرة الأطراف ، دفاقة الدماء ، تشكل مناظر أليمة تفتت الأكباد .لقد حاول أهاليهم أن يفهموهم مدى الخطر الذي يقدم ، ويوشك السقوط عليهم ... لكنهم الأبرياء ، القاصرين ، عزموا على الاستمرار وعدم الطاعة ... بل لقد حاول أحدهم أن يسخر من بلقاسم الذي خرج هو كذلك ، ليحاول انهاءهم من اللعب ، وارجاعهم الى بيوتهم ، وذلك بأن أخذ يقدم ويقلد بصورة مضحكة ما قال لهم ... فقد قال لهم وهو يصرخ ليرعبهم وبذلك يطيعون .. :

ـ ألا تسمعون الدوي الذي يأتي يا أولاد ؟ ان خطرا كبيرا سينزل عليكم اذا لم تذهبوا الى بيوتكم هيا تفرقوا ... تفرقعوا

وحينما لم يستمع له الأطفال أعاد بصورة أخرى :

ـ اذا لم تسمعوا الى ما سأقوله لكم ، فسأنزل عليكم من السماء شواظا من نار ... تحرقكم وتلهب جلودكم ...

PDF Eraser Free

وبالفعل وكأن كل شيء قد سطر من قبل ، فقد أخذت الطائرات تطلق القنابل على القرية بكميات كبيرة ... وما هي الا مـــدة قصيرة ، حتى سكن كل شيء ، وجمد كل شيء فلا حياة هناك ، ولا وجود .. كل شيء ذهب مع النار .. كأن لم يكن .. كل شيء عدم ... ما عدا أشلاء بشرية وحيوانية ، تغطي سطح البسيطة ، ومنازل منهارة الجدران متحطمة السقوف ، مضطرمة النار ... عاليتهـــا .

لم ينج أحد ... لا الذين كانوا فى الخارج ، فى الحقول . ولا الذين كانوا فى الداخل ، فى البيوت ... أصبح كل شيء ركاما على ركام ، وأنقاضا على أنقاض ... لقد حدث كل هذا لمجرد أن العساكر سمعوا أن جماعة من المجاهدين فى تلك القرية ... فاضطرموا غضبا ، واشتعلوا حقدا وغلا ... وقرروا القضاء على القرية بأكملها ... بما فيها وما عليها . قرروا أن يمحوها مـــن الوجود ، ويجعلوها أثرا بعد عين ... لقد اضطرب ذلك النهار وغشيت أفقه سحب من الغبار نتيجة انفجار القنابل ولكن ما أن مرت لحظة وهدأ كل شيء ، وغابت الطائرات فى زرقة الفضاء تحمل معها جرائمها دون عقاب ... حتى رجع كل شيء الى نصابه الأول كأن شيئا لم يحدث ... ولكن الفرق الوحيد هو أنه لم يكن هناك أحد يرفع يديه الى السماء ويقول بخشوع ــ « ما أجمل شمس هذا اليوم ، ما أنعشها ، انك رحيم يا رب ، انك كريم ، ما أجمل الحياة ما أجمل الوجود ... »

هكذا بقيت الصورة مرسومة فى ذهن العباسي ... فقد قدم الى القرية عند انتهاء الغارة ... ورأى كل شيء ... ماذا يستطيع

PDF Eraser Free

أن يفعل ؟ لقد أخذ تسريحا من السلطات المحلية ، فنقل كلا من جثمان أبيه وجثمان أمه ، وجاء بهما الى هذه ... وواراهمـا التراب بيده ، وهو يكاد يدفن قلبه معهما ... وها هو اليـوم يقف من جديد بجانبهما يتذكر كل شيء ويحاول الصمود .. حقيقة لقد فقدهما ، لكنه رغم كل ذلك ما زال يستوحي منهما العون والعزم ... فهو يخاطبهما داخل نفسه دون أن يلتفت الى كل من زوجته وأبناءه وزوجة البشير وابنها ... الذين جاؤا معه للقيام بهذه الزيارة :

ــ « أبي العزيز ، أمي العزيزة ... سلام الله عليكما ، أنـا ابنكما العباسي ... ابنكما البار ... جئت أزور مثواكما ، وأطلع عليكما ، لأثبت لكما أني لم أنسكما ... واني مازلت دائم التفكير فيكما ... الحقيقة أقولها لكما ... ان ذهابكما كان له أثر بالغ فينا ، وان غيابكما عنا أحدث فراغا كبيرا في وسطنا ... فنحن نشعر الآن بعدم وجود شيء يمسكنا بعضا الى بعض ... ان غيابكما قد جعلنا نعيش منفردين منزوين ... نحن ننتظر دائما عودتكما ... فكأننا نطمع في رجوعكما ... ان زوجتي هنية ، قد أصابها هزال وضعف كبيران ، بعد ذهابكما ... وان الأبناء قد تقوقعوا وأصبحوا لا يحركون ساكنا ... من طلوع الفجر الى ساعة النوم لا ينطلقون ولا يتحركون ، فكأنهم أصيبـوا بالشلل ... وان تفكيرهم الصغير ، البسيط ، مركز عليكما ، لا يبرحكما ... انهم لم يفطنوا بعد الى الحقيقة ... انهم ينتظرون رجوعكما في كل لحظة ... فماذا تريدان أن أقول لهم ... ؟ أما ربيعة ، زوجة أخي البشير ، فانها كذلك تتأسف كثيرا عـلى

PDF Eraser Free

غيابكما ... وهي الآن تطلب من الله أن يرحمكما بعظيم رحمته ... كما أنها تتمنى أن تغفرا لها ما أمكن أن تكون قد قدمته من سوء لكما ــ دون أن تقصد الى ذلك ــ فأنتما تعرفان أنها فتاة طيبة ، دمثة الأخلاق ، متأدبة حنونة ، صبورة ، بشوشة ... انها المسكينة الآن ، تحتضن ابنها الوحيد الى صدرها وتربت على وجهه الصغير باكية متأسفة .... تود ارجاع الأمر الى طبيعته ، لكنها تشعر وتعرف أنها لا تقدر على ذلك ... فتبقى صموتة ، مطرقة ، حزينة ...

« أبي العزيز ، أمي العزيزة ، هل تسمعاني ؟ اني أكاد أتحطم من شدة الخطوب التي نزلت علي .. فمنذ فقدانكما لم أنم، ومنذ ذهابكما لم أسترح ... ان محن الدهر وصروفه قد تجمعت حولي، فلا تريد التخفيف عني لحظة ... انها لا تدرك أني بشر ، لي احتمال معين ، وقوة على الصبر والصمود معينة ... انها لا تشفق علي ... فما أن أصبت فيكما ، حتى سمعت من أحد المعارف أن أخي البشير قد انقلب علينا وبدل ملته ، فلم يعد يود الاعتراف بنا ، ولم يعد يبغي الرجوع الينا . فأنتما كما تسمعان ... انه لم يقم بفعل حسن ... فقد ترك عندي زوجته وابنه ، ولم يسأل عليهما ... فعل كل ذلك وكأن ليس له واجبات ... أنتما تعرفان أن المدة المحتومة التي يجب عليه أن يقضيها فى العسكرية قد انقضت ، لكنه لم يعد ، ولم يرجع فقد نسينا وأهملنا

« أبي العزيز ، أمي العزيزة ... انـي جئت أطلب منكما النصيحة ، فماذا أفعل ؟ ... أنا ليس لي طاقة على الصبر والاحتمال ... أنا قد مللت الحياة ... أنصحاني ، ماذا أفعل ؟ .

PDF Eraser Free

أرشداني ... وجهاني ... لقد أردت أن أقدم لكما بمفردي ، لكن الاهل أرغموني على ان اصحبهم معي ، وأوصلهم الى هنا . فهاهم بجانبي يذرفون الدموع ويولولون ... أما أنا فسأعود مرة أخرى ... فالى اللقاء ، وسأحاول القيام بما يرضيكما ويريح نفسكما . وفى مرة ثانية سأخبركما بما فعلت ... وأطلعكما على كل شيء . ان كل ما أرجوه هو أن لا أغضبكما .. فالى اللقاء .. »

فكر العباسي لحظة ثم قال مخاطبا الأهل ، وهو يود لو يفهموه دون أن يتلفظ :

ــ هيا بنا نعود الآن ... ليس لدينا ما يبقينا هنا ...

انسحب العباسي من حضرة والديه ، وقفل راجعا متبوعا بالأهل .. فلم يجرأ على النطق أو الالتفات ، مع أو الى أي أحد كل ما فعله هو أنه أخذ بيدي اثنين من أبنائه وراح يجرهما وراءه .. دون أن يفطن الى أنه يؤلمهما من شدة الجذب والقبض. فراح الطفلان يتعثران ويهرولان ، بينما راحت هنية وربيعة ، تسرعان فى مشيتهما حارصتين على مراعاة الآداب وعدم التعثر فى الحائك الذي يلمس ظهر حذائهما .

وعندما وصلوا جميعا الى المنزل ، ارتمى العباسي فى أحد الكراسي ، ولاذ بالصمت ، ولم يحاول انهار أحد الأبناء الذي أخذ يلطم أخاه بعد أن أوقعه أرضا . لقد أخذ يفكر طويلا ، ويبحث عن طريقة تخلصه من الحيرة التي يضطرب فيها . فمكث

PDF Eraser Free

على ذلك الحال طويلا . وفى الأخير فطن ، ورجع الى الواقع . فكان أول ما فعله هو أن نادى على الأطفال :

ــ يا أولاد ، تعالوا جميعا هنــا .

وعندما حضر الأطفال ، أمرهم :

ــ اذهبوا والعبوا فى الخارج ، أتركونا نرتاح قليــلا مــن ضجيجكم ....

فأطاع الأطفال فى الحال سيد الدار ، وانسحبوا بصمت الى الفناء ... وما كادوا يغيبون حتى نهض العباسي واقترب مــن ربيعة وقال لها بصوت يلمح منه الضجر والقلق :

ــ اسمعي يا ربيعة ، اني أريد أن أتكلم معك قليلا ، فى أمر زوجك ... انه من الواجب علي أن أطلعك على كل شيء ، كما أنه من الواجب أن تخبريني عن رأيك وتسمعيني مقصدك .

بهتت ربيعة لهذه اللهجة ، وهذا الكلام ، فنظرت اليه حينا ، وتفرست فى تقاسيمه قليلا ، ولم تنطق ، ولم تتحرك ... انه لم يسبق لها أن رأت فى عينيه مثل هذا التألق ، وهذه الحــيرة . فالتفتت الى هنية متسائلة ، تطلب حل هذا اللغز المحير . فبادلتها هنية نظرة مماثلة ، ورفعت حاجبيها دليلا علــى عــدم الفهــم والادراك . لكن العباسي خلص الموقف حينما نادى من جديد مخاطبا زوجتــه :

ــ تستطيعين أنت كذلك أن تتقدمي . ان الأمر يهمنا جميعا . لا بأس من أن تتكلم فيه جميعا .

PDF Eraser Free

أطاعت المرأتان واقتربتا ... لكنهما لم تسألا . فقد بقيت هنية مطبقة ذراعيها فوق صدرها كأنها تلميذة مؤدبة فى رحمة أستاذ قاس . وبقيت ربيعة متخلفة قليلا تستند على الجدار بكتفها ، وتدخل يديها وراء حزامها ، كأنها تخشى أن تلمس يداها شيئا محظورا ، دون ارادتها . فراحت تبعدها وتحاذر الحذر الشديد ... وفى الأخير نطق الرجل ، وهو يحاول عدم القسوة فى الكلام ، وعدم تثبيت نظرته على المرأتين :

ــ لقد سمعت أخبارا عن البشير . انه ما ازل لم يرع لنا انتباها . لقد غواه الشيطان وذهب ضحية ضعفه وانخذاله ... من كان يقول أن البشير سيفعل هذا ؟ لقد استولى على عقله الشيطـــان .

بمجرد أن لفظ العباسي هذه العبارات المتقطعة ، حتى تسمرت المرأتان فى مكانهما تعجبا وخشية . وتعلقت أبصارهما بشفاه المتكلم تنتظران المزيد من الشرح والتعليق . لكن الرجل لم يزد شيئا ، فقد أحس أنه قال كل شيء ... وأن ما قاله ، فيه الكفاية ... لقد بلغ الخبر ، وشرح كل شيء ... واذا كان لواحدة أن تسأل فلتسأل ... وكأن هنية لم تصـــدق ما سمعت ، فتقدمت وسألت وهي تمثل ما تقول بحركات من يديها :

ــ من الذي جاءك بهذه الأخبار ؟ ولكن هل عرفت أولا أن أخاك فى صحة ، وعافية ؟

ــ « يا له من سؤال » ! -

PDF Eraser Free

هكذا قال العباسي لنفسه ، لكنه فضل أن يشرح كل شيء .

ــ ان أحد أصحابي هو الذي جاءني بهذه الأخبار . فهو يعمل فى فرنسا . وقد رأى البشير بعينيه ... قال أنه لم يتكلم معه ولم يبادله حتى التحية ، لكنه لاحظ أنه يتمتع بصحة تامة .

لقيت هذه المعلومات صدى فى نفس ربيعة ، فتقدمت قليلا سائلة :

ــ اذا كنت تريد أن تطلعنا على أنباء البشير ، فلماذا لا تقص علينا ما سمعته ؟ نحن نود معرفة كل شيء ... فابدأ من الأول ، وحاول أن تفهمنا فى كل شيء .

تنحنح العباسي ، ثم وضع يده على فمه ، وارتبك قليلا لأنه لم يعرف كيف يبدأ الحديث ليشرح القصة لهاتين المرأتين اللتين تقفان بجانبه كأنهما تتهمانه ، وتوجهان له اللوم والعتاب فأخذ يبادلهما النظرات ، ويراعي عدم الاطالة مع ربيعة ، لكنه تكلم وهو محرج :

ــ بعد أن كتبت رسالة الى البشير ، وشرحت له فيها كل ما وقع لنا ، وأعلمته بوفاة والدينا ، اتصلت منذ بضعة أيام بأحد الزملاء الذين يعملون فى المهجر ، وسألته عن أخبار البشير ، ان كان يعرفه ، أو ان كان قد رآه أو سمع عنه شيئا ... وقد كان للأنباء التي سمعتها من هذا الصديق أثر كبير فى نفسي ، وحسرة كبيرة فى صدري . فأنا قد وطنت نفسي على الثقة بأخي ، وحاربت كل هوس أو اتهام يمكن أن يخلق فى ذهني ضده ... لكن الآن ، لم تبق لي حجة ، ولم يبق لي دافع على الثقة به والتعويل عليه . وان أول ما أريد أن أخبركما به هو أن هذا

PDF Eraser Free

السيد الذي قلت لكما عنه أنه جاءني بالمعلومات ، يعمل مع « الاخوة » ، ويرأس خلية واسعة النفوذ فى المهجر ، وقد استطاع أن يجعل معظم الجزائريين الذين يعملون فى المهجر ، ينخرطون معه ويعملون ضد المستعمر ، وبذلك يقوضون أركانه من الصميم ، ومن القلب ، أي من عاصمة فرنسا ذاتها .... هذا هو ما يقوم به اخواننا هناك لأجل تحرير وطنهم ... أما بالنسبة لهذا الشاب الذي كان من الممكن أن يكون له دور فعال ، فى انجاح الثورة ، وبث الرعب فى المستعمر ... فانه ويا للأسف قد ارتد وخيب آمال وطنه وآمال اخوته فيه ... ويا ليته كان قد رفض الانخراط فى الثورة ، ورفض العمل لتحرير وطنه ... فان الخطب يكون هنا محتملا أما أن ... أما أن يقوم فيبيع نفسه لأعداء بلاده ، ويرتد عن دينه وعن ملته ، ويعادي أهله وأمته ، فان المصيبة هناك لا تحتمل. وان هذا ليس من طاقة البشر . هل تريدان أن تسمعا ما قال لي الصديق العامل المجاهد على البشير ؟ ان القصة لغريبة وطريفة للغاية نعم انه لمن العجب أن يحدث مثل هذا التغير ، وتحدث مثل هذه التبدلات فى شاب جزائري مثل البشير .

عندما أتم العباسي الجملة الأخيرة ، حبذ التوقف قليلا ، والتمهل فى صياغة الأخبار ... فقد لاحظ أنه تكلم بانفعال شديد ، وأنه من الممكن ملاحظة أفكاره وشعوره الخاص من خلال ألفاظه . وهو لا يود ذلك ، لأن الانفعال الذي هو فيه الآن ، لا يدل على ما يعترم فى نفسه حقيقة ، وعلى ما يجول فى ذهنه بدقة . فأخذ يتكلم من جديد بعد أن أبصر طريقة لعرض

PDF Eraser Free

أخباره وكيفية لايصال معلوماته ، فقال :

ـ أخبرني السيد ، أنه رأى البشير بصحبة امرأة فرنسية وقد رأى هذه السيدة تطوق ذراعه كأنها زوجته . وتبادله الكلام والابتسام . وقد تعجب السيد من هذه العلاقة ، وأراد أن يطلع على الحقيقة ، فحاول مرات عديدة أن يتصل بالبشير على انفراد ، ويسأله عن تصرفاته وعن أهدافه . لكن السيد لم يستطع الاتصال به لأن البشير كان دائما بصحبة تلك السيدة أو فى بعض الأحيان بصحبة جماعة من العساكر ... لكن المحاولات لم تذهب سدى . فقد استطاع فى احدى المرات ، وهي المرة الوحيدة ، أن يتقابل مع البشير ، ويبادله الكلام . لكن رغم أن البشير ، تعرف على السيد ، الا أنه لم يلتفت اليه ولم يرد على سؤاله ... وقد سأله السيـد :

ـ « أهلا بك يا البشير ... هل تسمح لي ببعض الكلام ؟ »

فصعده البشير بنظرة استغراب وقال :

ـ « ابعد عني »

وذلك باللغة الفرنسية ... ثم أكمل طريقه دون أي التفات أو أي مراعاة ... وعندما عاد السيد واتصل برفاقه هناك ، قرروا أن يراقبوا البشير ، ويطلعوا على جميع تحركاتـه وأفعالـه فخصصوا له مراقبين وتابعين يدرسون جميع ما يقوم به . وهو الى الآن لا يعلم من ذلك شيئا . كما أنهم الى حد الآن ، لـم يثبتوا عليه أي دليل يثبت خيانته .. ويسمح لهم بمعاقبته .. لكن هؤلاء الناس لن ينتظروا زمنا طويلا لاثبات الدليل ، أو الاتيان بالحجة والبرهان ... ويا ويله لو يكشفوا شيئا يمكن أن يثبت

PDF Eraser Free

خيانته ، ثم ، لقد قال لي السيد ، أن المرأة التي تصاحب البشير تتردد كثيرا على الأحياء العربية ، التي يقطن فيها الجزائريــون بصفة خاصة ... سواء أكانت بصحبته أو لم تكن . فهي امرأة غريبة ، تمضي كثيرا من ساعات يومها ، تراقب المهاجرين وتتطلع اليهم ... وقد تشكك فى أمرها كثير من الناس ، لكنها لم تسمح لأحد أن يسألها أو يجرأ على مخاطبتها ... ونتيجة لكل هــذا فقد اعتقد الاخوة هناك أن هذه المرأة يمكن أن تكون جاسوسة، أو مبعوثة من طرف احدى الجهات المعينة التي تريد الاستطلاع على الظروف التي يعيش فيها الجزائريون ... وبالتالي اكتشاف ما يفعلون وما يدبرون . فما كان منهم الا أن قاموا بتحريــات وأبحاث حول كل ما يتصل بها فعرفوا أنها امرأة محصلة على جانب كبير من العلم والثقافة ، تناهز الثلاثين من عمرها ... تنتمي الى أسرة كبيرة ، ذات صيت وباع كبيرين ، لكنها عند الزواج لم تهتم بآراء أهلها ونصائحهم ، وفعلت ما أمرها به قلبها ووجدانها . فتزوجت أحد الشبان من أهلها ، كان يزاول معها الدراسة ، لكن هذا الشاب الذي ينتمي الى طبقة أقل نفوذا وقوة من طبقتها ، كان ذا طموح وأطماع ... فهجرها متناسيا كل ما فعلت لأجله ، وجاء هنا الى الجزائر بعد أن تطوع فى جيش المستعمر .... ونحن لا نعلم لماذا تطوع هذا الشاب فى الجيش دون أن يشفق عــلى زوجته ... ربما كان يطمح أو يطمع فى أن ينال شيئا ثمينا هنا فى الجزائر ... لكن هذا السيد المغامر لم تكتب له الحياة طويلا فى الجزائر ... فقد سقط قتيلا بعد أن ألقي المجاهدون عليه القبض ، واستنطقوه ... وعندما سمعت السيدة زوجته ، تأثرت كثيرا لهذا المصاب فبقيت قليلة العلاقات مع الناس ، تحبذ الوحدة وتنشد

PDF Eraser Free

الصمت والعزلة ، وهي لم تنجب من زوجها المتوفى سوى ولدا واحدا هو الآن فى السابعة من عمره ... والاخوة لا يعلمون ماذا تدبر هذه السيدة ضد البشير وضد الجزائريين بصفة عامة ... فهي ولاشك تود الانتقام لزوجها ، وستفعل كل شيء للوصول الى هذه البغية وتحقيق هذا الهدف . أما ماذا يفعل معها البشير وما يسمع منها ... فنحن الى حد الآن لا نعرف شيئا . ما عدا بعض الكلام التافه الذي قام بتسجيله بعض المبعوثين الخاصين الذين استطاعوا الاقتراب منهما والتصنت الى حديثهما ، دون اشعار أو تنبيه ... وان التحريات ما زالت مستمرة الى الآن ...

هذا هو ما سمعته من الأخ الذي يعمل فى المهجر ، وجاء الى الجزائر منذ فترة قصيرة . الحقيقة أنا لا أفهم هذا المجنون الذي ذهب دون رجعة ، فلم يرد على رسائلنا ولم يهتم بما أصابنا من فقدان والدينا ثم لم يهتم بمشكلة بلاده ، فيقوم ليجاهد قصد تحريرها ، أو يذهب الى غير رجعة ، فلا نعود نسمع به بتاتا. أنا لن أجرأ من جديد على لفظ اسمه ، ولن أسمح لنفسي بالتقابل معه مرة أخرى ان كان ذلك ممكنا ... فقد سئمت أخباره وتصرفاته ومللت أعماله وأنباءه . انه بالنسبة لي غير موجود .. منذ هذه اللحظة . نعم انه غير موجود بالنسبة الي . ان كان يريد يوما أن يقدم الى الجزائر ، ويقول أن لدي أخا ، سأذهب اليه ، لأراه ، وأتعاون معه ، فانه سيكون مخطئا ، وسيكون قد أتعب نفسه وأشغلها من غير سبب ومن غير هدف ... هذا هو ما عندي أنا ، وقد قلته . »

وبالفعل فان هذا هو الشيء الذي كان يعترم فى صدر العباسي

PDF Eraser Free

وينهش ذهنه ... والآن ، وقد قال كل شيء فماذا يا ترى ستقول المستعمتان ؟ هل أدركتا ما قال ؟ هل فهمتا ما تلفظ به ؟ هل تقاسمانه حكمه ؟ هل تتفقان معه ؟ هل لهما نفس النظرة ونفس الرأي ؟ انه لا يعرف ذلك ، فلينتظر ماذا ستقولان ... انهما ما زالتا الى حد الآن ترددان ما سمعتا ... انهما ما زالتا تجتران ما قال . حقيقة انها لصدمة كبيرة تحدث فى نفسهما عندما تسمعان هذه الأنباء القاسية.. هذه الأنباء التي لم تكن فى الحسبان. فصمت العباسي ولم يحاول اضافة كلمة جديدة الى ما قال . انه يترك لهما الفرصة للأسئلة والاستفسار والتعليق .

وهكذا وما أن مرت برهة قصيرة حتى ذهبت الحيرة عن ربيعة ، وتحركت أساريرها بالانفعال . فقالت مستوضحة :

ـ وهل تزوج البشير من هذه السيدة الفرنسية ؟

فأجابها العباسي وقد أدرك ما تقصد :

ـ حسب ما سمعت انه لم يتزوجها بعد .

فأدرفت ربيعة غير راضية بهذا الجواب :

ـ وكيف يقول هذا السيد أنه رأى البشير مع هذه السيدة فى عدة أماكن و ... ألا ترى أنه من غير الممكن أن يفعلا ذلك ، من غير ، من غير ... أن يكونا متزوجين ؟!

فأجابها العباسي مؤكدا :

ـ نعم يمكن أن يفعلا ذلك من غير أن يكونا متزوجين .

PDF Eraser Free

فصمتت ربيعة عندما سمعت هذا التأكيد ، وراحت تفتش عن سؤال آخر تشرد فى ذهنها ... سؤال كانت قد أعدته منذ اللحظات الأولى عندما سمعت اسم زوجها . فاغتنمت هنية هذه الفرصة وتقدمت فوجهت هذا السؤال الغير الواضح الهدف :

ــ اذا كانت هذه السيدة جاسوسة ، فلماذا يسير معها البشير ، ولماذا يصادقها ؟ ألا يخشى على نفسه من هذه ...

فقاطعها العباسي :

ــ يا ليته فعل ذلك ...

فأخذت هنية من جديد الكلمة ، وقالت محاولة بجميع الوسائل اخفاء المقصد البعيد من كلامها :

ــ ولكن يا العباسي ، اذا كان هذا الانسان الضعيف ، قد قام بهذا الفعل المشين المستهتر ، فلماذا لا نوجهه ونحاول ارشاده الى السبيل السوي ، الذي يمكنه به أن ينجح فى حياته .. وبذلك يسعد جميع الناس ... ألا تعتقد أن معاداة هذا الشخص حرام ، تديم الفراق ، وتمدده ؟!.

عندما سمع العباسي هذه العبارات ، رفع يديه ، علامة على عدم القدرة على اعطاء رأي أو كلمة . فنظرت اليه زوجته بعين معاتبة ضارعة ، وتعجبت من سلوكه القاسي هذا ، وكادت أن تقول كلمة أخرى . لكن ربيعة سبقتها الى النطق ، فقد اهتدت الى السؤال الشارد ، وبمأنها قد حصلت عليه فلماذا لا تلفظه ،

PDF Eraser Free

وتتخلص منه فى الحال ؟ فقالت وكأنها تلفظ شيئا كريها من فمها :

ــ والى متى ، سأنتظر أنا عودة البشير ؟

ثم استطردت بلهجة أقل عنفا وسرعة :

ــ اني قد انتظرت ما يزيد عن الثلاث سنوات . ويجب علي أن أعرف مرة واحدة ، اني ما زلت زوجة البشير ، أم لا ؟!

التفت العباسي الى ربيعة ، وحدجها بنظرة طويلة ، وكأنها قد أذته بهذه الكلمات ... ثم قال :

ــ ان ما سمعته يكفي لافهامك ... فاذا كنت ترين أنه ما زال زوجا ، فان ذلك ما نراه نحن كذلك ... وان كنت لا ترين ذلك ، فهذا لا يخصك سوى أنت .

كان لهذا الكلام صدى عميقا فى نفوس الجميع ... فقد لمسوا بأصابعهم موطن الداء .. وكشفوا العلة التي يعانون منها . ان لهم جميعا دورا فى هذه القضية .

فبالنسبة للعباسي ، انه سيد الدار والقائم على ادارة شؤونها وتنفيذ جميع متطلباتها وحاجياتها . وبما أن له زوجة وأولادا ، فانه لا يود أن يزداد عليه الحمل ، فيقوم باعالة أسرة أخرى ، أسرة لها سيدها ، ولها القادر على اعالتها ... لقد كان من الواجب على العباسي أن يقوم بالاشراف على أسرة أخيه مدة الفتــرة المحتمة التي وجب عليه قضاءها فى العسكرية ، بعيدا عن الأهل والوطن . ان هذا أمر لا نقاش فيه ... لكن الآن ، وقد مضت تلك

PDF Eraser Free

الأيام ، فلماذا يبقى يحمل هذا العبء ؟ ويرزخ تحت هذا الثقل ؟ انه لا يخسر شيئا حينما يقوم بهذا الدور ... فقد قال لنفسه مرات كثيرة :

ــ ان أسرتي هي كل من يوجد فى البيت ، المرأتان والأطفال ، لا فرق بين واحد وآخر .

لكن لقد تبدلت الأحوال ، ولم يبق الوضع كما كان . ان الناس يتشدقون كثيرا ، ويرمون السهام من كل اتجاه . فقد كثرت الأقاويل وكثرت الاتهامات . وهو يود التخلص من كل هذه الأكاذيب والأباطيل . انه شريف ، وان الأسرة لشريفة .

أما بالنسبة لهنية ، فانها حيثما رأت ربيعة أو صادفتها فى سبيلها ، تتأوه ، وتقول مصبرة نفسها :

ــ « لن تبقى طويلا هنا يا فتاة . ان الأجل قد حان ، وان الموعد قد زف . لقد تحملتك كثيرا وراقبتك طويلا ، ولله الحمد الآن ، فاني لم أتركك تمضين بعيدا ، وتصلين الى ما لا يرضيني ولا يرضينا جميعا ... »

أما بالنسبة لربيعة ، فانها كذلك قد سئمت الانتظار وملت الوحشة والوحدة ولو لم يكن ولدها لما رضيت أن تبقى لحظة فى بيت آل زوجها ، تتحمل ولا تتأوه . لو لم يكن هذا الولد الشقي لذهبت الى أهلها وفصمت عرى الزواج ، وضربت بكل الواجبات عرض الحائط ... ولكن ، لماذا ؟ أيحتم عليها ابنها الصغير أن تتحمل كل هذا العذاب ، وتصبر كل هذا الصبر ؟ ان

PDF Eraser Free

ابنها ، فى الحقيقة ، لا يضع أصفادا فى معصميها . ان لها مطلق الحرية فى أن تفعل ما تشاء ، وتقوم بما تريد . اذا فلماذا لا تطلب من العباسي أن يتركها تعود الى أهلها . لماذا لا تطلب ؟ انه سوف لن يقول لها شيئا اذا فلماذا لا تسأله ، وترى ما تكـون النتيجـة ؟ :

فكرت ربيعة قليلا وأعدت ما تود أن تقوله . وحينما اطمأنت الى نفسها وتأكدت من صحة سؤالها ، قالت بصوت مختلط بين الرجاء والتأكيد بين الضراعة والصرامة

ـ لو سمحتم لي ... اني أود الذهاب الى بيت أهلي . ان هذا الأمر لا يهمني سوى أنا . سآخذ ابني وأذهب .

كان الجميع ، ينتظرون هذه الكلمات كان الجميع يرونها على شفاه ربيعة ، لكن الآن ، وقد لفظتها ، وصرحت بها ، فماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ هل يوافقونها ؟ ماذا ِسيقولون الآن ؟ انها تنتظـر .

عند هذا الحد شعر العباسي أن الموقف يحتم عليه الكلام ويجبره على اعطاء رأيه ، فقال دون خشية ، ودون قوة :

ـ اذا أردت أن تذهبي ، فاذهبي ، لكن لن تأخذي الولد معك .

فرفعت ربيعة حاجبيها من شدة الصدمة وقالت متسائلـة ، كأنها تريد أن تقول أن لها الحق فى أن تأخذ الولد ، وانه يجب على العباسي أن لا يقف فى طريقها

ـ ان الطفل ابني يا سيدي

PDF Eraser Free

فرد عليها العباسي بلهجة حنونة ، لأنه لا يود الدخول فى هذه المناقشات :

ــ أنا أعرف ذلــك .

وكاد الحوار أن يستمر طويلا لولا دخول هنية بهذا السؤال :

ــ لماذا تريدين أن تذهبي يا عزيزتي ؟ لن يستمر غياب زوجك طويلا . ألا تحسبين أنك فى بيت أهلك هنا ؟

تقززت ربيعة من هذه العبارات ، ولم تحاول الجواب . فمكثت صامتة ، وكأنها رضيت ، ورزحت تحت حكم القدر . وعند ذلك الحد قرر العباسي أن يخرج الى الشارع ، ويتــرك المرأتــين تخوضان غمار هذا البحث ... ورغم أنه متيقن من أنهما لــن تخرجا بنتيجة ، يمكن أن يسمعها ، عندما يعود الى البيت ... فقد فضل أن يتركهما تتناقشان .

فنهض من الكرسي ، واتجه فورا الى الخارج ، وما كــاد يغيب ، حتى تسلل الأطفال الى الغرفة واحتلوا بعض الأركان وراحوا ينظرون الى السيدتين اللتين وقفتا لا تحركان ساكنا ، وكأنهما تحولتا الى صنمين ... فأخــذوا يتبادلــون الأسئلــة بالنظرات ، ويحافظون على عدم بعث الفوضى فى هذا الجــو الغريب المشدود المضغوط ..

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصل الثامـــن

رفع باديس ــ ابن البشير ــ يدي عمه العباسي الى أعلا ، ثم وبمجهود آخر أقوى ، أزاحهما من طريقه . فقــد جلــس العباسي أرضا ، واضعا يديه على ركبتيه ، يسند جذعه الــى أطرافه ، يتكور ويتقوقع وكأنه يريد التقليل من الحيز الذي يشغله قوامه ... لكن باديس لم يعجبه وضع عمه هذا ، لأنه يمسحه بصبغة حزينة ، ممقوتة منفرة ، تدل على أنه فى حالــة سيئة ... وترمز الى أنه يعاني من بعض المحن لا يريد التصريح بها والاعلان عليها ... ولكن لماذا يحمل العباسي أحزانه معه هنا الى البيت ؟ لماذا لا يتركها فى الخارج ، لكي لا يزعج أهل الدار ولا يبعث روح التشاؤم والاشمئزاز والتقزز والتفكير والامعان ... ان باديس يحب عمه مسرورا ، يحبه مبتسما ، فرحا ، لعوبا ، متفتحا ... مستعدا للمشاركة فى الكلام والألعاب . لهذا فهو ما يكاد يراه فى وضعه الحزين هذا ، حتى انفلت من أمه ربيعة ، وتقدم بخطوات متبعثرة الى عمه ... تكسو وجهه الصغير مسحة ملائكية لطيفة . وبمجرد أن وصل أمامه ، اعتقد أن عمه سيفتح له ذراعيه ويحتضنه الى صدره ويلاعبه . فيدغدغه ويقرصه ، ويداعبه . لكن العباسي لم يفعل ذلك ، فكأنه لم يشعر بوجوده ، أو كأنه لا يود مشاركته فى ألعابه ... فانزعج باديس لهذا الصد ، واضطرب لهذا الجد ، فرفع يدي عمه من أمامه بقوته البسيطة ،

PDF Eraser Free

ودخل بين ركبتيه وصمت ... وكل ما فعله ، هو أنه راح يرنو اليه بعيون بريئة ، صغيرة ، لا تعبر على شيء محدد . ومرت لحظات وهو ينتظر متى يتكرم عليه عمه ؛ فينظر اليه ، ويلاعبه . لكن الأمد طال . فتضايق الطفل وقال وهو لا يحسن التعبير :

ــ يا عمي ، جئت اليك لتعاقب أمي لأنها لم تحملني فى هذا اليوم ، وتركتني أقع على الأرض ، فلطخت نفسي وثيابي ... ثم بعد ذلك أغلظت معي القول ، وصفعتني على خدي هذا ....

كانت فى صوت الطفل باديس ، رنة حلوة ، خلابة ، أيقظت العباسي من تفكيره وأجبرته على الالتفات الى هذا النداء الصارخ الذي يطلب النجدة والعدل . فمسك يد الطفل بحنان وداعبها ، وقال وهو يحاول الابتسام :

ــ كيف تقول يا باديس . ؟ كيف تقول ؟

فأعاد الطفل الشكوى ، لكن بصوت أرق وتعبير أصح :

ــ لو تعلم يا عمي ماذا فعلت بي أمي ... لو تعلم

فسأله العباسي وهو يضغط على كل حرف ، حتى يجعل الطفل يعتقد أنه يريد معرفة الحقيقة ، ليثأر له من أمه :

ــ ماذا فعلت معك هذه المتوحشة ؟

فقال الطفل ، وقد انبعثت فى نفسه روح الأمل ، واستيقظت فى صدره روح النصر :

ــ لقد ضربتني يا عمي ... لقد تركتني أقع على الأرض ، ولم

PDF Eraser Free

تهتم بي حينما رأتني ألطخ ثيابي ... كل ما فعلت معي ، أنهـا رفعتني بشدة من ذراعي ، وصفعتني على خدي هذا ...

ابتسم العباسي لهذه الأكذوبة التي اختلقها باديس ، ليلفت انتباهه ويجبره على الاهتمام به ... فقال وهو يود اطمأنانه :

ــ اسمع يا باديس ، اذا ما عادت أمك مرة ثانية الى معاملتك مثل هذه المعاملة ، السيئة ، فاخبرني وسترى ماذا سأفعل بها ... سأهشم رأسها .

فرح الطفل عند سماعه هذا التأكيد وهذا العطف ، لكنه بعد تفكير قصير قال ــ لا يا عمي ، لا تهشم لها رأسها ، وانما عاقبها معاقبة صغيرة فقط .

ــ « يا لهذا الطفل .... يا لقلبه الحنون . يا لروحه البريئة . ليت الانسان يبقى صغيرا مثل هذا الطفل . »

هكذا تكلم العباسي مع نفسه ، وهو ينظر الى الطفل بعيون ملؤها العطف والشفقة ، ثم لم يمسك نفسه ، فرفعه على ركبتيه ، وراح يلعب معه . يجذب أذنه مرة ، ويمسح على شعره مـرة أخرى . يهزه حينا ، وينزله حينا آخر . وفى الأخير عندما لاحظ أن الطفل مسرور ، وضعه أرضا ، بجانبه ، وقال له :

ــ اذهب ونادي اخوتك ، تستطيعون اللعب هنا بجانبي .

وما كاد باديس يسمع هذه العبارة حتى طار فرحا ، وغاب فى اللحظة . انه سيلعب مع اخوته ... انه سيلعب أمام عمـه ...

PDF Eraser Free

سيبين مهارته . يا للفرصة يا للفرصة . لقد أصبح من عادة العباسي أن يقول لباديس أن الأطفال الذين فى الدار هم اخوته ... وان كان هو أباهم ، فان ذلك لا يمنع من أن يكونوا اخوة لباديس . فأبناء العمومة اخوة . لقد أصبح يخشى أن يسأله الأطفال ، ويقولون له :

ــ « أين هو أبوك . لماذا لم يأت ... »

حتى يجعلونه ينخرط فى البكاء والعويل ..

ان لا فرق ، عند العباسي ، بين أبنائه وابن البشير .

بعد لحظة جاء الأطفال . التزموا عند قدومهم الأدب والسكون ... لكنهم حينما لمحوا من رب الأسرة جانب اللين ، تصايحوا وتنافسوا ، فارتفع ضجيجهم وعلت أصواتهم لكن رغم كل ذلك لم يرد العباسي توقيفهم ونهرهم . وانما ترك لهم الحرية فى أن يفعلوا ما يشاءوا ... اذا كان هو يفكر ويتأمل ، فان ذلك ليس من شأن هؤلاء الأطفال الأبرياء . انهم ليسوا السبب فيما يحدث . انهم ضحايا هذا الواقع المؤلم ، المر ، الذي تمر به البلاد ، ويعيشه الشعب بأجمعه . لكن رغم كل ذلك ، سيفرج الله على الجزائر ، وينصرها .. ان ما كابدته الجزائر طوال هذه السنين لكفيل بأن ينصرها ويعليها . لقد مرت سبع سنوات على يوم الثورة ، سبع سنوات أليمة ، حزينة ، مرهقة ، متعبة ، قاسية . ولن يطول الزمن لتنال الجزائر استقلالها ، وتعود لهذا الشعب الابتسامة التي فقدها منذ زمن طويل . لن يطول الوقت

PDF Eraser Free

ليحل ذلك اليوم المسعود الذي سيتمكن فيه هؤلاء الأطفال من العيش فى نور الحرية وبهجة الاستقلال .

ترك العباسي الأطفال جانبا ، وراح يفكر فى أمور أخرى . وأول من فكر فيه ، هو شقيقه البشير . انه يتذكره دائما ، فى كل مرة يدخل الدار ويرى ربيعة وابنها باديس ... يا لهذا الرجل الذي ترك أسرته ولم يهتم بها ، رماها جانبا كأنها متاع تافه ، ولم يلتفت لها ولم يتب .

لكن العباسي ما يكاد يتذكر البشير حتى يشمئز ويطرد هذه الذكرى من ذهنه ، ويروح يبحث عن صورة أخرى ، عن صورة ، وان كانت أليمة ، وموحشة ومؤسية ، الا أنها على الأقل لا تضاهي قسوة ذكرى البشير ... فان وفاة والديه أهون اليه من كفر البشير وتصرفاته .. وان ذكرى السجن والعذاب ، أخف على نفسه من هذه الذكرى .

اضطرب العباسي لهذه الذكريات .. فتضايق من صياح الأطفال وضجيجهم فالتفت اليهم وقال

ـ الآن انتهى وقت اللعب ، يجب علينا أن نذهب لننام . اتركوا هذه الألعاب لتتمموها غدا ان شاء الله .

ما كاد الأطفال يسمعون هذا القول ، حتى انكمشوا وتفرقوا، وذهب كل واحد الى المكان الذي ينام فيه ... أما باديس فقد اقترب من عمه وقال محاولا التعبير عن ما يريد :

ـ يا عمي ... انني أريد أن أنام معك ... لقد ضربتني أمي

PDF Eraser Free

... ولن أنام معها هذه الليلة ... انها ضربتني على خدي هذا

فقال العباسي :

ــ لا تخش شيئا ، انها لن تضربك من جديد اذهب .

فأطاع الطفل . وعندما سكن كل شيء ، وران الصمت ، نهض العباسي من مكانه واتجه نحو هنية ، وقال لها من غير أن ينتظر منها ردا :

ــ أنا ذاهب للقهوة ... سآخذ مفتاح الباب معي . لا تنتظروني . ناموا

ان العباسي يعرف أن « حظر التجول » يعمل به . لكنه حينما نظر الى ساعته قال :

ــ « انه ما زالت هناك ثلاث ساعات لموعده ، فلأذهب الى المقهى وأبقى بعض الوقت ثم أعود ... أنا فى حاجة ماسة الى تبديل الهواء . »

وعندما خرج العباسي واستقبله نسيم المساء ، تنفس الصعداء وقال :

ــ « ان هذا البيت يشبه السجن ، منذ أن تركنا منزلنا ، بعد أن أخرجتنا القوات العسكرية منه ، ونحن لا نتمتع بالاتساع ... فنحن مكدسون فى هذه العلبة مثل السردين ... الله يفرج علينا ، لنعود مرة ثانية الى أملاكنا الخاصة ونستريح من هذا العناء . »

PDF Eraser Free

عندما دخل العباسي المقهى ، وجد هناك مجموعة من الناس ، يجلسون الى الطاولات ويشربون القهوة ، ويتبادلون الحديث ... أدار العباسي بصره فى أرجاء القاعة فلم يلمح أحدا يعرفه . تمنى لو يجد أحدا من زملائه ورفاقه ، ليتكلم معه ويسرى عن نفسه قليلا .. لكن الى حد الآن ، ليس هناك أحد ... فأخذ مقعدا وجلس ، وطلب قهوة وراح يفكر ... وبعد لحظة جاءته القهوة ، فشكر النادل وابتسم ، لكن ما كاد هذا الأخير يبتعد حتى جاء ثلاثة رجال وتقدموا من العباسي مبتسمين ، كأنهم يعرفونه ، وقال أحدهم وهو يتميز بالروح المرحة ، ويعمل حلاقا :

ـ الله ، الله ، انك هنا يا العباسي ، ماذا تفعل ؟

ولم ينتظر الحلاق الجواب ... فجلس وقال لمرافقيه

ـ اجلسا ، اجلسا واطلبا ما تشربان ... يا نادل ، يا نادل .

ابتسم العباسي لتصرف صديقه ، وقال وهو يلتفت الى الرجلين الآخرين وهما فلاحان ، لكن لا يدري أحد من الناس ماذا يفعلان هنا فى البلدة :

ـ كيف هي أحوالكم أيها الاخوة ؟

فقال الجميع :

ـ الحمد لله ، الحمد لله ، كما ترى .

ماذا يرى ؟ ان ما يراه لا يدل على أنهم يعيشون فى سعادة . ان النظرات العميقة ، البعيدة ، التي تشع من حدقاتهم تعبر بكل وضوح عن ما يعانونه ... ان نظرات التساؤل التي ينظرون بها

PDF Eraser Free

هي الصورة الحقيقية التي تعبر بصدق عن ما يدور بأذهانهم ، وعن ما يختلج فى قلوبهم ...

عندما سمع العباسي عبارة « الحمد لله » ، قال :

ــ الحمد لله ، نحن كذلك كما ترون .

لم يرد آن يقول كلمة آخرى غير هذه ... لأنه اذا ما قالها فان أصدقاءه سيوجهون له عديدا من الأسئلة ... لهذا حبذا الترديد. لكن الحلاق لم يكتف بهذا الرد ، فسأل العباسي من جديد :

ــ لقد اشتدت الظروف وقست علينا فى هذه الأيام يا أخي ... فماذا عندك من أنباء وآراء فى هذا الشأن ؟

هكذا سأل الحلاق ، لكنه لفظ السؤال بطريقة لا يفهم منها السؤال . لكن العباسي فهم مقصوده .. فقال وهو يريد الاقتضاب وعدم التوسع فى الشرح والتدقيق :

ــ نعم ، لقد قست الظروف علينا .. لكن لا بأس من ذلك ، فاننا سنتخلص من هذه المضايقات فى أقرب وقت .

فسأل أحد الثلاثـــة :

ــ وكيف ذلك ؟

فتابع العباسي :

ــ لا أعرف كيف ... لكن لا تخشوا شيئا ... ان يومنا قد حان أوانه ، وما علينا الا الانتظار ..

PDF Eraser Free

لم يرد الرجال الأربعة التطويل فى هذا الحديث . انهم جميعا يعرفون هذا الشيء ، وهم جميعا ينتظرون ، وينظرون الى المستقبل نفس النظرة ، ويأملون نفس الأمل ... ففكر الحلاق طويلا ثم قال ، كما هو من عادة الحلاقين :

ـ لقد سمعنا أن السلطات العسكرية وغيرها ؛ تراقبك منذ أن تشككت فيك ...

قاطع العباسي السؤال ، وأجاب دون أن ينتظر تتمة السؤال :

ـ نعم انها كذلك ... منذ اليوم الذي تشككت فيه في ، وهي تراقبني ... لقد وصلتها معلومات وأخبار ، تقول بأنني منخرط مع جيش التحرير ، ولي نشاطات أخرى ضد الحكومة والنظام ... وقد تعرضت لتفتيش رجال الدرك والشرطة .... لكنهم عندما لم يجدوا عندي شيئا قاموا باصدار أمر يقولون فيه ، أنه يجب علي الرحيل من بيتي ، والانتقال الى بيت آخر .. وقد رحلت ، وأنا الآن أعاني من الضيق والحصر فكل ما أقوم به مراقب ، وجميع تحركاتي مسجلة ومضبوطة .

عندما استمع الرجال الثلاثة الى هذا الشرح ، صمتوا فترة من الزمن ، ثم سأل أحدهم :

ـ هل وضعوك فى السجن ؟

فأجاب العباسي

ـ نعم ، لكنهم أخرجوني بسرعة ـ لحسن حظي ـ عندما لم يجدوا عندي دليلا لا صغيرا ولا كبيرا .

PDF Eraser Free

فقعب السائل الأول نفسه :

ـ حظك جميل يا أخي ... عندما لم يكتشفوا عندك دليلا ... أنت تعرف ماذا يفعلون بالمساجين ..

وما كاد هذا الأخير ينتهي من تعقيبه الذي لفظه بصوت منخفض ، حتى سأل الحلاق من جديد :

ـ ولكن ، قل لي يا العباسي ، هل وصلتك أخبار من أخيك البشير ؟

صمت العباسي فترة من الزمن ، عندما سمع هذا السؤال ... فكر بماذا يرد هل يقول نعم ؟ هل يقول لا ؟ ... حقيقة لقد جاءته بعض الأخبار مع بعض المهاجرين لكن هذا لا يهم ... ان البشير ليس له وجود ، الآن ، لقد ذهب ، لقد مات .

ـ « ان البشير الذي يعيش الآن ليس هو البشير الخاص بنا الذي نعرفه ... »

اذا فما يقول العباسي ؟ التفت الى السائل وقال له وهو ينظر اليه نظرات حادة معاتبة ، وذلك لأنه أعاد له ذكرى البشير :

ـ ومن أين يا أخي تأتيني هذه الأخبار ؟! ولماذا تأتيني ... أنا لا أملك أخا الآن ... انتهى كل شيء ... لقد حدثتك مرة فى هذا الأمر وأعلمتك بأنه لم يعد لي أخ ...

تكلم العباسي بانفعال ملحوظ فتضايق الحلاق ، ولم يعرف بماذا يهدن الأمر ... أما الرجلان الآخران ، فقد التزما

PDF Eraser Free

كذلك الصمت ... كل ما فعلوه ــ جميعا ــ هو أنهم راحوا يرتشفون القهوة من فناجينهم ... وينظرون الى جميع الجهات . انهم جميعا يدركون أن فجرا منيرا سيبزغ عليهم ، ويضيء لهم طريقهم ... انهم جميعا يعرفون هذا . لكن لا أحد منهم يستطيع التعبير عن هذا الشيء الذي يشعرون به وينتظرونه انهم يرونه. انهم يحسون به . لكنهم رغم كل ذلك لا يستطيعون اثباته بالألفاظ والتعابير ... فقد يمكن أن يكون الفجر مظلما ، وقد يكون احساسهم خاطئا ... أو قد يكون شعورهم منحرفا أو قد يكون الفجر بعيدا ...

تنحنح الحلاق قصدا ، ثم رمق العباسي بنظرة تساؤل وقال بصوت منخفض ــ هل سمعت عن ...

فقاطعه العباسي :

ــ سمعت كل شيء ... لا تتكلم . أنظر من يأتي ...

التفتوا جميعا الى مدخل المقهى وحينما رأوا فرقة من العساكر تدخل المقهى ، تقلصوا واضطربوا ، ثم التزموا الصمت التام ، وأخذت اللحظات تمر ثقيلة على الرجال ... وراحت خطوات العساكر المشدودة المضبوطة تبعث الرعب فى الحاضرين ... فالتمسوا جميعا الصبر والاحتمال ... ولم يعرفوا ماذا يفعلون . ان بقوا جلوسا ، فهم سيتعرضون للاستجوابات ، وربما الى شيء آخر أبعد ... مثل الاعتقال والضرب والغرامة المالية ... وان نهضوا وأرادوا الخروج ، فهم سيعرضون نفوسهم كذلك ، الى المتابعة ، وربما الى شيء آخر أدهى ...

PDF Eraser Free

تقدمت العساكر وتكلمت مع صاحب المقهى ... فأظهر هذا الأخير أوراقه ، أوراقه الخاصة، وأوراقه العامة .. وكانت النهاية سلامة ثم تقدمت العساكر الى الحاضرين الآخرين ووقع نفس الشيء ... وكان الجميع ، مصحوبين ببطاقات تعريفهم ، فلم يحدث شيء ...

أخذ العباسي يرنو بطرف عينه الى أحذية العساكر ... وقد تعجب وارتعد من صداها وقوتها وبطشها ...

— « ان هذه الأحذية لتشبه الصخور فى الصلابة . »

هكذا قال لنفسه ، عندما تذكر ذلك اليوم الذي أخذ فيه ركلة من أحد الجنود الذين جاؤا ليجروا التحقيق والبحث ، فى التهمة الموجهة اليه ... ثم بعد ذلك ، يخرجون من البيت ، ويضعونه تحت المراقبة ...

— « يا لهذه الأحذية ويا لقوتها ، ان الانسان ليرضى — لو كان له الخيار — أن يأخذ جلدة من الكراباج ، على جلده وهو عريان، ولا يأخذ ركلة من هذه الأحذية الملعونة . »

هكذا تكلم العباسي مع نفسه . وحينما جاء دوره ليرى أوراقه قال من جديد يتحدث مع نفسه :

— « لو أخذت برأي الطفل باديس ومكثت فى الدار ، لما تعرضت الآن لهذه المضايقات وهذه المتاعب . اذا كانت هذه هي السهرات فلا جعلها الله تدوم .

PDF Eraser Free

آه لو يتركوننا نخرج فقط ، ونعود الى بيوتنا . يقولون أن موعد حظر التجول هو كذا ثم يعملون برأي آخر »

أخذ عسكري بطاقة العباسي وراح يطالعها ، ومن حين الى آخر يلتفت الى العباسي ، ويرنو اليه بطرف عينه ... ويتصفح وجهه ، ويدرس أساريره . فلربما لا يستطيع أن يعرفه فى الصورة. ان الصورة قديمة أخذها العباسي منذ سنين عديدة لكن العسكري كان ذا نظرة عميقة ونافذة ومجربة . فأعاد البطاقة الى العباسي بعد أن تيقن من أنه هو صاحبها

أخذ العباسي البطاقة ووضعها فى جيبه وقال يحدث نفسه :

ــ « الآن ، وبعد هذا التفتيش ، هل يتركوننا بسلام ؟ ان جميع الحاضرين مصحوبون بأوراقهم ... فلا داع لاثارة دعاية جديدة . فليتركوننا الآن . »

عندما دارت جميع التحريات ، وتمت جميع الدراسات ، نظر أحد العساكر ــ وربما كان قائدهم ــ الى ساعته فى معصمه وقال مخاطبا الحاضرين :

ــ لم يبق لموعد حظر التجول الا ساعتين، فلماذا أنتم جالسون هنا ؟ ألا ترون أن الموعد قد حان ... أم تريدون أن تجبرونا على معاملتكم معاملة غير حسنة ؟

ثم التفت الى صاحب المقهى وقال :

ــ وأنت يا سيدي ، لماذا لم تغلق محلك ؟ ماذا تنتظر ؟

PDF Eraser Free

فتشجع صاحب المقهى وقال يدافع عن حقه :

ــ ولكن يا سيدي ... انه ما زالت لي ساعة أخرى ... ان لدي متسعا من الوقت . وحينما يحين الموعد ، سأغلق مقهايــا وأذهب

لم يستحسن القائد العسكري هذا الرد الجرىء الوقيح ، فرد هو كذلك :

ــ ماذا تقول يا سيدي ؟ هل تريد أن .... ؟ وماذا تقول لو آمرك أنا الآن ، أن تذهب فورا وتغلق محلك ، وتذهب ؟ ماذا تقول ؟ آه

صمت صاحب المقهى ، وراح يدرس الموقف . ينظر حينا الى القائد العسكري وحينا آخر الى زبائنه ... وفى الأخير قال موجها كلامه الى الأواخر :

ــ أيها الاخوة ، حان الوقت لتغلق المقهى أبوابها ... فتفضلوا بالخروج . ولا توقعونا فى ما لا تحمد عقباه ...

لفظ صاحب المقهى هذه العبارات بلهجة حزينة ومصبوغــة بصبغة تمردية فى نفس الوقت . ولو كان أشجع قليلا ، لأضاف الى آخر عباراته عبارات أخرى مثل هذه يشفي بها قلبه ونفسه :

ــ « ان هؤلاء الكلاب يزعجوننا كثيرا ، لعنة الله عليهــم أجمعين ... لو كان لدى رشاشا ، لأفرغته فيهم . »

PDF Eraser Free

لكن صاحب المقهى كان عاقلا ، فاحتمل الضيق ، ولم يظهر منه شيئا ، يزعج العساكر ويفهمهم أنه متضجر من تصرفهم معه .. وكان كل ما أظهره صاحب المقهى من ثورة ... هو الضغط على الفكين ، والزم على الشفتين ، والمسح على الشاربين ... ولم يفطن لهذه الحركات سوى اخوته ... فقد كانـوا ينتظرونهـا ويتوقعونها ... أما العساكر ، فقد اصطفوا بقرب الباب ، وبقوا ينتظرون متى تفرغ المقهى ... فتسلل الجميع ، وبعد لحظة أغلق صاحب المقهى محله ، وانصرف ...

أما العباسي فقد ودع رفاقه ورجع الى البيت ... :

ــ « ذهبت لأسهر ساعة أو ساعتين ، فاذا بي قد ذهبت لأزعج وأضايق ... يا لي من ... لماذا خرجت ؟ »

هكذا أخذ العباسي يقول لنفسه ، منذ اللحظة التي خرج فيها من المقهى الى اللحظة التي وصل فيها الى البيت ... عمل المفتاح فى فتحة الباب ، فانفتح هذا الأخير ... تمنى العباسي لو وجد جميع أهل البيت نياما ، غير مستيقظين ... :

ــ « فماذا يا ترى سيقولون لي عندما يروني قد عدت بسرعة ، بعد أن طلبت منهم أن لا ينتظروني ، لأني سأتأخر قليلا .. ؟ »

تقدم العباسي ودخل الغرفة ... وجد كل واحد من أفـراد الأسرة قد جلس أو رقد فى فراشه ... ذهبت من العباسي التفاتة الى زوجته هنية ... فوجدها جالسة ترقع ، ولا ترفع نظرها اليه ... لقد كانت تعرف أنه سيعود ... اقترب العباسي منها وسألها :

ــ هل نام الأطفـال ؟

PDF Eraser Free

فقالت :

ـ نعم ... لقد ناموا .

فسألها من جديد :

ـ وباديس ... هل نام كذلك ؟

فأجابت :

ـ أعتقد ذلك . لقد ذهب مع أمه ، وهو نائم الآن من غير شك ...

فعقب العباسي :

ـ حسنا اذا ...

ثم أردف :

ـ ولكن ماذا ترقعين أنت عند هذا المصباح المدخن ؟

لم تجب هنية فى الأول ... لكنها عندما عرفت أن زوجها ينتظر منها الجواب ولم يسألها دون هدف ... كما فكرت فى الأول ... قالت :

ـ انه فستان ربيعة . لقد تمزق وتآكل . انه قديم .

تعجب العباسي ، فسأل مستفسرا :

ـ وهل لا تملك سوى هذا الفستان البالي ؟!

PDF Eraser Free

فأكدت هنيــة :

ـ نعم ليس لديها آخر ... على الأقل أحسن من هذا .

لم يعرف العباسي أن سؤاله الأول سيوصله الى هذه الأسئلة المتشعبة . لكنه عندما عرف أنه وصل الى هذا الحد ، أراد أن يتمم الأسئلة ، ويستمع الى الأجوبة ... الى أن يكون على علم بكل شيء . فسأل :

ـ ولماذا لم تخبرني وتقول لي أنها لا تملك فستانا جيدا ؟

ـ لا أعلم ... انها تستحي منك ...

ـ ولكن لماذا لا تقولي أنت ؟! ان هذا تقصير عظيم منكما الاثناتين ... فماذا أفعل أنا هنا ، ان لم أستركما و ... يا للعيب ، يا للعـــار ...

ـ ولكن ، انك ترى ... انك تعلم كل شيء ... فلماذا تجبرنا على أن ننبهك الى ...

ـ أنا لا أرى شيئا ... أنا لا أستطيع أن أعرف ان كنتما فى حاجة الى فستان أو الى ... اني لا أعرف ... اذا كانت واحدة منكما تريد شيئا ، فعليها أن تصرح ...

ـ طيب ... طيب ، يا سيدي ... انك الآن تعرف كل شيء .

ـ والله ، ان هذا لتقصير عظيم منكما ... ولكن الآن وقد انتهى كل شيء ، لقد عرفت الحمد لله ... الحمد لله .

التزمت هنية جانب الصمت ، عندما رأت زوجها ، قد وصل

PDF Eraser Free

الى هذا الحد من التأثر . فراحت ترقع الثوب الموجود بين يديها دون محاولة رفع بصرها

أما العباسي فقد ذهب الى فراشه ، واضطجع ... وراح ينظر الى السقف ، ويتكلم مع نفسه :

ـ « يجب علي أن أقوم بواجباتي ... يجب علي أن أقوم بواجباتي دون تقصير . »

وبينما العباسي فى هذه الحالة من التأثر والتفكير والمحاسبة ، اذ بباب الغرفة ينفتح قليلا ، ويظهر منه خيال الطفل باديس ...

أخذ باديس يسير بخطوات بطيئة ، حذرة نحو فراش عمه .. وعندما وصل اليه ، ارتمى عليه ، ومسك باللحاف . انه مسرور .

فوجيء العباسي ، فانتبه . فاذا بباديس يمسكه من تلابيبه ويقول له :

ـ سأنام معك ... سأنام معك .

ـ هل ما تقوله صحيح ؟

فأجاب الطفل وقد ارتمى بجانب عمه :

ـ نعم ، نعم يا عمي .

فسأله العباسي من جديد :

ـ وهل كنت نائما ، عندما كنت أنا فى الخارج ؟

PDF Eraser Free

فأجاب الطفـــل :

ــ لا ، لم أكن نائما .... لقد كنت مستيقظا ، وقلت لنفسي ، لن أنام ، حتى يعود عمي ، وأنام معه ...

جذب العباسي الولد اليه ، واحتضنه ، وقال فى نفسه :

ــ الله يحفظك يا بني . الله يحفظك .

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصل التاســع

ــ « يا لهذا اليوم الملعون . »

هكذا قال البشير لنفسه ، وهو يطالع الجريدة فى غرفتــه الخاصة . لقد وجد صفحات الجريدة تبشر باستقلال الجزائر ، مبينة ذلك بخطوط عريضة وكبيرة . فهذا عنوان يقول : الجزائر تنال استقلالها ، وهذا عنوان آخر يقول : الشعب الجزائــري يتحصل على حريتــه .

يا للمفاجأة التي لم يكن ينتظرها ...

رمى البشير الجريدة بعيدا عنه ، فوق الطاولة ، ونهض يبحث عن شيء غير معروف . فتح الخزانة ، ثم أغلقها ... فتح كتابا ثم أغلقه ... لم يستطع أن يركز ذهنه على شيء معين ... اضطرب وتضايق .. شعر بنفسه مجنونا .. شارد اللب .. أحس بنفسه تافه القيمة .. ولا وزن لوجوده .. اقترب من المــرآة المعلقــة بالجدار ، فرأى وجهه منعكسا عليها ... فكاد لا يعرف نفسه ... قرب وجهه من المرآة كثيرا وتجنب النظر الى عينيه ... انه لا يريد ذلك ، لأن عينيه تفضحانه دون رفق أخذ مشطه وراح يسرح شعره ... ابتسم قليلا ، ليثبت لنفسه أنه ما زال راضيا

PDF Eraser Free

على ... لكن الابتسامة ذابت على شفتيه ، وتفسخت وتلاشت .. فترك المشط ، ورجع الى الكرسي .. جلس قليلا .. شعر ببعض الراحة وكأنه كان منهوكا ... أخرج بعض الأوراق وراح ينظر فيها ، ثم حينما لم يع منها شيئا ، أرجعها من حيث أخرجها ... ووضع رأسه بين راحتي يديه ... وبعد قليل استلذ هذا الوضع ... فهدأت نفسه قليلا ... لكنه لم يستطع التفكير بدقة ، وكل ما كان يقوله ويردده ، بينه وبين نفسه هو :

ـ « ماذا أفعل الآن ؟ ماذا أفعل ؟ سأصبح أضحوكة فى أعين الناس جميعا ... فبعد آن كنت محترما ، سأصبح محتقرا ، ذليلا ... يا لحظي السيء ، يا لحظي السيء » أ أستطيع آنا الآن أن أعيش كما كنت أود ؟ لا لا لقد ذهب كل شيء ... ان جميع ما كنت قد حسبته صحيحا ، كان خاطئا كيف أفعل كيف آفعل ؟

فجأة ، نهض البشير من وضعه هذا انه تذكر شيئا انه السبب الذي أوقعه فى هذه المحنة .. أخرج بسرعة دفترا كبيرا من درج الطاولة ، وفتحه دون نظام ... وقعت عيناه على صورة كبيرة لامرأة تبتسم امرأة مسرورة بوجودها راضية على نفسها ... نظر اليها مليا . تفرس صفحتها بدقة . أمعن فيها النظر ، كما لم يفعل فى السابق .. واكتشف من هذه الصورة ... التي رآها مئات المرات ، ان المرأة التي تتبتسم ، انما هي تضحك عليه ، وتسخر منه ... فها هي أسنانها تلمع ، وها هما شفتاها تشعان بهذه السخرية وها هما عيناها ترمقانه وتضحكان

PDF Eraser Free

عليه ، دون احتشام ... ها هي قهقهاتها ترتفع ، وتملأ أذنيه ... وها هي كركراتها تعلوا :

ــ « يا لي من مغفل ... يا لي من مغفل . »

هذا ما نطق به البشير قبل أن ينقض على الصورة ويمزقها على اثنين ... وعندما نظر الى القطعتين ، وجد العيون تغمز ، والشفاه تبتسم ، والسخرية تلوح . فاستشاط غضبا ، وراح يمزق الفم على مائة قطعة والعيون على مائة أخرى ، وينثر كل هذه الأجزاء في ركن الغرفة في سلة المهملات ... :

ــ « الآن وقد تخلصت من هذا ، اني انتقمت لنفسي منها ... لقد غدرت بي ... لكن الآن أخذت قصاصي منها . »

وعندما انتهى من هذا العمل ، راح يبحث عن ما تبقى له من أوراق أخرى ، تربطه بصاحبه هذه الصورة . وبعد دقيقتين كانت أمامه كومة من الأوراق الصغيرة :

ــ لو كنت أستطيع لما اكتفيت بهذا ... لو كنت أستطيع لهدمت هذا المعسكر ... وجعلته رمادا لو كان باستطاعتي لجعلت من هذه البلاد لهيبا من نار ، وأتلفتها من وجه البسيطة أيسخر الجميع مني ؟ أ أصبح أنا على هذه الصورة ؟ بعد كل ما قدمت من خدمات يجب علي أن أفعل هذا . يجب علي أن أفعله ، وبسرعة ، حتى لا أكون مثارا للأقوال والاشارات والاتهامات . أنا لن أسمح لأحد أن يشير الي بطرف أصبعه ، وينعتني بنعوت لا أرضى عليها . سأثار لنفسي من كل الذين تأمرهم نفوسهم بالقيام بما لا يسرني . سأحطم كل شيء ، وسأخرج الآن ... ولن أرضخ لأحد ... سأبقى كما كنت ، ان لم أكن أعظم ... لقد

PDF Eraser Free

اخترت طريقي ... ولن يعيدني منه أحد فى هذا الوجود . أنا أفعل ما أريـــد . »

دارت هذه الأفكار فى ذهن البشير ، بسرعة عجيبة . لكنه لم يقف على واحدة منها ، يحفظها ويطبقها ... وانما كان يفكر فى كل شيء دون عناية وتمعن . فقد قال من جديد حينما وقف عند النافذة ، وراح يسرح النظر فى الخارج :

ــ « سأخرج الآن كما لو لم يحدث شيء ... وسأتصـــل بالجنود وأسألهم ، حتى أعرف فى ماذا يفكـــرون . وكيـــف يتصورون الواقع ، وما حدث من جديد . على كل حال لاشك أنهم سوف لن يظهروا شعورهم الحقيقي ، وسيقولون كلمات لا أهمية لها ، لكن رغم كل ذلك فهذا يهمني ... سأعرف على الأقل هل تغيرت نظرتهم بالنسبة الي أم لا وهـــل سيذكرونني باسمي وشخصيتي ، أم يتناسون ذلك ويغمضون الطـــرف . سأذهب وأستطلع ذلك . »

وهكذا خرج البشير ، وما كادت نسمات الصباح المنعشة تمسح وجهه حتى شعر بلذة عجيبة تملكه ، وعرف أنه ما زال حيا وما زال يشعر ... فانبعثت فى نفسه ثقة كبيرة ، وقوة عظيمة . فرفع رأسه ، وراح يمشي بخطوات ثابتة ، رزينة ، متحدية ...

مر بقرب بعض العساكر الواقفين ، فأدى التحية اللازمة ، ولم يرتبك . وقصد نادي الضباط حيث يجتمع هناك علية القوم ، وأصحاب النياشين والأوسمة ... دخل كعادته :

PDF Eraser Free

ــ « لماذا أحس ، كأني أدخل لأول مرة هذه القاعة ؟ ألست أعرفها وأعرف روادها . »

بهذا العتاب بعث البشير الثقة فى نفسه ــ هذه الثقــة التي كادت أن تخذله ــ وجلس مع بعض الضباط ، وأدى التحية ، وطلب الفطور .

لم يقدر البشير على السؤال واثارة النبأ الذي هزه . فقــد عرف من وجوه الجالسين معه ، أن النبأ قد هزهم هم كذلك ، وأثر فيهم تأثيرا كبيرا . وقال البشير بينه وبين نفسه وكأنه يتلذذ هذا العذاب الذي يعاني منه الضباط :

ــ « أنا على الأقل لم أخسر شيئا . ان كنت فقدت شيئا ، فهو ما يمكن أن يفقده كل انسان يلعب الورق ... مرة يربح ومرة يخسر ... أما هؤلاء ، فقد خسروا كل شيء ولم يبق لهم شيء ... لاشك أنهم متضايقون من وجودي هنا معهم ... لأني أذكرهم بنكبتهم الفادحة ... ولاشك أن كل واحد منهم يقول فى نفسه : يا لهذا الديوث ... يرى لنا وجهه دون استحياء ، لقد باع نفسه وخان بلاده ، واليوم فقد كل شيء ، فلا بلاده تقبله ، ولا فرنسا ترضى به ... فماذا تفعل به ، وما الفائدة من أمثاله :

ــ بل انهم ربما يقولون أكثر من هذا ، وعلى كل سأنتظر ماذا يقولون ... لأنهم ولاشك سينفجرون ، ولن يقدروا على المكوث صامتين هكذا فستنصب الأسئلة والتعليقات من أفواههم دون مقــدار ... »

PDF Eraser Free

وبالفعل ، فقد نطق أحد الضباط ، وكان يجلس بجانب البشير ، لكنه جعل كلامه فى صيغة مختلطة بين السؤال والجواب ، وان كان يقصد السؤال :

ــ قرأت الجريدة وسمعت الأخبار ، لكني لا أصدق الحقيقة ، فهذه النهاية ، لم يكن أحد ينتظرها ... لقد سقطت همة فرنسا وتمرغ مجدها فى التراب ... كان من الواجب على فرنسا أن لا ترضخ

فعقب ضابط آخر بسرعة :

ــ يجب علينا أن نتعلم من جديد يا سيدي .

فرد عليه الأول :

ــ وماذا نتعلم ؟

ــ نتعلم سياسة جديدة ، سياسة لا تؤدي بنا الى ما وصلنا اليه الآن ... من خذلان وسقوط وانحدار ... ان كانت فرنسا قد أظهرت قوتها وعظمتها فى سابق السنين ، فاني أرى الآن ، أنها أصبحت تظهر الضعف والانصياع ... وهذا بالله يا اخوة دليل على الانحطاط ، فما رأيكم فى هذا ؟ أليس من واجبنا أن نطبق سياسة جديدة تتماشى وتقدم العصر ... أليس من واجبنا أن نأخذ الأمور بيد من حديد ، أمتن من هذه ... ؟

صمت الضابط عندما وصل الى هذا الحد ، لكنه عندما لم يرد عليه أحد تابع كلامه من جديد ، مبينا حججه :

PDF Eraser Free

ـــ لم تبق لفرنسا عظمة منذ الآن ... ان العمل الذي قامت به اتجاه الجزائر ، ليعد صبغة عار فى جبينها ... وسيعاتبنا أبناؤنا عليه العتاب الشديد . فماذا يا ترى ستفعل الجيوش ... وأين تذهب خيراتنا الموجودة فى الجزائر ؟ لقد تنازلنا على كل شيء دون مقابل ، وهذه عملية تجارية خاسرة ، لم أر مثلها فى العالم يجب علينا أن لا نرضى بما حدث ... وسأكون أنا أول المعارضين لهذه السياسة التخاذلية ... سأفعل المستحيل لكي لا تفقـد فرنسا الجزائر ؟ هل فكرتم فى هذه الأمور ؟ سيطرد الأهالي اخواننا الموجودين هناك ، ويغرقونهم فى البحر ... سوف يقولون لهم : عودوا الى فرنسا يا فرنسيين ... اذهبوا ولا تأخذوا شيئا معكم . انكم أصبحتم لا تملكون شيئا . كل أملاككم تحولت الينا ، وان لم تذهبوا ، سنرمي بكم فى البحر ... هل فكرتم أيها الاخوة فى مثل هذه الأشياء ؟

سكت الضابط مرة أخرى ليسمح للحاضرين معه بالمشاركة لكنه تعجب عندما لم يجرأ أحد على الرد ... فالتفت الى البشير ، ونظر اليه فترة من الزمن ليست بالطويلة ، ثم قال موجها له الخطاب بصفة خاصة ، وكأنه يتحدث اليه بمفرده :

ـــ وأنت يا جاك ماذا تقول فى هذه المسألة ؟ لاشك آن لديك رأيا ، وآتمنى آن يكون مشابها لرأيي ... فأنت تعرف الجزائر ، وتعرف فرنسا ... فما هو رأيك فى هذه السياسة التي اتهجتها بلادنا اتجاه الجزائر ؟ ألا ترى أننا أسقطنا بأنفسنا الى الحضيض ؟

ضغط البشير على مسندى الكرسي ، وشد على كفيه عندما

PDF Eraser Free

سمع هذا السؤال . فتصنع عدم العناية والاهتمام بهذا الأمر ، وقال مخلصا نفسه :

ـ ليس لدي رأي لحد الآن .

لكن السائل لم يرض بهذا الرد القصير ، فسأل من جديد :

ـ اذا لم يكن لديك رأي الى حد الآن ... فما هي وجهة نظرك بصفة حيادية ؟ فأجابه البشير دون تفكير :

ـ أنا متعجب التعجب الشديد من ما حدث ... لكن لا يهمني ما يحدث وما يقع .

وكأنما البشير قد أشعل النار ، بلفظه هذه الكلمات ، فقاطعه الضابط محتدا ، متعصبا :

ـ كيف ، لا يهمك الأمر يا سيدي ؟! ألا يهمك مجد فرنسا ، وكرامة جيوشها ، ألا يهمك مجد هذه البذلة التي ترتديها ، ؟ أم أنك ؟ ....

تراجع الضابط ، ولم يجرأ على شرح ما يريد ... وانما وقف وانسحب من مكانه .. وبعد ذلك لم يستطع البشير المكوث طويلا فى مكانه . فنهض وقال يحدث نفسه :

ـ « سأذهب الى فرانسواز . »

وكان عندها ، وكان الوقت مساء ...

راحت فرانسواز تكثر من الحركة داخل البيت ، فكأنها أصيبت بعاهة ما ... لم تجلس بجانبه ، ولم تحادثه بوضوح ...

PDF Eraser Free

تنظر اليه لحظة ، ثم تحول بصرها ، كأن شيئا ما قد لفت نظرها .. ثم تقوم ، فتمشي هنا وهناك ، دون أن تفعل شيئا ...

صبر البشير طويلا ، وحدث نفسه :

ـ « انها ستنتهي من أعمالها وتهدأ .. وهناك سنتكلم فى الأمر، ونناقشه . »

لكن فرانسواز قالت بعد أن ملكها التضايق :

ـ هل نخرج يا جاك ؟ ونتناول مشروبات فى الخارج ؟

لم يعارض البشير ، ووجد هذا العرض مناسبا ، فقال :

ـ اذا أردت ذلـك ....

وعندما كانا يسيران فى الشارع ، تحت أضواء الأعمـدة ، سأل البشير :

ـ لماذا لم أجد الولد فى البيت ؟ أين هو ؟

فردت فرانسواز دون أن تغير شيئا من نظرتها أو صوتهـا أو مشيتهـا :

ـ انه ليس هنا ، لقد أرسلته الى أقاربي فى الضواحي .

ثم أعقبت بصوت آخـر :

ـ هل اشتقت لـه ؟

PDF Eraser Free

فمطط البشير شفتيه وقـال :

ـ انه ولد ظريف ، وأنا أحبه كثيرا .

توقف البشير قليلا عن الكلام ، ثم تابع حديثه ، وقد أخذت نبضات فؤاد تشتـد :

ـ ما هو رأيك يا فرانسواز ، فى الأمر الذي حدث ، واهتز لـه العالـم ؟

قال البشير هذا ، وضبط على نفسه حتى لا يهتز صوته برنة ما ... أو يصطبغ وجهه بلون ما ... وقـد فهمت فرانسـواز السؤال الفهم الصحيح ... بل فقد كانت تنتظره ، بين حين وآخر فأجابت مستعينة بحركات من يديها :

ـ وماذا يهمني فى ما حدث ؟ ... اذا كان العالم قد اهتز ، فأنا لم أهتز بعد لقد كنت أتوقع هذا الشيء منذ زمن طويل ... فكيف أفاجأ به الآن وأتعجب ؟! هذا أمر معروف يا جاك ... أتركنا منه من فضلك

لمعت فى ذهن البشير فكرة لم يطمئن اليها ، فقال :

ـ « هل تقول فرانسواز الحقيقة ، أم أنها تريـد مـواراة شعورها أعتقد أنها تعرفني أكثر مما كنت أظن ... اذا كانت لا تود الكلام فى هذا الأمر ، فهي لاشك تريد تـرك الأمـر مستورا ... حتى أفطن . انها تعرف كل شيء عني . لقد فقدت زوجها فى الجزائر ، فهي نتيجة لهذا تهتم كثيرا بما يقع فى الجزائر

PDF Eraser Free

... وان كانت الآن تظهر عدم اهتمامها ... فانها تفعل ذلك لكي لا تطلعني على شيء تخفيه فى صدرها »

صمت البشير بعد رد فرانسواز ، لكن حينما طال الصمت بينهما ، تضايق البشير ، وأحب أن يتكلم ويتكلم ، ولا يقف عن الكلام .. فقال :

ــ ان معظم الضباط الذين أعرفهم غير راضين عن سياسة فرنسا ... وهم ينوون القيام بثورة لمعارضة هذه السياسة ... لقد غاظهم أن تنهزم فرنسا ، وهي قوية ، من طرف شرذمة أشخاص ... والحقيقة أن لهؤلاء الضباط الحق . ان ما يقولونه صحيح . اذا كانت فرنسا تخضع لمثل هذه الثورات ، فأين هو المجد والخلود وأين هي السيادة والعظمة ؟

لم تجب فرانسواز ، وجعلت نفسها كأنها لا تعير اهتماما لمثل هذا الكلام . ففهم البشير ذلك ، ولاذ بالصمت ، وراح يتفرج فى وجه صاحبته ، كأنه يراها لأول مرة ... فهذا الشعر ، كأنه لم يعرفه ولم يلمسه ... وهذه الشفاه الطرية الملساء الحمراء ، كأنه لم يعرف سحرها ... فقال لنفسه متعجبا :

ــ « أنا لم أكتشف الى حد الآن فرانسواز ، فرانسواز الحقيقة . كنت أعرف امرأة أخرى ، والآن لقد فهمت كل شيء ».

ثم لمس كتف فرانسواز بحنان ، وقال لها ، وقد نسي أنهما خرجا ليشربا شيئا :

ــ هلا نعود الى البيت ؟ اني أشعر بضيق شديد فى هذا الجو ، والبيت بالنسبة لي أهدأ

PDF Eraser Free

فوافقت فرانسواز ورجعا متماسكي اليدين ، ملتصقي الكتفين .

ولكن وبمرور الأيام ، أخذ البشير يبتعد نسبيا عن فرانسواز دون أن يعرف السبب ... فهو لا يحمل لها أي ضغينة ، بل بالعكس انه يحترمها ويقدرها ... لكن الفراق أخذ يقع ، وأصبح البشير وحيدا ، تنتابه الأفكار العميقة ، والهواجس العديدة ، ولم يعد يتبين أثناء هذه الفترة المضطربة هل هو سليم الفكر أم لا ... والتجأ أثناء هذه الأيام الى المطالعة والقراءة ، فأخذ يطيل المكوث أمام الكتب ، ويتصيد الجرائد والمجلات ... ووجد أنه يحس بالراحة عندما يطالع شيئا على الجزائر ... فكان يعيد مرات عديدة قراءة النصوص والفقرات التي تتحدث عن الجزائر ... تاريخيا ، واجتماعيا واقتصاديا ، وثقافيا ... وهكذا ومع مرور الأيام أحس أنه أصبح يعرف عن الجزائر أشياء كثيرة ، هامة وجليلة ، كان يجهلها فى السابق ... حقيقة ، ان بعض الكتب التي قرأها ـ موضوعة من طرف فرنسيين ـ كانت تثير فى نفسه ، الغضب ... وكان يلمس التعصب وعدم النزاهة . لكن ذلك لم يكن ليجعله ينكر ما يقرأ .... لكن البشير لم يدرك ما كان ينتظره ، وكأن المجهود الذي بذله فى المطالعة والقراءة قد جلب له الداء ... فراحت صحته تنهار ، وأخذ يضمحل ويذبل ، وكأنه وردة اقتطعت من فرعها ... فبرزت نتوءات وجهه ، واصطبغ محياه ، بمسحة تدل على العياء ، والعناء ... ثم أخذت تنصب عليه موجات من الحمى .. تأتيه

PDF Eraser Free

لحظة ، فتعصره . ثم تتركه لحظة ، لتعود له مرة ثانية ، فتمتص كل قطرة فيه ... وتجعله أصفر اللون ... وقد ازداد الداء على البشير عندما أخذ يسعل ... وتنتابه موجات من السعال الشديد تتركه يبصق الدم ... وقد سأل كثيرا عن سبب هذا الداء ، والتجأ لعدد كبير من الأطباء ، وقد كان جوابهم جميعا واحدا ... لكن البشير لم يكن يريد التصديق :

ــ « هذا مستحيل ... كيف ؟ كيف أصاب بهذا المرض اللعين ! »

وفى الأخير لم يكن من البشير الا أن يتقبل الرأي الذي اتفق عليه الأطباء ، ويكرر معهم الكلمة اللعينة ... السل ... السل .

ولم يكن من البشير الا أن يذهب الى المستشفى . وهناك ، فى تلك البناية البيضاء ، النظيفة ، مكث مع مرضى آخرين ، يجتر آلامه ، ويقول لنفسه :

ــ « أنظر ماذا وقع بك يا البشير ، انك لم تكن تنتظر ، وتتوقع هذا ... آه ، فاصمت الآن ولا تحاول الكلام .. ان مجرد وجودك هنا ، دليل على غباوتك وتفاهتك . ولكن انك محظوظ ، اذ أنك الوحيد الذي يعرف أنك موجود هنا ، نعم ان حظك لجميل ، انك وحيد ... »

أخذت الساعات والأيام تمر تباعا ، دون تغيير على البشير ... فهو منذ دخل المستشفى ، أصبح صموتا ، وحيدا ... يلتهم الكتب التهاما ، ويصبر الصبر الشديد ، منفذا أوامر وتوصيات الأطباء ، والممرضات .

وأثناء هذه الفترة ، تذكر البشير جميع الأشخاص الذين

PDF Eraser Free

عرفهم ... وتذكر جميع الدقائق ، التي كان لها تأثير على مجرى حياته ... وقد كان يحبذ الرجوع الى تلك الذكريات ، والى ذلك الماضي ... فكان يرى نفسه ، كذلك الذي وجد نفسه قد خرج عن طريقه صدفة ، وأراد أن يعود الى طريقه ، فلم تسعفه حيلته . فأخذ يعيش مع ماضيه ، ويتأسف على حاضره ... لكنه رغم كل ذلك ، كان يحبذ تلك البرهات وتلك الفترات التي كانت تجدد عليه حياته ... تلك الفترات التي كان يأتي فيها أصدقاؤه وزملاؤه ... فيأتونه محملين بالهدايا ، ومشبعين بالكلام والنكت والضحك محاولين بكل الوسائل بعث جو المرح والمودة فيه وفى الوسط الذي يعيش فيه ...

نعم ، كان يحبذ تلك الفترات ، لأنها كانت تبعث فيه القوة ، وتنبهه الى أنه ما زال يعيش ، وما زال له أصدقاء وأحباب ، يسألون عنه ويأملون شفاءه ... ولا يهم البشير ان كان هؤلاء الأشخاص ، يمتون له بقرابة أم لا ... انهم أشخاص يحبونه ، ويقاسمونه الشعور ... محاولين التخفيف عنه ...

أما أولئك الناس الذين يمتون له بقرابة ، فانهم بعيدون عنه . لا يطمع فى عيادتهم له أو زيارتهم له ... انهم فى بلاد أخرى ، لا يعرفون عنه شيئا ، كأنهم قد استغنوا عنه وأهملوا شأنه ... فالبشير بالنسبة لهم ، لا شيء . كان مجرد طيف عاش معهم فترة من الزمن ، ثم ذهب ... فلا رجوع له .. ولا آمل فى عودته ..

فمن هو البشير بالنسبة للعباسي ؟ انه مجرد طفل كبير ... فتى عاق ... لا أمل فى صلاحه . ترك بيته وأهله ، وجرى وراء

PDF Eraser Free

المجد ، ضاربا بشرفه عرض الحائط ، وربما سيكون جـواب العباسي لأي واحد يسأله عن مصير أخيه هو :

ــ « ماذا تريد أن أقول لك ... ان كان الاخوة على شاكلة البشير ، فلا رزقنا الله بالاخوة ... .انهم لا يعملون شيئا ، غير جلب العار ... ماذا تقول فى انسان يسامح فى بيته ، ويتنصر ، تاركا ملته دون خشية من الله أو من العباد ... من فضلك ، لا تحدثني مرة أخرى على البشير ... »

ومن هو البشير بالنسبة لربيعة ؟ انه مجرد انسان فاقد العقل ، ليس له شعور بالمسؤولية .. تذروه الرياح حيثما أرادت ، انه مجرد كائن ضعيف الشخصية منحط الادراك ، لا يستطيع مواجهة الظروف ، والصمود أمام صروف الدهر . انه كائن تافه ، مفقود ، يتطلب مرشدا وهاديا

سوف لن تكون ربيعة خاطئة ، اذا قالت هذا الكلام ... بل انها ستكون عاقلة وكريمة ... نعم ستكون رفيقة ورحيمة اذا قالت هذا فقط ...

ومن هو البشير بالنسبة للطفل باديس ؟ انه لا شيء .

تألم البشير من الوضع الذي يعيش فيه ، وتألم من غربتـه الطويلة ... انه لم يكن يتصور الأمر هكذا كان يراه شيئا آخر ... وهو يعرف الآن أنه كان مخطئا وان وجوده الآن فى المستشفى ، هو العقاب الأول على عصيانه وانحرافه ... وستواجهه مصائب أخرى أقسى وأمر

PDF Eraser Free

ـ « كيف ستفعل يا البشير لتنال العفو ، وتعود كما كنت ؟ كيف ستفعل يا البشير ؟ ومن سيعينك ويساعدك ، ليجعلك تعود الى بلادك وأهلك ، وتطلب منهم العفو والرحمة ... من سيساعدك في هذه البلاد العاهرة التي أغوتك برهة من الزمن وخلقت في ذهنك صورا خاطئة ... أوصلتك الى الهلاك ؟ انك منبوذ من أهاليك ومن مجتمع هذا البلد ... انك لا شيء ... »

أخذ البشير يفكر ، ويفكر محاولا ايجاد منفذ يخرجه من المأزق الذي وقع فيه فأخذ يتذكر جميع الناس الذين عرفهم وخالطهم ... وكانت فرانسواز هي أول شخص تذكره ... لكنه لم يقف عندها ... وأهمل شأنها . لقد قال :

ـ « ان فرانسواز امرأة ... سأسبب لها كثيرا من المتاعب ، فلأتركها هي ... وأحاول ايجاد شخص آخر . »

لكن البشير عندما استعرض جميع معارفه ، لم يجد أحدا يثق فيه ... ويعول عليه ... وأخذت فرانسواز تمر على ذهنه ، صافية جلية ، كأنها صورة ملاك منقذ ... نعم انها الشخص الوحيد الذي يفهم البشير ، ويستطيع امداده بالعون والمساعدة ... انها الكائن الوحيد ، في فرنسا ، الذي يكون على استعداد لبذل الجهود تلو الجهود للوصول الى ارضاء البشير ...

ـ « حقيقة ان فرانسواز ، هي الملاذ الوحيد ... لكن كيف سأصارحها ... انها لا تعرف هويتي ... انها تظن أنني من مواطني بلادها ... لقد أوهمتها أنني أدعى جاك ... وأخفيت عليها أصلي

PDF Eraser Free

وملتي ... ان فرانسواز لا تصلح لحل مشكلتي ... انني لا أريد مناقشتها فى أمر اخفائي لاسمي الحقيقي ... فلأتركها ... »

وجد البشير نفسه غير مستعد لمواجهة فرانسواز ... فلم يرد استدعاءها لتقوم ببعض المهام لصالحه ... ان فرانسواز سيدة نبيلة ، مثقفة ، صارمة ، لا يستطيع مواجهتها

وبقى البشير صابرا ، شاعرا أنه لن يشفى اذا ما بقى فى هذا المستشفى ، وفى هذه البلاد ... حاسا ، أنه لن يطرأ عليه أي تطور ، اذا ما بقي هنا ...

لكن ، وفى ذات يوم عاصف ، ممطر .. جاءت فرانسواز ... وقامت بزيارة البشير ... لم يكن البشير ينتظر قدومها ... بل انه لم يكن يتصور رؤيتها مرة أخرى فكيف بها تأتي بارادتها ، فى مثل هذا اليوم ، طالبة رؤيته ... راجية مقابلته ... ان هذا شيء لا يصدق ... ألم يهجرا بعضهما . ؟!

شعر البشير أنه كان مخطئا ... انها لم تهجره . لكنه هو الذي هجرها ، وحبذ عدم رؤيتها ... انها ما زالت مخلصة معه . وهذا هو الدليل على اخلاصها ... لقد أخطأ البشير حينما لم يبرق لها ويعلمها أنه دخل المستشفى ، بعد أن شعر بداء السل ينخره ... بقي البشير برهة من الزمن صامتا ، غير قادر على الادلاء برأي ... أيتركها تدخل أم لا ... واستمرت الممرضة واقفة عند الباب ، تنتظر الرد لكنها عندما لاحظت أن البشير سيستمر طويلا فى السكوت ، سألت من جديد :

ــ هل تسمح يا سيدي ، للسيدة بالدخول ؟

PDF Eraser Free

نعم . لماذا لا يتركها تدخل ؟ أيخشى منها ؟ فى الحقيقة انها الفرصة السانحة للتفاهم والمناقشة سوف لن يجد الاثنان فرصة أخرى ملائمة مثل هذه ... لقد جاءت اللحظة المناسبة لحل الرموز ، ووضع النقط على الحروف ، فى هذه اللحظة سيعرف كل واحد ما كان يخفيه الطرف الآخر عنه ...

وما أن مرت لحظة ، حتى دخلت فرانسواز الغرفة ... .لم يرد البشير أن ينظر الى عيونها ... انه يخشى منها . نعم انه يخشى منها ... انها أعظم وأسمى منه ، فها هي الآن تقف فى الجانب القوي ... وها هو يقف فى الجانب الضعيف . ها هي تقف أمامه مرفوعة الرأس ، وقورة حازمة ... وها هو يرقد أمامها مطأطأ الهامة ، منحطا ذليلا ... ها هي فرانسواز تقوم بالمبادرة ، تقطع المسافات وتواجه العواصف ، ولا تخشى أو ترتبك فتقف أمامه . وها هو البشير ، لا يقوم بأي شيء ... انه قعيد الفراش ، واهن القــوى

أخذت فرانسواز تتقدم بخطوات بطيئة نحو فراش البشير ... دون محاولة تغيير وجهة نظرها ، الى وجهة أخرى غير البشير ... وبكل هدوء أخذت كرسيا وجلست بقربه ثم قالت بكل لطف ورقــــة :

ــ صباح الخير يا جاك .... كيف حالك ؟ هل أنت بخير ؟ .

التفت البشير اليها واصطنع ابتسامة وقال :

ــ صباح الخير ... اني بخير .

PDF Eraser Free

قال اني بخير ، وكأنه يود أن يقول لها :

ـ « ولماذا لا أكون بخير ؟ انه باستطاعتي أن أكون حسبما أريد. فأنا لا أطلب من أي أحد العون والشفقة ... خاصة منك أنت يا فرانسواز . اني دائما أقوى وأعظم منك ... وان كنت اليوم قعيد الفراش ، فان هذا سوف لن يطول كثيرا . »

تشجعت فرانسواز ، فدنت من البشير أكثر من السابق ، ولمست يده ثم قبضت عليها ... ولم ترد تركها ... أحس البشير بالدفء ينساب من كفه ، ويسرى فى جسمه ، فاستلذ الوضع قليلا ، لكنه توقع عتابا من فرانسواز ... عتابا حارا منها ، لأنه أهملها ، ولم يعلمها بحاله ، أو يسأل عنها ... فجاءت بمفردها ، وبوسائلها الخاصة ... ان لها الحق فى أن تعاتبه ، وهو مخطيء اذا بقي الآن يمسك يدها ، ويستلذ اللمس ... فجذب يده ، وتقلصت عضلاته ، وسأل :

ـ كيف عرفت أني هنا ؟ هل دلك أحد على المكان ؟

شعرت فرانسواز أن البشير يهاجمها ... ولا يسألها . فارتدت قليلا الى الوراء كأنها أصيبت بلكمة شديدة على وجهها ، ورفعت أحد حاجبيها ، وقالت متحدية :

ـ لقد عرفت أنك هنا ، ولم يدلني أحد على المكان

لم يستطع أن يرد عليها ، أو يحاول سؤالها من جديد ... انه يعلم أنه بقدرتها أن تكشف مكانه بسهولة ... انتهزت

PDF Eraser Free

الفرصة وراحت تشرح كل شيء ، وكأنها هي واضعة ومسطرة ذلك الشيء . :

ـ لا تخف علي شيئا يا جاك ... اني أعرف كل شيء ، اذا كنت تظن أن وجودك فى هذا البيت يخفى علي ، فأعلمك أنك مخطىء ... بل لقد عرفت أنك ستأتي الى هذا المكان قبل أن تفكر أنت ، أو تحاول المجيء اليه ... نعم ... لقد كنت أنتظر مجيئك الى هذا المكان منذ مدة طويلة ... لقد كنت أعرف أنك مريض بداء السل ... ربما انك لا تصدق هذا ، لكن هذه هي الحقيقة ، وهو أمر سهل بالنسبة الي ، لأني درست العلــوم ، وأعرف أعراض هذا المرض ... واذا أردت أن تعرف ، لماذا كتمت عليك النبأ ، فأعلمك أنني أحبك كثيرا ... نعم ، اني أحبك كثيرا ... لكني كنت أقوم بتجربة معك ، وبتجربة مع نفسي ، فى نفس الوقت ... كنت أريد أن أجرب كيف يعمى العاشق ، ويتيه فى حب عشيقته ، وهو لا يعرف أن هذه الأخيرة ، تستلذ عذابه ، وتعيش على آلامه ... اذا كان هو يذبل ويضمحل ، فهي تنتعش وتقوى . ومن هذا التناقض يعيش حبها ، ويزدهر غرامها ... هكذا يا جاك ... هذا هو حبي ... واذا كنت تريد أن تعرف لماذا أقول لك الآن هذا ، فاني أعلمك أنني قد رجعت وجئت لأطلب منك السماح ... اني جئت لأركع أمامك وأطلب منك الغفران ... لقد تركتك تتعذب كثيرا ، الى أن وصلت الى حافة القبر ... حبيبي جاك ... اني حبيبتك فرانسواز ، اني جئت أطلب منك هذا العفو وهذا السماح ... لقد جعلك الحظ فى طريقي ، أو بالأصح لقد جعلنا الحظ نلتقي ، ولسنا الاثنان مسؤولين على ذلك ...

PDF Eraser Free

لقد جعلنا القدر نلتقي صدفة ، ونتعارف ونتحاب ... انه لا دخل لنا في ما وقع ، وفي ما حدث ...

ارتمت فرانسواز على البشير وهو في سريره ، وراحت كالبلهاء ، توزع القبلات ، على وجهه ، وعلى يديه ، وعلى كل جزء من جسمه ... لم تفكر في شيء ... راحت تفعل هذا ، وكأنها أما أعيد لها ابنها ، بعد أن تيقنت من أنه فارق الحياة ... راحت تحتضن البشير ، ولا تريد الانفكاك منه ... من يراهما كان يقول أنهما انسان واحد تجزأ الى جزئين ...

احتمل البشير عناق فرانسواز برهة ، لكنه اضطرب في الأخير، وتضايق ، فقال يحدث نفسه :

ــ « انها ليست في حالتها الطبيعية ... يجب ايقافها عند حدها . ما معنى هذا الكلام وما معنى هذا العناق ؟ انها تبكي ! يجب وضع حد لهذا . »

فجمع قواه ومسك فرانسواز من ذراعيها ، ودفعها بعيدا عنه ، وأدار وجهه عنها ... كأنه يستنكر منها هذا العمل ، ويعاتبها على تصرفها . فرجعت فرانسواز قليلا الى الوراء ، وأصلحت شأن شعرها ، وكذلك ثيابها ... ومسحت جبينها براحة يدها ، وصمتت قليلا ، ثم قالت وكأنها قد نسيت في لحظة ما كانت قد أقدمت عليه . ان ما حدث لا يهمها سوى هي :

ــ ان الساعة الآن تقترب من الوعد ، فأرجوا منك أن تستمع الي وتفهمني ... واذا ما آلمك الكلام الذي سأقوله ، فأرجو

PDF Eraser Free

منك المعذرة ... اني أعرفك وأعرف صبرك ، وصرامتك ، لهذا لا أريد أن يستمر أحدنا عائشا مع الآخر ، ساترا عليـه حياتـه ، وأحواله ... حبيبي جاك ... اني قدمت اليك فى هذا الظرف ، لأطلب منك باسمي وباسم ابني ، أن تقبل ... فترضاني زوجة لك ... نعم يا جاك ... اننا الاثنان نأمل أن تقبل ، فتعيش معنا ، وترجع فتعود لنبني حياة كلها سعادة وكلها هناء ... انك ستشفى يا جاك ... نعم ، انك ستشفى ، لقد أكد لي الأطباء ذلك ... ثم سأشرف أنا على صحتك ، وسوف تجد معي راحتك بسرعة . انه لا تنقصك سوى الراحة ، وسأوفر أنا لك كل هذه الظروف وهذه الشروط ... جاك ، أرجو منك أن تتكلم . اني أنتظـر منـك الجـواب .

أزاح البشير ببصره ، بعيدا عن فرانسواز :

ـ « ما هذا الكلام الذي تهذر به ؟! هل فقدت رشدها ، أم هل أنها تسخر مني وتريد تحريك شعوري ، ثم التلاعب به حسب ارادتها ؟ كيف يحصل هذا ؟ انها بعيدة عن الجدية ، وعن المنطق ... لماذا لم تصارحني فى السابق بمثل هذه الوعود ؟ لماذا ؟ انها تريد التسلية ، لقد وجدتني قعيد الفراش ، وسجينه ، فأرادت أن تخفف عني قليلا ... لكنها لم تجد وسيلة غير هذه ، التلاعب بالألفاظ والاحساسات ، والتغرية بالوعود ... ولكن هل تحسبني انسانا مسكينا ، حتى تمثل معي هذا الـدور ؟ هـل تحسبني انسانا ضعيفا ، ضائعا ، تريد أن ترجعني الى الواقع وتبعث فى الشعور بالحياة ؟ والغرام بها ؟ ... انها بعيدة عن الجدية وبعيدة عن الحقيقة انها تخرف ... »

PDF Eraser Free

لم تعرف فرانسواز ، عندما رأت البشير صامتا ، لا تختلج عضلة من وجهه ، أتكمل الحديث ، أم لا ... أتستمر ، فتشرح خطتها ، وتبين أهدافها ، أم تتوقف ، ولا تزيد كلمة ولم يعرف البشير كذلك هل ستستمر فرانسواز فى الحديث أم لا وبقي ينتظر ... على كل لتتكلم ... فهو لن يتأثر بما ستقوله ... لتفرغ ما فى جعبتها ، ولينتهي الأمر وبالفعل راحت فرانسواز فى أمل أخير ، تكمل ما بقي لديها ... وراحت تتكلم دون نظام ودون ترو وامعان ... :

ـ هل لا تتكلم يا جاك ؟ هل تتنكر لي الآن ، ولا تعود تشعر بوجودي ؟ على كل انك محق فى ما تعمل ... نعم ... ان تصرفك مقبول .. انك تتبع المنهج السليم .. لكن ، لكن .. لا تحسب نفسك فى نجاة مني ... اني ما زلت لم أقل لك كل شيء ... اني ما زلت أحتفظ بأشياء أخرى عنك ، تهمك جدا ... فلربما قلت خلاص الآن لقد تخلصت من هذه السيدة العنيدة ، وانتهى كل شيء ... ألا فاعلم ، يا جاك ان المسألة ما زالت لم تنته بعد ... لقد كنت أعرف أنك مصاب بالسل ... وأنا أعرف كذلك أنك لا تدعى جاك وانما تدعى البشير ، وأنك لست فرنسيا ، وانما جزائريا ... هل اعتقدت أن هذا سيخفى علي ؟ انك أبله اذا كنت تعتقد هذا ... نعم انك أبله اذا اعتقدت ذلك ... ثم بالاضافة الى كل ذلك ... بالاضافة الى سيماتك الفيزيائية ، وسلوكك الخاص ، اني رأيت أوراقك ، واطلعت على جميع ما كنت تحاول اخفاءه علي ... لقد قمت بتحريات حول تأريخ حياتك ، وحول وجودك هنا فى فرنسا ، وحول كل شيء ... هل كنت تعتقد أنني لم أفعل كل هذا ؟

PDF Eraser Free

كيف يمكن لامرأة مثلي ، أحبت رجلا مثلك أن لا تحـاول الاطلاع على حياة حبيبها .؟ وهل تتذكر تلك التنزهات التي كنا نقوم بها ، فى مختلف أنحاء باريس ، وخاصة تلك التنزهات فى الأحياء الفقيرة ، حيث يعيش المهاجرون ؟ هل عرفت الآن ، لماذا كنت أصر ، وأطلب منك أن تصاحبني ، فنذهب ونتجول فى تلك الأحياء ؟ انني كنت أحاول معرفة شعورك ، وتصرفاتك ، حينما ترى اخوانك ، المساكين ، يعملون ويكدون ... فى ظروف صعبة تبعث على الرحمة والشفقة ، وأعلمك الآن أن تصرفاتك فى تلك اللحظات ، كانت وفق ما كنت أعتقد ، وأتوقع ... نعم ، لقد كانت حسب ما خمنت . وفى الحقيقة ، انه لم يكن فى استطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك بل ، انه ليس من طاقة البشر ... ان ذلك الموقف كان فوق احتمالات الانسان . وأنا لا أتهمك ... ولا أوجه لك لوما . بل اني أتعجب من صمودك وصبرك ... جاك ، بل البشير ــ اذا سمحت لي أن أدعوك باسمك الحقيقي ــ أرجو منك أن تجاوبني هل ترضى بي زوجة ... أم لا ؟ .

صرخ البشير بكل ما يملك من قوة :

ــ لا ... ثم لا

صمدت فرانسواز عند هذا الرد العنيف ، ولم تحاول اظهار تأثرها . بل حاولت الابتسام وقالت :

ــ اني لا أرغمك على القبول ... فأنت حر ... لكن ، أنـا ما زلت مرتبطة معك ، وأنا ما زلت فرانسواز التي تعرفها ، واني فى خدمتك ... وسأحاول تنفيذ جميع طلباتـك ... اني علـى

PDF Eraser Free

استعداد للقيام بالأعمال التي تطلبها . نعم اني على استعداد تام ... فأنا أعرف أنك الآن فى حاجة ماسة الى وجود صديق أو صديقة ، يحاول مساعدتك وتقديم بعض الخدمات لك أنا أعرف أنك تريد أن تخرج من هذا المستشفى وتعود الى بلادك ... نعم أنا أعرف ذلك . وكيف لا أعرفه وأنا نفسي الذي نميت فيك حب الوطن ، وحب الأهل ... حينما قدمت لك الكتب ، ورجوت منك أن تطالعها ... وأنا أعرف أن تلك الكتب تبحث فى تاريخ بلادك ، وتناقش مختلف النواحي التي تهمك وتهم بلادك ... وفى الحقيقة أنا لست نادمة الآن على ما فعلت ... بل أنا مسرورة جدا ... وثق فى كلامي نعم أنا مسرورة جدا ... مسرورة بكونك عدت الى صوابك ، وفطنت الى أن التنكر للأصل ومحاولة التزين بصفات الناس الآخرين ، لا تفيد ... انك البشير وستبقى الى الأبد البشير ... فلن يفيدك جاك ، ولن تفيدك فرنسا ... ان بلادك هي الجزائر ، والجزائر هي التي تفيدك ، كما أنك سوف لن تفيد فرنسا ، وانما تفيد الجزائر ... هذا هو الكلام الذي وددت أن أقوله لك يا البشير ... هذا هو الحمل الذي كنت أحمله على كتفي ... وأحتفظ به لنفسي ... لكن الآن وقد حان الأوان ، اني أنزع هذا العبء عن كتفي وأتخلص من هذه الارتباطات ...

ساد الصمت بين الاثنين ، وراحا يتبادلان النظرات ، نظرات عميقة ، مليئة بالاعجاب ، والشكر ... مليئة بالاحسان والرحمة

لكن البشير لم يستطع الصمود طويلا أمام نظرات فرانسواز ، فأخفض بصره ، وقال رغما عنه :

PDF Eraser Free

ـ تقدمي الي من فضلك يا فرانسواز ... اني أود تقبيلك .

فتقدمت فرانسواز نحوه ، وتلقت منه قبلة على الجبين . ثم تابع البشير كلامـــه :

ـ انك بالنسبة لي يا فرانسواز ، نعم الأم ونعم الأخت ... ونعم الصديقة ... كما كنت نعم الحبيبة . وأنا أشكرك من صميم فؤادي على الجميل الذي قمت به معي ... لقد كنت أنت ملجئي الوحيد فى هذا العالم الفسيح ، فى هذا العالم الغامض المضطرب ... نعم ، لقد كنت بالنسبة الي كل شيء فى هذه الحياة ... ولو لم أجدك لذهبت ضحية زماني ، ولتهت ، ولم أفطن الى نفسي وأعود فأصمد ، وأجابه الحياة ، كما يجابهها الرجال ...

ابتسمت فرانسواز ، وقالت :

ـ يجب أن أقول لك أيضا يا البشير ، أنني فى الأول لم أكن أصدق ، ولم أكن أعرف ، أن الجزائريين هم على هذه الدرجة من النبل والشهامة التي أظهرتها أنت لي ... لقد كنت أعتقد حسب ما سمعت وحسب ما قرأت أنكم أنتم معشر الجزائريين عبارة عن أناس سفاكين للدماء ، متوحشين ، لا تملكون ذرة من الحب والود لقد كانت جميع تلك الأوصاف ، مخطئة ومغرضة ، وأنا أعرف الآن مصدرها وهدفها وسأكون ضدها دائما ... وسامحني ان كنت أتهمتك فى الأول ... ووصفتك ببعض الصفات

فابتسم البشير ، وبادلته هي الابتسامة ... وقال :

ـ فى الحقيقة ، انك لم تكوني مخطئة أو جانية ، وانما يرجع

PDF Eraser Free

كل شيء الى الاستعمار والى الأوغاد الذين لا يحملون أن يعيش معهم على هذه البسيطة ، أناس آخرون .

نظرت فرانسواز الى الساعة المثبتة فى معصمها ، وقالت :

ــ لقد حان موعد الذهاب يا البشير ، فاطلب ماذا تريد .

فكر البشير قليلا ، ثم قال :

ــ أرجو منك يا فرانسواز ، أن تساعديني لأكون الأوراق الضرورية التي أستطيع بواسطتها أن أعود الى أرضي ، والى أهلي . فأنت ترين أني لا أستطيع احضارها ، وأنا راقد ، ومسجون فى هذا المستشفى .

فأجابت فرانسواز :

ــ سأعمل على احضارها

وتهيأت للخروج ... لكن البشير بادرها بهذا السؤال :

ــ ولكن يا فرانسواز ، اني أريد أن أعرف شيئا يتعلق بزوجك ... المتوفى ، فهل مات حقيقة فى الجزائر ، وهل قتله الجزائريون ؟

التفتت فرانسواز برأسها وصمتت قليلا ، كأنها تعترف بأهمية هذا السؤال ، ثم رجعت الى جانب البشير ، وقالت :

ــ نعم يا البشير ، لقد لقي حتفه فى الجزائر ... على يد جزائريين . ان اخوتك هم الذين قضوا على حياته ... لكنه

PDF Eraser Free

المغفل يستحق ذلك ... لماذا ذهب ؟ انه لم يكن يدافع عن قضية صحيحة ، لم يكن يدافع عن حق فقده ، وانما كان من أولئك الناس الذين يجرون وراء المغامرات ، من أولئك المرتزقة الذين يقتلون الأهالي ، ويدمرون القرى والمدن ... كل ذلك طمعا فى المال ، والتجبر ... انهم مجرد حيوانات ... لا تستأهل الحياة .

كان ذلك هو جواب فرانسواز ، لكن البشير لم يرد أن يختم لقاءه مع فرانسواز على هذا الشكل ، وعلى هذه الذكرى ... فقـال :

ــ خبريني يا فرانسواز ، كيف هو حال الطفل بيير ؟ هل هو فى صحة جيـدة ؟

فأجابته فرانسواز مبتسمـة :

ــ نعم ، انه بخير ، شكرا .

ــ بلغي له تحياتي الحارة ، وقولي له أن صديقك البشير ، سيأتي ، ويقدم لك هدايا كثيرة ...

ــ شكرا ، على ذلـك .

لم تستطع فرانسواز الخروج ... لم تجد فى نفسها الشجاعة الكافية لذلك . فجرت نحو البشير ، واحتضنته بشدة وبادلته قبلة حارة ... ثم نظرت فيه مليا ، كأنها أم تنظر الى ابن عزيـز عليها ، سيؤخذ من بين أحضانها بعد لحظة ثم تخلصت منـه ، واتجهت نحو الباب ، وخرجت دون محاولة للالتفات ...

PDF Eraser Free

بقي البشير وحيدا ، فوضع رأسه بين راحتيه وراح يفكـر تفكيرا عميقا ... راح يتذكر كل شيء ، من أول يوم رأى فيه فرانسواز ، وتعرف بها ، الى هذا اليوم الذي سيؤرخ فراقهما وانفصالهمـا .

انها بالنسبة له ذكريات عزيزة ، سعيدة وأليمة فى نفس الوقت ، ذكريات ، تحث على التذكر ، وتدعو الى النسيان ...

ان قلب فرانسواز ، كما رآه البشير ... هو قلب امرأة راجحة العقل ، مضطرمة العاطفة ، نبيلة المشاعر ... انها امرأة أصيلة ، قلما يجد الانسان مثلها وقلما يسعد الانسان ، بقربها .

ان قربها لجميل ، وان بعدها لقاس ومرير ...

ولكن ما العمل ؟ انه ليس بقدرته العمل ، أكثر مما عمل .

لقد حان وقت الفراق لكن ستبقى ذكراها مرسومة فى ذهن البشير على مر الأيام ... ستبقى ، ما بقي يعيش ، وما بقي يفكـر ...

PDF Eraser Free

PDF Eraser Free

الفصـــل العـــاشر

كانت الرحلة بالنسبة للبشير طويلة لا تطاق ، ثقيلة لا تحتمل ، كلما نظر الى ساعته تخيل نفسه كأنه لم يتحرك ، وكأنه لن يحين أبدا موعد الوصول ... ذلك الموعد الذي انتظره بفارغ الصبر ، والذي حسب له كل حساب ... وطاق له بكل حواسه ... هل توقف الزمان وأبى أن يتحرك ؟ هل تغيرت اللحظات ، فأصبحت ساعات ، وتحولت الساعات ، فأصبحت دهورا .؟. كم هو ممل الانتظار ، وكم هو محرق التشوق ...

راح البشير يطل من الطاقة الصغيرة التي جلس بجانبهـــا فى الطائرة ... لكنه مل النظر الى سطح الماء ، سطح البحر الصقيل ، الذي يرزخ بألف لون ... ويعكس الصور الخارقة المشعة .

كان منظر البحر من الطائرة ، ساحرا . لكن البشير لم يعبـــأ به ، بل راح يشرئب ويحاول رؤية ما لا يمكن رؤيته فى تلـــك اللحظات ... يحاول رؤية شواطيء الجزائر ، ساحـــل الجزائـــر الجميل . أرض الآباء والجدود :

ــ « ما زالت ساعة واحدة وسأصل الى الجزائر ان الجو هنا فى هذه الطائرة ، حار ، ومخنق ، وأنا متضايق جدا مـــن هؤلاء الناس الذين يركبون معي ... ان معظمهم من الأجانب ، وأنا قد كرهتهم ومللتهم . اني فى رغبة الى رؤية آناس آخرين ،

PDF Eraser Free

فى رؤية أناس ليس لهم ما لهؤلاء من صفات وآشكال ، أناس طيبون ، عزيزون ، شجعان ، أبطال ... أناس فقراء ، لكنهم من جانب آخر أغنياء ... أناس هم مني ، وأنا منهم ... ان الجو الآن فى الجزائر منعش وساحر ، ما تكاد نسمة واحدة تهب ، بلطف ، وتلامس وجه شخص ، حتى يحس ذلك الشخص ، كأن عبيرا من السماء قد فاح عليه ... وكأن نفحا من عطور الجنة عبق حوله ... فمتى أقف على تلك الأرض ، وأستنشق هواءها العليـــل ؟ »

واستمرت اللحظات تتعاقب بتثاقل وتباطء ، منهكة قـــوى البشير ، ومبعثة فيه نيران الشوق ، حتى حان موعد نزول الطائرة فى مطار الدار البيضاء ...

أخذت الطائرة تنخفض ببطء نحو سطح الأرض ، معلنـــة قروب أجل نهاية الرحلة فأوثق البشير حول نفسه حزام الوقاية ، وراح يتابع بانبهار وسعادة ، مراحل النزول . رأى السهل الكبير ، المزدان بالخضورة ، يفسح له جناحيه ، ويدعوه الى النزول فيه ... عزيزا ، مكرما ... كما رأى المطار بجميع بناياته ، وكل ما فيه يرحب بقدومه ، ويهنئه على رجوعه ، وعلى سلامته ... فلم يستطع البشير كتمان الفرح الذي غمره ... فابتسم للمضيفة ، الشابة ، التي حمدت له وصوله ، وكاد أن يقبلها على مرأى من النـــاس :

ـ « لا لوم علي ، ان من حق الانسان أن يكون فى بعض الأحيان سعيدا ... وان مصدر سعادتي أنـــا ، لفـــوق جميـــع

PDF Eraser Free

المستويات ... اني مثل ذلك التائه الذي أرشده الله الى سبيله ، أو مثل ذلك الوليد المفقود ، الذي أعيد الى أهله . بل اني لو استطعت لجعلت من لحظاتي السعيدة هذه لحظات سعيدة لجميع النـــاس . »

نزل البشير وسار مع المسافرين القادمين ، الى أن دخل المبنى . ثم تناول كل حقائبه ، وركب سيارة ، واتجه نحو الجزائر :

ــ « كيف يمكن أن تكون الجزائر الآن ؟ هل بقيت كمــا تركتها ؟ لقد كانت رائعة فى ذلك الوقت ، ولاشك أنها أروع الآن ... لقد كانت فى ذلك الوقت ، مكبلة ، مقيدة أمــا الآن فانها طليقة حرة ... انها الآن تعانق السماء وتحتضن البحر بمودة وود . أكثر من السابق ... لأن السماء والبحر ، أصبحا من ملكها ... لقد كسبتهما . ان الجزائر الآن ، ملء الكون ... ملء الفضاء ... انها حسناء العالم وعروسة المدن » .

لم يكن يوجد هناك حد ، وفاصل ، يمكن بهما تحديد وصف وابتهاج البشير ، فى تلك الدقائق السعيدة ... وهو كذلك لم يكن يعرف نفسه فى ذلك الوقت ... كل ما عرفه وأحس به ، هو أنه ولد من جديد . نعم ، ولد من جديد . كان يحس ، كأنــه الشمس فى نورها وبهجتها ، كأنه القمر فى ضوئه وشاعريته ... كأنه الكون كلــه .

لم يذهب البشير الى أحد الفنادق ، ويقبع فى احدى غرفه . بل لقد راح يتجول دون كلل ، ويطرق جميع الشوارع دون ملل ... راح يختلط مع المواطنين ويحاول مبادلتهم الكلام ... نعم ،

PDF Eraser Free

لقد نسي فى تلك الدقائق ، مرضه ، ونسي كل علله ... انه فى صحة جيدة ، انه فى عافية ... فلا هناك داء ، ولا هناك آلام ، كل ما كان يود أن يفعله هو أن يتعرف على جميع الناس ، وعلى جميع الأشياء . على الأحياء ، وعلى الجماد ... انه منها وهي منه ... ان مصيرهما واحد ، وروحهما واحدة ... لكن الوقت ، لم يكن يسمح للبشير أن يفعل كل ما يريد ... فهو ، يلزم عليه ، أن يأخذ سيارة ويسافر الى بيته وأهله ليكـون قدومـه محمودا ، ووصوله مشكورا . انه لم يخبر أحدا عن مجيئه ... وستكون هناك المفاجأة الكبيرة ... المفاجأة السعيـدة ، التي تفرح الجميع ... فلاشك ، أن أحدا منهم لم يكن يفكر فى عودة البشير ، وقدومه ... انه بالنسبة لهم ميت ، لا رجعة له ولا طمع فيـه ...

وما كاد منتصف النهار يحين ، حتى كان البشير ، قد ركب سيارة أخرى مع مجموعة من الناس ، واتجه فورا الى بلدته ، نحو أهلـه .

كان عدد الركاب لا يتناسب مع حجم السيارة وسعتها ، فقد وجد البشير نفسه فى ضيق محصورا من كلتا الجهتين ... لكنه ، صبر ، وتحمل كل الأتعاب . لقد تمنى لو يصل دون تأخير ... قبل أن ينصرم النهار ، فيجد الأهل غير نيام ، يستقبلونه بابتهاج ، ويهللون فى وجهه مثل البدور ... معبرين عن سعادتهم بعودته ، بالضم والتسليم ، والاحتضان والتقبيل ... أما اذا وجدهم نياما، فان ذلك يقلل قليلا من أهمية وبهجة اللقاء . لكن رغم كل ذلك ، ان جميع أفراد البيت سيبشرون ويفرحون ... سيندفع العباسي

PDF Eraser Free

الى البشير ، ويحتضنه ، ويحمد له رجوعه . وستفعل كذلك زوجته هنية ... أما ربيعة ، فانها ستستحي وتتضرج وجنتاها ، لكنها ستقف وتبادله السلام ... أما ابنه باديس ، فانه سوف يندفع الى أحضانه ويتأرجح فى رقبته ... سيسر سرورا كبيرا بعودة البشير ... والده .

أثناء سفر البشير ، بالطائرة وبالسيارة ، كان يجد نفسه أحيانا ، مضطربا وحزينا ... ما السبب ؟

كان البشير يتذكر الدور الذي قام به فى فرنسا ، وكان هذا التذكر يملأ قلبه بالأسى والندم .

كان تذكره للأيام التي قضاها فى المعسكر بجانب أعداء بلاده ، يعذبه ، لقد وجد ضميره يؤنبه ، ووجد نفسه مثل التائه ، مثل الشحاذ ، مثل اليتيم ... لقد كان يسير فى طريق الضلال ، لا مرشد له ولا دليل ... أراد أن يصل الى المجد والى السعادة والهناء ... أراد أن يجعل من نفسه ، ذلك الفتى الذي بحث فوجد طريقه ، وفتش فوصل الى بغيته .... ليس ، مثل الذي يرضى بما كتب له ، وبما سطر له ، فلم يرد أن يبحث ، ويستقصي ، وانما يبقي راضيا بما أعطي له ، ساكنا ، جامدا ... لا تطلع له ولا طموح ... لكن الفتى عندما بحث ، وجرب واستقصى ، وجد أنه لم يجد شيئا ... فكل ما فعل كان دون فائدة ، وكل ما أجراه كان دون جدوى ... فلا الانفصال يفيد ، ولا التشبيه أو التقليد يجدى ان كل انسان هو ذلك الانسان ، ولن يرجع انسانا آخر ، سواء أقلد ذلك الأخير أم لا

PDF Eraser Free

واذا أراد البشير أن يكفر عن ذنوبه ، فعليه أن يرجع الى بلاده والى أهله ... ويمحي ما اقترفه من ذنوب ، بالعمل الدائب والرجوع الى الأصل والمنبع . هكذا ، فبعودته الى بلاده وأهله ، يستطيع التكفير عن ذنوبه والحصول على رضا الأقارب والأحباب .

هكذا قال البشير لنفسه :

ـ « سأكفر عن ذنوبي ، وسأحاول قدر طاقتي ، بذل المزيد من المجهودات ، بل الكثير من المجهودات ، حتى أستطيع أن أمحو عاري ، وأحول تاريخي القاتم ، الى أيام بيضاء ، ومستقبل زاهر ... اذا كان الشعب الجزائري قد ضحى في أيام الثورة بالعزيز والغالي ، وكنت أنا لا أبذل شيئا ... فسأجعل الآن من نفسي الباذل الوحيد ، وكل الشعب المستفيد والمستريح ... أنا أستأهل ذلك ، والشعب يستحق ذلك ... »

وعندما كانت الساعة تشير الى الحادية عشر ليلا ، وصل البشير الى البلدة التي يقطن فيها أخوه العباسي . فنزل المسافرون ، ومكث البشير قليلا ، ثم طلب من السائق أن يوصله الى بيت أخيه ... وكان السائق من أهل البلدة ، فلبى طلبه دون تأخير ، وأنزله أمام الباب ... ثم تقاضى أجره ، وذهب ... وبقي البشير وحيدا في النهج ... مسمرا أمام الباب ، لا يدري ماذا يفعل .

راح يلتفت مرات عديدة ، الى جميع الجهات ، كأنه ينتظر قدوم أحد . لكنه في الحقيقة ، كان يلتفت خشية ، أن يراه أحد ... فقد رأى أن موقفه ووضعه الآن غير محمودين ... ماذا يعني

PDF Eraser Free

وقوف رجل محاط بأمتعته أمام باب دار ؟ لا يتحرك ، فيطرق الباب أو يأخذ أمتعته ويذهب . ان وجوده فى هذا الوضع وفى هذا الزمن بالذات ، قد ضايقه ، وأقلقه ... فى ماذا يفكر ؟ انه لا يعرف فى ماذا يفكر . انه مضطرب الاحساس متشتت الفكر .

ترجع به الذاكرة ، فى لحظة ، الى الماضي . فيجد نفسه ، مرة فى شارع من شوارع مدينة فرنسية ، ومرة أخرى فى المعسكر الذي قضى فيه فترة طويلة وتمر بذهنه جميع الصور التي رسخت فى أعماقه ... ومرة ثالثة ، يجد نفسه معتادا على الدخول الى هذا البيت ... ألم يسكنه فى السابق ، مدة من الزمن ؟ ألم يقضي فيه الأيام الأولى من زواجه مع ربيعة ؟ ان ذلك لصحيح ... لكن ، لكن الآن ... ان كل شيء قد أصبح يظهر له بشكل آخر ، وبأبعاد أخرى ... انه يشعر من أعماقه أن هذه البلدة ، لا ترحب به ... لقد نسياه الاثنان . ان المدينة والبيت ، لم يعودا يعرفانه ان معهما الحق . ألم يهجرهما ، ويرضى بالمهجر بدلا عنهما ؟ ألم ينادیانه ، فلم يستجب لندائهما ؟ ألم يرجوان منه الرجوع ، فلم يرجع ؟ قال البشير فى نفسه :

— « ولكن الآن وقد رجعت ، فلماذا أرى هذه المنازل تحملق في ، وهذا النهج يحاصرني ، وهذه الأرض تضطرم تحتي ، وهذه السماء تسخر مني ؟! ألم آتب ؟ ، ألم أعد ، ؟ ألم أقم بتنفيذ طلبهم ؟ اذا كنت قد تأخرت فى تلبية نداءهم ، فان ذلك ليس مني ... لقد كنت فى ذلك الوقت على غير طبيعتي . لقد كنت فى ذلك الوقت معمى العينين ... كنت فاقد العقل والقلب ... ولكن الآن ، وبعد أن عدت الى رشدي ، واهتديت الى سبيلي ،

PDF Eraser Free

وعرفت نفسي ، فلماذا هذا العتاب ، ولماذا هذا العذاب ؟ فلماذا هذا الصد وهذا الرد ؟ أنا معذور . »

تشجع البشير ، ورفع قبضته وطرق الباب عدة طرقات متتالية ومعتدلة . لكنه شعر ، وهو يطرق الباب ، كأن قبضة من الحديد ، تدق فى صدره ... فتوقف مبهورا ، وراح ينتظر متى يفتح الباب ... وراحت اللحظات تتتابع دون أن يحدث شيئا ... ففكر البشير وقـــال :

ــ « ربما لم أطرق الباب بطريقة تجعل السكان يستمعـــون ويفطنون ، انهم نيام فى هذه اللحظة ، وليس من ذنبهم ، اذا لم يستمعوا الى طرقاتي ... ثم أنهم لا يعرفون مجيئي ، ولا يعلمون قدومي ... فلماذا أخترت هذا الوقت بالذات ؟ انـــه يشكـــل صعوبات بالنسبة لي ، وبالنسبة للآخرين كذلك . »

أخذ البشير يطرق الباب من جديد ... وراح يتصنت لعل قادم ، يفتح الباب . وبالفعل ، ما أن مرت لحظات قليلة ، حتى سمع وقع خطوات خفيفة ، تتقدم نحوه مصحوبة بحفيف فستان ... ففهم البشير أن القادم امرأة ، فسكت وبقي ينتظـــر وران الصمت برهة ، ثم سمع صوت نسائي من الداخل يقول :

ــ من الطـــارق ؟

فتعرف البشير على صاحبة الصوت من أول مرة ، رغم مـــا انتاب ذلك الصوت من اضطراب ، واصطناع ... فلم يعرف فى

PDF Eraser Free

الأول بماذا يجيب ، وراح يرمق الباب ويمرر لسانه على شفتيه ، ويبتلع ريقه ... لكنه قال في الأخير :

ــ أنا البشير . لقد وصلت توا .

وران الصمت من جديد ، وطالت مدته ... فلم يفهم البشير ما حدث ... لكنه انتبه ، عندما سمع نفس الصوت يقول له ، من وراء الباب :

ــ البشير ، من ؟ ...

فقال موضحـــا :

ــ أنا البشير شقيق العباسي ، لقد وصلت الآن ، واني أنتظر أن تفتحوا الباب لأدخل وأمتعتي .

ثم استمع لهنية تقول لــه :

ــ انتظر لحظـــة .

فبقي ينتظر حينا ، وهو يلعن الأبواب والمفاتيح ... كيف ؟ أتصده قطعة من الخشب ، يتحكم فيها قضيب من الحديد ، عن الدخول الى بيته ، ورؤية أهله وأحبابه ؟ لكن ليصبر ، لقد صبر طويلا ، فلما لا يصبر الآن ...

رجعت المرأة الى الباب ، وخاطبت البشير من جديد :

ــ اسمع يا البشير ... نحن متأسفون جدا ، لعدم قدرتنا على فتح الباب . لقد أيقضت ربيعة ، وجميع الأطفال ... لكن ليس

PDF Eraser Free

معنا المفتاح ، انه مع العباسي . والعباسي لم يرجع الى حد الآن ... فقد أخذ المفتاح معه ، ولاشك أنه فى أحد المقاهي فعليك اذا استطعت أن تتصل به ، وتأتي به ، ليفتح الباب ... نحن متأسفون جدا يا البشير ، فلماذا لم تخبرنا بقدومك ؟ يا لعمل العباسي المعوج ، يا لعمله . ولكن لا بأس ، فأعتقد أن المقهى ليس بعيدا عن الدار ...

تأسف البشير لهذا الحدث الذي لم يكن فى الحسبان ، والذي هو فى الأصل مجرد صدفة . وقال :

ــ « ولكن ان معي حقائب وأمتعة ... فكيف أفعل بها ؟ هل أتركها هنا ؟

فردت عليه هنية ، دائما من خلف الباب :

ــ لا تخش على الحقائب ، فلن يأخذها أحد ... المهم الآن ، هو أن يعلم العباسي بقدومك ... اذهب اليه ، وارجع لنا بسرعة . نحن متشوقون الى رؤيتك ... يا للعباسي ، لماذا يتأخر لهذا الوقت ولا يعود ؟!

لم يتردد البشير لحظة ، ليذهب ، ويبحث عن أخيه فقد رأى أنه لن يستطيع الصبر مرة أخرى أمام الباب ، مكتوف اليدين ، قريب من الأهل ، بعيد عليهم ... يسمعهم ، ولا يراهم ... يحس بوجودهم ولا يستطيع لمسهم . فليبحث عن العباسي ، وليأتي به ، وليتهلل البشير ، ويملأ قلوب الأهل بالبهجة .

PDF Eraser Free

انطلق البشير ، يخترق الشوارع ، كأنه طفل مارد . واتجه فورا الى مقهى كان يعرفه منذ القديم . انه هو المقهى المفضل للعباسي . وما هي الا فترة قصيرة حتى وقف أمام مدخله ... متقطع الأنفاس ، مشتت شعر الرأس ... تمهل قليلا الى أن أحس أنه فى حالة طبيعية ، ثم بكل ثبات وبكل عزم ، دلف الى المقهى وكان أول شيء لفت نظره هو الرجل الواقف ، خلف طاولة الحساب . فقد عرفه من أول وهلة ... كان أحد اصدقاءه القدماء . وقد خشي أن يعرفه . فحول بسرعة بصره عنه ، وتصنع عدم الاكتراث ، ثم راح يجول ببصره بحثا عن العباسي ...

كان المقهى خاليا من الزبائن ... ما عدا مجموعة صغيرة من الناس ، يحيطون بطاولة ، يلعبون الأوراق ، ويتبادلون الكلام ، ويضحكون من حين لآخر . لم يكونوا ملتفتين اليه . كانوا يكونون حلقة صغيرة ، غير عابئين بما يدور حولهم ، ان الذي يهمهم الآن ، هو الانتصار ... انتصار فريق على آخر ...

ـ « هل العباسي بينهم ؟ »

هذا هو السؤال الذي طرحه البشير على نفسه ...

نظر الى اللاعبين من بعيد ، لكنه لم يستطع معرفة أحد منهم ... فاقترب أكثر ، وراح ينظر ... لكنه ما كاد يبصر آخاه العباسي ، حتى سمع هذا الكلام يلفظ من وراء ظهره :

ـ استمعوا يا جماعة . وقفوا لعبكم يا جماعة . آلا ترون

PDF Eraser Free

البشير أمامكم ؟ انه عاد من فرنسا ... ها هو واقف ، ينتظر ... قوموا اليه ، وسلموا عليه ، واحمدوا له الرجوع السليم .

وما كاد يفرغ صديق البشير القديم ، من كلامه ، حتى ارتمى على البشير وراح يسلم عليه مرات عديدة ، حامدا له رجوع السلامة ... وهكذا انتبه اللاعبون من أوراقهم ، والتفتوا جميعا ، ثم قاموا وتسابقوا الى البشير ، بعد أن عرفوه ...

لم يستطع البشير التخلص بسرعة من الرجال ، حتى يستطيع رؤية أخيه ويتمكن من التسليم عليه ... لكنه تحمل كل شيء ، وانتظر . وعندما جاء دور العباسي لاحظ البشير أن أخاه قد تغير كثيرا ، وأصبح نحيلا .... فاحتضنه بقوة وعطف ولم يستطع أن ينبس ببنت شفه ... لماذا يتكلم ؟ ألا تكفي العيون عن الافصحاح عن كل شيء ؟ ألا يكفي الضم ، عن التعبير عن مدى شعور كل واحد اتجاه الآخر ؟ عن شعورهما المشترك .. ولكن هل العباسي كذلك ؟ لماذا لم يتحمس لعودة أخيه ، ويقفز من كرسيه ، فيطير نحوه ، ولا ينتظر اللحظة التي ينتهي فيها ترحيب الرجال الآخرين ؟ لماذا حدثت على سحنته هذه التغيرات وهذه الانقباضات ؟

ألم تفرحه عودة البشير ؟

كاد البشير أن يطرح هذا السؤال على أخيه :

ـ « هل لم يعجبك رجوعي ... ولم تفرحك عودتي ؟ »

PDF Eraser Free

لكنه عاب على نفسه التفكير فى مثل هذه الأشياء البعيدة ، الخاطئة ، التي لا تثبت سوى فى قلب رجل ، لا ثقة له فى أخيه ، وفى أحبابه .. .والبشير ، ليس من ذلك النوع من الناس ... ان له ثقة فى أخيه ، لا تضاهيها ثقة ...

ـ « ان العباسي هو أنا ، وأنا هو العباسي ، لا فرق بـين واحـد وآخـر . »

نطق العباسي :

ـ أهلا وسهلا ... أهلا وسهلا ... كيف حالك ؟ متى جئت ؟

أجاب البشير :

ـ اني بخير الحمد لله ... لقد وصلت الآن ... لكني جئت أبحث عنك لتأتي معي ، وندخل معا البيت ...

لكن العباسي رد وهو لا يرفع عينيه الى البشير :

ـ على كل سآتي معك بعد لحظة ... فما زال معي دور هام ، مع هؤلاء السادة .

صمت قليلا ، ثم أكمل :

فمتى انتهيت ، سآتي ... لكن لماذا أجعلك تنتظر ؟ فلاشك أنك تعبان . فها هو المفتاح ، فخذه معك .. وسألحق بك بعد قليل ... أنت تعرف أني متفوق فى هذا الدور ، فلا أستطيع تركه هكذا . لكن لا تتعب نفسك ، فاذهب الى البيت وسآتي بعد لحظـة .

PDF Eraser Free

لم يستطع البشير أن يمد يده ، ويأخذ المفتاح من يد العباسي . بقي متعجبا من هذا التصرف . كيف ؟ أهذا تصرف معقول ؟! أيفعل العباسي هذا ؟ ألا يتذكر السنوات الطوال التي غاب فيها البشير ، فيهملها ، ويرضى باللعب بدلا من مصاحبة أخيه ؟

تعجب البشير ، لكنه في الأخير قال لنفسه :

ـ « ربما كان العباسي يلعب بمبلغ كبير ، فلا يود أن يخسر . فلماذا أتهمه الآن بعدم الاكتراث بي . انه انسان طيب على كل حال ... فلآخذ المفتاح ، ولأنتظره في الدار حتى يعود . لقد انتظرني طويلا ، فلماذا لا أنتظره أنا قليلا ؟. »

وهكذا أخذ البشير المفتاح من يد العباسي ، وقال :

ـ لا بأس من ذلك ... لا بأس . لكن حينما تنتهي من دورك هذا فلا تتأخر دقيقة أخرى . اننا جميعا في انتظارك .

فقال له العباسي :

ـ نعم ، كن هنيئا ... سآتي تـوا .

وبين أنظار الرجال المتعجبة ، خرج البشير من المقهى ، عائدا الى البيت ، حاملا معه المفتاح . بينما بقي العباسي ساكنـا لا يتحرك ... وعيونه تضيق وتتسع ، كأنه ينظر الى عدو يربض أمامـه .

رجع البشير على الطريق الذي جاء منه ، والأفكار تتضارب في رأسه . أفكار من كل نوع . أفكار من الماضي البعيد ، وأفكار

PDF Eraser Free

من الحاضر ، من لحظة وصوله الى لقاء العباسي ، الى المفتاح ... وحينما وصل الى الباب ، وجد أمتعته هناك ، لم تمس ، ولم تحرك ... لكنه ما كاد يعالج الباب ، حتى سمع صوت هنية يقول له :

ــ هل رجعت يا البشير ؟ لقد كنا في انتظارك .

فقال يطمأنها

ــ نعم ، رجعت . وها أنا أعالج الباب .

وبعد لحظة انفتح الباب ، وظهرت هنية وربيعة والأطفال ... كلهم عند عتبة الباب ، ينتظرون بفارغ الصبر ... فلم تعط المرأتان فرصة للبشير ، حتى يدخل حقائبه ، فارتمتا عليه ، مقبلتين خدوده ، بعطف ومحبة ، ثم طلب منهما السماح ، اذا كان قد أقلقهما ، وطير النوم عن جفونهما ... فردت المرأتان عليه ، بأنه لم يخلق لهما أية مشكلة ، وأنهما مسرورتان السرور الكبير بعودته ... أليس هو أحد أعمدة الدار ؟ أليس هو الأمل المنتظر ؟ فكيف ، لا ترحبان به ، وتتركان النوم جانبا ؟

لكن بعد أن ولج البشير احدى الغرف ، وجلس على كرسي ، وسلم على جميع الأطفال ، وأغرقهم بالنقود ، ورنا الى جميع الأركان ، وتذكر الأيام القديمة ، لكن ، بعد كل هذا ، فطنت هنية الى أن البشير قد عاد بمفرده ... فلم يأت معه العباسي ... فلم تفهم شيئا ، واستاءت من هذا ... ولم تصبر على عدم السؤال فقالت :

ــ هل وجدت العباسي ، ولم يأت معك ؟

PDF Eraser Free

فقال البشير ، مقتضبا الجواب :

ــ انــه آت .

لكنه رأى وجه هنية يكتسي بقناع حزين ، كأنها سمعت نبأ مشؤوما ... فلم يجرأ البشير على سؤالها عن سبب ذلك الحزن ، وذلك التأسي . بل راح ، يحاول خلق المودة ، بينه وبين الأطفال ، وخاصة طفله باديس . فقد لاحظ أن ابنه لا يود الاقتراب منه ... بل ينفر منه النفور الشديد . وحينما تقول له أمه :

ــ اذهب الى أبيك يا باديس .

يرجع الطفل القهقرى ، ويقول :

ــ ان هذا الرجل ليس أبي .

ثم ينكمش بجانب والدته ويروح يرنو الى البشير بنظرات لا أمان فيها ولا محبة . وفهم البشير أن الطفل لم يسبق له أن رآه ، فكيف يريد منه أن يقول له انك أبي ... ان باديــس لا يعرف سوى العباسي ... وربما ينادي لعمه ب : يا أبي ... على كل حال اذا أراد أن يعرف كيف ينادي لعمه ، فلينتظر حتى يعود العباسي . انه سوف يضحكهما .... لكن الطفل لن يبقى على هذا الحال ، سيأتي يوم يعرف فيه أباه من عمه ... وعمه مــن والده ... وهناك سوف يلوم نفسه على تجاهله والده .

ــ « ... ولكن الآن لماذا لا يعود العباسي ؟ هل ما زال لم ينته بعد من ذلك الدور الرابح ؟ لقد قال لي أنه لن يتعطل كثيرا ، وسيلحق بي بعد قليل ... لماذا كل هذا التخلف ؟! لقد مــرت

PDF Eraser Free

نصف ساعة الى حد الآن ... ربما لم يربح فى لعبه فراح يكرر الدورات طمعا فى الربح ... ولكن ، هل يسعى العباسي وراء الربح ويهمل شأني أنا ؟! »

راح البشير يتكلم مع نفسه ، بمثل هذه العبارات . لكنه حينما لم يجد جوابا عن أسئلته المتعددة ، قال مخاطبا المرأتين ، وهنية بصفة خاصة :

ـ هل من عادة العباسي ، أن يتأخر الى هذا الوقت ؟

فلم تعرف بماذا تجيب . على كل انه ليس من عادة العباسي أن يتأخر الى هذا الحد ... واذا قالت هذا ، فانها ستكون السبب فى خلق الكثير من التأويلات ... ففكرت وقالت بسرعة :

ـ نعم . أحيانا .

لكن هذا الجواب القصير ، لم يطمئن البشير ، فنهض ، وقال :

ـ من الأحسن أن أعود مرة ثانية الى المقهى ... لأعرف سبب التأخر ، فلربما حدث شيء ، لا نعرفه ... نعم انه من الأفضل أن أعود مرة أخرى ، وسوف لن أغيب طويلا ، سأرجع حالا بعد أن أجده ... ومن الأفضل هنا فى البيت أن ينام الأطفال ... لقد أتعبناهم كثيرا ...

لقد تعب البشير كثيرا من عناء السفر ، لكنه لا يود أن يستريح . انه قلق من ما حدث . فخرج وعاد مرة ثانية الى

PDF Eraser Free

المقهى ... لكنه حينما دلف اليه ، لم يجد أحدا ... وكان صديقه القديم على أهبة اغلاق المحل والذهاب . فسأله :

ـ هل انتهى العباسي من اللعب ؟

فأجابه صديقه القديم :

ـ حسب ما ترى ... نعم . لقد انتهى منذ مدة قصيرة . وقد خرجوا جميعا .

لم يعرف البشير بماذا يرد ، فمكث صامتا يفكر ، فبـادره صديقه بسؤال :

ـ هل لم يعد الى البيت ؟

نظر البشير اليه مليا ، ثم قال :

ـ انه لم يكن فى البيت ... ولكن الآن ، لا أعرف .

فرد عليه صديقـه .

ـ ربما خالفك فى الطريق ، وربما هو الآن فى الدار . مـن الأحسن أن تعود فمن الممكن أن تجده هناك ... أين سيذهب العباسي ؟ لاشك أنه رجع فى اللحظة نفسهـا التي خرجت أنت فيهـا ...

تقبل البشير تعليلات واستنتاجات صديقه ، وقال :

ـ ربما كان ذلـك .

PDF Eraser Free

ورجع عدوا الى الدار ، بعد آن شعر أنه يكاد يسقط من العياء ... ان صدره أخذ يؤلمه آلاما شديدة ، تركته يسعل ويتعذب ...

طرق البشير الباب ، ودخل . فواجهته هنية بهذا السؤال :

ــ هل وجدته ؟

تعجب البشير ، وقال :

ــ كيف ؟ ألم يعد ؟! لم أجده فى المقهى ، وقال لي رجل أنه رآه يعود ...

ــ لا ، انه لم يعد .. ولكن لا بأس .. سيأتي دون شك .. فادخل أنت ، واسترح ... انني أراك تسعل وتتألم ... لا تفكر فى العباسي ... انه رجل ، ويعرف ما يفعل .

وبالفعل ، ورغم كل الهواجس ، وكل المحن ، راح النوم يداعب جفون البشير ، حينما استلقى على ظهره فى فراش أعدته له ربيعة ... وما هي الا خمس دقائق ، حتى غرق فى النوم ... وانقطع عن التفكير . وقد لاحظت المرأتان أن داء خطيرا يسكن صدره ... بل لقد عرفتا ذلك الداء من أول وهلة ... لكنهما لم تجرءا على سؤاله ...

ولم يستيقظ البشير الا عندما كانت الشمس قد غمرت القاعة والفناء ، وسقطت على عيونه ، فبعثت فيه الحرارة والنشوة ... وعندما فتح عينيه كانت الغرفة خالية لا أحد فيها . وكل ما كان

PDF Eraser Free

يصل الى سمعه ، هو صوت الأطفال الذين يلعبون فى الفناء ، بضجة غير متناهية ...

تمطط البشير بسعادة ، ثم فجأة ، وكأنه رأى السقف ينهار فوق رأسه ، فانبعث من فراشه ، ووقف على أهبة الدفاع ... لقد تذكر أنه نام غير مرتاح النفس ، وغير مرتاح الضمير ... لقد نام دون أن يعرف اذا كان العباسي قد عاد أم لا ... لقد نام دون أن يتيقن من ما حدث لأخيه ... نام كالانسان الهني الذي ليس له مصدر للتفكير ، وهو يعرف أنه الانسان الذي لا تمر عليه لحظة ، دون أن يعيش تلك اللحظة بعناء وجهاد ... عاتب البشير نفسه عتابا شديدا ، وخرج يسأل ان كان العباسي قد عاد .... وعندما خرج الى الفناء ، كانت هناك المرأتان ، تغسلان الثياب ، منثنتي الجسم ، وملتفتين الى الجهة الأخرى بينما كان الأطفال يمرحون بسعادة فى مختلف أنحاء الفناء ...

اتجه البشير نحو المرأتين ، فبادرته هنية .

ــ صباح الخير ...

فرد عليها ، ونفسه تحدثه أن كل شيء يسير على ما يرام :

ــ صباح الخير ...

ثم أكمل بعد تردد وكأنه يخشى ذكر عنوان جريمة اقترفها :

ــ اذا كان العباسي هنا ، اني أود رؤيته ...

PDF Eraser Free

فتأسفت هنية ، وقالت :

ــ لا ، انه ليس هنــا .

لم يفهم البشير اذا كان العباسي هنا ثم خرج أم أنه لم يعــد بتاتا ... فسأل ، يريد التوضيح :

ــ هل نام هنا أم لا ؟

ــ لا ، انه لم ينم هنا ... فنحن لم نر وجهه منذ يوم أمس .

ــ وأين قضى الليل اذا ؟! .

ــ لا أعرف ... يجب علينا أن نبحث عنه ، ونحاول العثور عليه .

ــ لكن من أين نبدأ ؟ وكيف نعمل ؟ أنا والله ، لا أفهم شيئا .

ــ علينا أن نسأل الأقارب والأحباب ان كانوا قد رأوه . ثم بعد ذلك نبحث عليه فى مختلف الأنحاء ...

لم يرد البشير أن يستمر فى الاستفسار والتساؤل ... وانما نظف وجهه ، بسرعة ، وخرج دون أن ينتظر الفطور . فقد مل من هذه اللعبة ، وأراد أن يصل الى نهايتها ... فقد حدثته نفسه أن العباسي وقع فى محنة ، وحدث له مكروه ... وهو يطلب النجدة والغيث ... فيجب عليه أن يسرع اليه وينجده .

ولهذا وجد البشير نفسه ، يبحث عن أخيه عنــد الأقــارب والأحباب ، وفى جميع الأمكنة المتوقعة والمعروفة ... يسأل جميع الناس نفس الأسئلــة :

ــ « هل رأيتم العباسي ؟ انه لم يعد البارحة الى الدار ...

PDF Eraser Free

نحن قلقون جدا ، ونخشى أن يكون قد وقع له مكروه ... »
ثم يشكر جميع الناس :

ـ « شكرا على كل حال ... سأحاول البحث والاستفسار فى جهة أخرى ... لن يكون العباسي بعيدا ولابد أن نعثر عليه . »

لكن هذه الأزمة لم تصل الى حل ... ولم يستطع البشير أن يعرف أين ذهب العباسي أو ماذا وقع له ... وقد ازدادت التصورات والافتراضات عند كل من هنية وربيعة ... فراحتا تملآن رأس البشير بمختلف التأويلات والمخاوف :

ـ « ربما اعتدى عليه بعض السفلة وقتلوه ... ثم أخفوا جثته فى التراب خشية أن ينكشف أمرهم ... ربما سجن العباسي بسبب حضوره فى احدى الجرائم أو احدى السرقات ... ربما هاجر الى مدينة أخرى فرارا من أحد الناس ... ربما أصيب بجروح ، ودخل أحد المستشفيات ... »

لكن جميع الأبحاث والتقصيات التي قام بها البشير والتي استغرقت منه أسبوعا كاملا ، لم تصل الى نتيجة ... أو ما يقارب النتيجة .... فكل شيء بقي غامضا ، مستورا ... وتأثرت صحة البشير بسبب الرحلات والمجهودات الكثيرة التي بذلها ، وبسبب قلة اقدامه على الطعام ، وعدم احرازه على لحظة هناء ، يستريح فيها ... لقد كانت تصورات البشير تبين له ، أنه سينزل مثل الضيف العزيز عند أخيه ... فيحاط بالمحبة والراحة ... ولا يتعرض لمثل هذه الأتعاب وهذه الهواجس والمخاوف ... بل ، لقد فكر البشير يوما ... أنه هو سبب غياب العباسي ... ولا

PDF Eraser Free

يوجد هناك سبب آخر . فهو سبب تعاسة الأهل وسبب غياب أخيه . نعم ... هكذا ، توصل البشير الى هذه النتائج ... فلماذا لم يرد العباسي أن يأتي معه ليلة قدومه ؟ لماذا حدثت تلك المسحة الحزينة ، على صفحة وجهه ، عندما رآه يدلف الى المقهى ؟ لماذا كل ذلك ؟ لم يرتح البشير الى جميع الأراء التي سمعها من الناس ... بل لقد عرف أنه هو الوحيد الذي يعرف السبب ... وأن الحل قريب منه . فاذا أراد أن يعرف لماذا غاب العباسي وكيف تصرف هذا التصرف الغريب ، فعليه أن يرجع الى الدار ، ويحاول استكشاف السر من المرأتين ... بل من ربيعة بصفة خاصة ، لأنها سوف لن تخفي عليه شيئا ، وستقول له كل ما تعرف . انها تشفق على زوجها ، ولا ترضى أن يتعذب ويبقى يدور فى هذه الحلقة المفرغة ... انها تعرف أنه مريض بالسل ، كما تعرف أن هذه الأعمال التي يقوم بها الآن تتبعه وتنهكه ... فلماذا تتركه يتعذب فى هذا الخضم الذي لا يعرف له حد ...

انزوى البشير مع ربيعة ، وقال وهو يتجنب النظر الى عينيها :

ــ أنا الى حد الآن ، لم أسمع شيئا من العباسي . لم أسمع رأيه في ، وفى تصرفاتي حينما كنت فى فرنسا ... فهل تستطيعين أن تخبريني عن ماذا كان يقول عني فى تلك الأيام ؟

تجنبت ربيعة السؤال وقالت :

ــ لم يكن يقول شيئا .

PDF Eraser Free

فلم يفشل البشير وسألها من جديد موضحا نسبيا ، ما يريد الوصول اليـــه :

ـ أنا لا أطلب ماذا قال عني بالضبط ، لكنني أريد أن أعرف هل كان قد نسيني أم بقي ينتظرني ....

فتخلصت ربيعة مرة أخرى من السؤال ، وقالت :

ـ ولماذا لا يتذكرك ؟ ألست شقيقه الوحيد ؟!

تيقن البشير من أن ربيعة ، لن تفصح عن شيء ، اذا اتبع هذا الأسلوب . فكشف كل شيء حينما قال :

ـ اسمعي يا امرأة ، ان غياب العباسي واختفاءه ، لا يرجع لأي سبب خارجي ، بل انه يرجع الينا نحن ... والي أنا بصفة خاصة ... فهو قد استاء من رجوعي ، ولا يود رؤيتي من جديد ... فهو يعتقد أني جلبت له العار ، والفضيحة ... وحينما رآني أعود ، لم يستطع أن يواجهني وجها لوجه ، وحبذ الاختفاء ، وعدم الظهور . فهو لم يفعل شيئا آخر أكثر من هذا ... والذي فعله لا يرجع لشيء آخر غير هذا الذي ذكرت ... وأنا أود الآن منك ، أن تقولي لي ، ماذا كان قد قال عني ، قبل أن أرجع ... هل أقسم على أن لا يراني من جديد ؟ أم هل أقسم على معاكستي واختلاق المشاكل لي ؟ انك تعرفين كل شيء ، وأطلب منك أن تطلعيني على كل شيء وبسرعة .

عرفت ربيعة أنها وقعت فى أزمة ، وأنه لا خلاص لها منها الا بالصراحة والافصاح . ولكن ، هل كان الشيء الذي سمعته من

PDF Eraser Free

العباسي ، هو السبب الحقيقي والسبب الفعلي ، فيما حدث الآن ؟ وهل الذي ستقوله ، هو نفس الشيء الذي قاله العباسي منذ زمن بعيد ؟ ولكن ، لتقول ما سمعت ، مع مراعاة عدم التضخيم والتعظيم ... انها تعتقد أن الذي سمعته ، وما ستقوله الآن ، ليس هو السبب الكلي ، وليس هو كل شيء ... فلتتخلص من تهديدات البشير ، ولتريح نفسها وتريحه هو كذلك :

ــ لقد سمعت العباسي يلفظ هذه العبارات : « لن أرى وجهه مرة أخرى ما بقيت حيا ... » أي أنه أقسم أن لا يبقى في مكان توجد فيه أنت ... ولكنه ، كان ، ــ من دون شك ــ لا يعني ما يقول ... فلا تهتم بهذا .

اتضح كل شيء للبشير ، فارتاح ، كأنه كشف حل لغز محير :

ــ « هكذا اذا ... .لقد كنت بليدا ، مغفلا ... تركت هذه الأيام تمر سدى دون فائدة . لماذا لم أسأل منذ أول يوم ؟ لماذا تأخرت لهذا الوقت ؟ ربما لن يجدى الآن بحثي ... وسأكون مثل الذي يريد القبض على الريح ... »

بقي البشير يفكر طويلا ... باحثا عن سبيل يوصله الى العثور على العباسي . لكنه لم يعرف من أين يبدأ ... لقد فتش جميع الأمكنة المشكوك فيها ، بمعاونة أناس أقرباء ، وغرباء ... بل بمعاونة رجال الشرطة ، ورجال الدرك ، وبمعاونة وسائل الاعلام . لكن دون جدوى . فلا أحد توصل الى العثور على العباسي ،

PDF Eraser Free

ولا أحد استطاع الحصول على معلومات عنه ... فكأن العباسي تبخر فى الجو وأصبح لا أثر له ...

وأصبحت الأيام التي تأتي ، بالنسبة للبشير ، عذابا مقيما . فساءت صحته ، سوءا كبيرا ، حتى أصبح لا يعرف من طـرف الناس ... فقد أخذ يسعل ليلا نهارا حتى تكاد أنفاسه تتقطع ، وحتى يكاد صدره ينفجر ... ثم يرتاح لحظة ... فيذبل جفونه ، ويروح يفكر تفكيرا عميقا .

نمت اللحية فى ذقنه الى أن أصبحت تغطي نصف وجهه ... وقد أضفت عليه مسحة من الحزن والأسى ، حتى أصبح منظره ، يبعث على الشفقة ، ويدعو الى الرثاء . فها هو البشير ، الفتى المتحضر ، الذي جاء مرتديا البذلات الرائعة ، مصففا شعره على أحسن شكل ... ها هو الآن لا ينزع القميص الموسخ من رقبته ، ولا يحمل نفسه عناء تصفيف شعره ... ها هـو البشير الآن ، يتلحف ببرنوس قديم ، ممزق ، يحاول الادثار ، حتى لا تقتله موجات السعال من قبل أن يصل الى هدفه ، ويؤدي ما عليه من واجبات ... واجبات خلقها لنفسه ، فوجب عليه آداؤها فى أي ظرف كان ، وبأية وسيلة كانت ... لن يطلب الرحمة من أحد ، ولن يطلب الشفقة من أحد . انه هو خالق أحزانه ، وهو مؤلف أتراحه ... فاذا أراد أن يرتاح ويسعد ، فكل ذلك يرجع اليه هو وحده ، وليس لأحد غيره ....

انطلق البشير بحماس ، يبحث عن العباسي ، ونفسه تحدثه أنه سوف يعثر عليه فى أقرب الآجال ... فان هذه اللعبة ما هي

PDF Eraser Free

سوى تجربة وامتحان له ، يستطيع فيها أن يبرهن على ما يحتفظ به في صدره ، وعلى ما يفكر فيه . فلربما جعل العباسي هــذه التمثيلية ، اختبارا له ، حتى يتمكن بواسطتها من معرفته على أحسن صورة ... اذا ، فليبرهن البشير على مودته ، وصداقته ... وليبرهن كذلك على قدرته واستطاعته ... فليكثر من الناس، وليدفع لهم أجورا كبيرة ، وليعمل هو معهم ، دون ملل ودون كلل ، حتى يعثر عليه ... فليقطع البلاد ذهابا وأيابا ، وليكشف كل المدن وكل القرى ... وليسأل كل انسان يجده ... سوف لن يرتاح أو يستكين ... وسوف لن يهنأ أو يسعد ، الا عندما ينهي عمله ، ويحصل على ما يوده :

سوف لن يستلذ طعاما ومقاما ، الا بعد أن يجد العباسي .

سوف لن يعالج نفسه ، ويعرض جسمه للطبيب ، الا بعد أن يطمئن على حال العباسي ...

سوف لن يهتم بنفسه ، الا بعد ، أن ينتهي من مشكلة العباسي ... فيعيده الى داره ... وينال منه السماح .

هذه هي أهداف البشير الآن ، ولن يهدف الى شيء آخــر غير هــذا .

أخذ البشير يحدث نفسه ، وهو خارج من البيت :

ــ « سوف لن تعود الى المنزل يا البشير الا ومعك أخاك ... أخوك الذي تسببت في ابعاده ، وطرده ... سوف لن ترجع الى

PDF Eraser Free

الدار ، وترى وجه زوجتك وابنك ، الا بعد أن تطمئن على سلامة شقيقك ... فتعيده لتفرح زوجته ويسعد أبناؤه ... قم يا البشير ، فشرق أو غرب ... المهم هو أن لا تعود صفر اليدين ... أنت هو السبب فى كل شيء ... وعليك يتحتم ايجاد الحل والفرج ... »

PDF Eraser Free

الفصـــل الحـــادي عشر

ــ ألم أكرر لك عدة مرات أنني لم أر العباسي يا رجــل ؟ فكيف تعيد علي هذا السؤال عدة مرات ؟ اذهب عني واسأل آخر غــيري .

هكذا أجاب أحد الفلاحين البشير ، وحينما ذهب البشير من أمامه ، ليسأل واحدا آخر ، أخذ ذلك الفلاح يتحدث مع نفسه على هذا الشكل :

ــ « يا لهذا الفتى الغريب ، انه على حافة القبر ، ان الداء ينخره والعذاب يهلكه . ولكنه يستأهل ذلك ، لأنه هو السبب فى كل شيء ... فولاه لما وقع هذا الشيء ، انه هو الرجل الذي ترك أخاه ، دون اعانة ، وأهمل أهله دون تذكر ، وباع بلاده دون خزي ، وارتد عن دينه دون خشية ... انه الفتى الــذي أغواه الشيطان ولعبت برأسه الأطماع ... لقد عاقبه الله عــلى فعلته الشنعاء ، فأصابه بهذا الداء الذي لا ينفع فيه الدواء ... والله ان من ينظر اليه مليا ، ليقول أنه فتى مفقود الذهن شارد اللب ... انه لفتى مجنون ... لقد أعياه البحث ، وأتعبته الجهود ... واعتقد أنه اذا أراد أن يجد أخاه ، فعليه أن يبتعد كثيرا عن هذه الناحية ، ويبحث عنه فى المدن والقرى البعيدة ... فالعباسي ــ اذا كان ما يزال يعيش ــ لن يمكث هنا قريبا من الناس الذين

PDF Eraser Free

يعرفونه ، سوف يبتعد قدر ما يستطيع حتى لا يعثر عليه أحد .. »

وحينما توصل الفلاح الشيخ ، الى هذه النتيجة ، اطمأن الى صحتها وارتاح الى فاعليتها . فأراد أن يفيد بها البشير . فأشار له أن يتقدم اليه ، وحينما وصل ، قال له :

ــ اسمع يا بني ، اني أعرف أخاك العباسي ، وأعرفك أنت كذلك ، منذ كنتما صغيرين ولهذا فاني لا أود الآن أن أراكما تفترقان على هذا الشكل ، وتبتعدان الى هذا الحد ... ولقد كان والدكما الكريم ــ رحمه الله ــ صديقا عزيزا علي . عشنا معا ، أياما سعيدة ... اني ما زلت أتذكرها الى حد الآن ... »

لم يتضجر البشير من « ثرثرة » الشيخ الفلاح ، بل راح يتصنت له بكل اهتمام ، كأن الشيخ يتلفظ حكمة ... لكن الشيخ ، لحسن الحظ ، جعل حدا لمقدمته وقال :

ــ ... ولهذا يا بني ، فانني أنصحك أن تذهب الى المدن والقرى البعيدة لعلك واجد هناك العباسي ... فالعباسي لن يبقى هنا قريبا منك ، فاذهب يا بني وأعانك الله فى عملك ... وأرشدك الى بغيتك ...

لم يعرف البشير كيف يشكر الشيخ ، على نصيحته ، فأراد أن يجازيه بالنقود ، فأخرج بعض الأوراق المالية ، وناولها الشيخ ، لكن هذا الأخير لم يمد يده ، بل قال :

ــ احتفظ بهذه النقود يا رجل ، انك فى مسيس الحاجة اليها.

PDF Eraser Free

أما أنا ، فسوف لن أطلب سوى شيئا واحدا ، وذلك بعد أن يقودك الله الى أخيك ، وترجع معه ، وهذا الشيء هو أكلة لذيذة ، أكلة شهية وطرية .... اذهب ، اذهب ، وأعادك الله ناجحا مسرورا

ـ « يا للرجل الكريم ، كم هو نبيل النفس ، لقد رآني تائها فأرشدني ، ولم يطلب شيئا والله سأعمل بنصيحته ، وسوف لن أدخر جهدا ، أو أبخل بوسيلة الى أن أعثر على العباسي ، وأرجعه الى الدار ... »

صافح البشير الشيخ ، وذهب فورا الى الجهات التي ذكرها له الشيخ .

غاب البشير عن الدار ما يقارب الشهر ، دون أن يصل منه خبر ... واعتقدت المرأتان أنه قد لقي حتفه ... وليس ذلك بتصور بعيد ، اذا ما نظر الانسان معاناته لمرضه ... وقد ازداد الحزن والبؤس على قلوب الأطفال فأصبحوا لا يمرحون ، ولا يمكثون طويلا فى البيت ، فكأنهم كرهوا كل شيء فيه ...

أما البشير فى تلك الفترة ، فقد جال وفتش ، معظم المدن والقرى المشكوك فيها ، ولم يبق له من المال شيئا كثيرا ، فراح يقتصد قليلا ، ويبخل نفسه من الطعام ، والراحة ... فكان يقتاب بالطعام الرديء الرخيص ، ويفترش أرصفة المدن ليلا ... واذا ما طلعت الشمس ، يقوم فيدور على جميع المقاهي ، وجميع المحلات ... لكن جميع مجهوداته هذه ، لم توصله الى شيء

PDF Eraser Free

يمكن أن يبعث فى نفسه الأمل . فكأن العباسي قد غادر الكرة الأرضية ، وتبخر فى الجو ...

لكن رغم كل ذلك ، لم يفشل البشير ، ولم تحدثه نفسه يوما ، أن يترك البحث ويعود الى الراحة ، بعد أن يؤكد لنفسه أن العباسي قد مات ، ولا رجعة له ...

وبينما كان البشير ذات يوم ، يتناول وجبة طعام ، متواضعة ، فى محل شعبي داخل حي فقير ، اذ به يلاحظ من مكانه عبر الباب ، محلا تجاريا ، يبيع منتوجات الصناعة التقليدية ... من زراب الى برانس ، الى أشياء أخرى عديدة ... وقد لفت انتباهه شيء صغير ... فهو لم يتعرف على صاحب المحل الذي يناهز الخمسين ، اذ انه يراه لأول مرة ... وانما لاحظ على جانب الباب الخارجي للمحل المذكور ، مجموعة من الأحزمة النسائية ، متدلية ، ومعروضة للبيع فتوقف البشير عن الأكل ودفع الثمن المطلوب ، وخرج ، واتجه فورا الى المحل التجاري ... راح ينظر الى الأحزمة المعلقة ، بعين فاحصة ، فلم يكفه ذلك ، فلمس أحد الأحزمة ، وراح يقلبه ويدرسه ... وبينما كان هو يفعل ذلك ، كانت بسمة عجيبة ترتسم على صفحة وجهه ... وجهه المغطى بالشعر ، الناتىء عظام الوجنتين ، الغائر العينين ، المصفر السحنة .

رآه صاحب المحل يفعل ذلك ، فلم ينهره ، وان كان واحد آخر ، لنهره وطلب منه عدم العبث بالسلعة ... لكن البشير كذلك

PDF Eraser Free

لم يطل البحث والتدقيق ، فدلف الى داخل المحل وقال محيياً :

ـ صباح الخير يا أخي .

وحينما رد صاحب المتجر التحية ، قال وهو لا يدري كيف يبدأ الكلام :

ـ أريد أن أسألك يا أخي عن هذه الأحزمة المعلقة فى المدخل ... تلك الأحزمة ـ مشيرا بيده ـ .

أجابه التاجر :

ـ انها صناعة جيدة ، وتناسب النساء من مختلف الأعمار ... وهي شديدة ولا تتأثر بشيء ... ثم بالاضافة الى كل ذلك ، انها ليست غالية ، فثمنها متواضع ، فى متناول الجميع .

أدرك البشير مقصد التاجر ، فأوقفه عند حده ، وقال :

ـ على كل حال انها أحزمة رائعة ، لكن الشيء الذي أسأل عنه هو من أين جاءت ؟ ومن صانعها ؟

تردد التاجر قبل أن يحاول الجواب ، لكنه أفصح :

ـ انها جديدة تحصلت عليها منذ أيام قليلة ... والذي أتى بها الي هو أحد الصناع المهرة ، الذين يتفننون فى صناعتهم أي تفنن ...

اقترب التاجر من حل « اللغز » ، لكنه لم يكمل ، فسأله البشير من جديد :

PDF Eraser Free

ــ وما اسم هذا الشخص من فضلك ؟ فلربما أعرفه ...

ــ للأسف لا أعرف اسمه ... ولست أدري لماذا لم أسأله عن اسمه ... قلق البشير ، فسأل :

ــ هل تستطيع أن توصفه لي ؟

لم يدرك التاجر مقصد البشير ، فذهبت به الظنون ... فقال يتصنع الخشونة :

ــ ولماذا كل هذه الأسئلة يا أخي ؟ أتريد أن تشتري الأحزمة أم لا ؟ هذا هو عملي هنا ، وليس غير ذلك ... فاذا أردت أن تعرف من هو صانع هذه الأحزمة فما عليك الا أن تنتظر ، فسيعود الرجل عند منتصف النهار ، حاملا معه أحزمة أخرى أجمل وأروع من هذه .

لم يرد البشير أن يسيء علاقته مع التاجر ، بعد أن توصل الى ما يقربه من حل أزمته ... فقال موضحا :

ــ اني ، أسأل عن صانع هذه الأحزمة ، لأني أبحث عن شخص ، عن أخي ... فقدناه منذ مدة طويلة ، ولم نره الى حد الآن ... وقد عرفت من هذه الأحزمة ، من شكلها وطريقة صنعها أنها لأخي ، وليست لأحد غيره ... ولهذا فاني سألتك عن صانعها ...

تعجب التاجر من قصة البشير ، فسأله بسرعة :

ــ وكيف عرفت أن هذه الأشياء من صنع أخيك ؟ ..

PDF Eraser Free

لم يضطرب البشير ، وانما قال للتاجر :

ــ اقترب من الأحزمة وانظر الى الأسلاك البيضاء مثل الفضة ، التي تمسكها فى عدة مواضع ، ألا تلاحظ من طريقة لف هذه الأسلاك أن صانعها رجل يعمل بيده اليسرى ؟ أنظر اليها جيدا ... انها من صنع اليد اليسرى ... لأنها لو كانت من صنع اليد اليمنى ، لاتجه السلك الى الجهة الأخرى ، وتستطيع أن تسأل العارفين بهذه الصناعة ، اذا لم تصدقني ..

لم يدرك التاجر شيئا من تفسير البشير ، فلم يقبل ولم يرفض، لكنه راح يفكر ويتذكر :

ــ « كيف كان السيد ، صاحب الأحزمة ؟ هل كان يستعمل يده اليسرى حقيقة ؟ . اني لا أتذكر شيئا . »

ثم قال بعد ذلك :

ــ أنا والله لا أفهم شيئا من هذه الأمــور ... واذا أردت ، فسننتظر قدوم الرجل لقد أخبرني ، أنه سيرجع عند منتصف النهــار ...

فوافق البشير وقال :

ــ وأثناء فترة الانتظار ، سأروي عليك القصة كاملة ، حتى تساعدني فى عملي ، حينما يرجع أخي .

فقبل التاجر طلب البشير ، وقال :

ــ هذا أفضل ... وان لي لرغبة شديدة فى الاطــلاع على القصة كاملة ... وسأحاول اعانتك قدر المستطاع ...

PDF Eraser Free

وعند منتصف النهار استعد البشير لمقابلة العباسي ... وكانت كل خلايا جسمه تضطرم وتضطرب ، كأنه سيلاقي شيئا عجبا ... فراحت عيناه ترقبان مدخل المتجر ، وتتبعان كل حركة أمامه ... وفى كل مرة تحدثه نفسه :

ــ « ها هو آت ... انه هو دون شك ... كيف يمكن لي معرفته ؟ فلربما تغير كثيرا ، ولن يعود بقدرتي التعرف عليه ... أو ربما لن يستطيع هو معرفتي ... آه ، متى سيأتي ؟ »

لكن الموعد حان ، ولم يأت العباسي ... هل غير رأيه ؟ فلم يرد العودة الى المتجر ؟ ربما ... لكن البشير بقي ينتظر ، وهو يقول لنفسه :

ــ « الآن ، وقد حصلت على أثر منه ، يجب علي أن لا أتحرك ، الى أن أراه وألقاه . اذا كان الآن قد تأخر قليلا ، فسوف لن يطيل غيبته كثيرا ... فالعباسي اذا قال ، سأعود ... فانه سوف يعود فعلا ... أنا أعرفه . »

وفجأة ودون سابق انذار ، صاح التاجر ، وهو يعين شيئا بسبابته خارج المحل . ــ ها هو الرجل ... ها هو الرجل ...

اضطرب البشير ، ولم يعرف أين ينظر ، فقال :

ــ فى أي جهة يا أخي ؟

فأجابه التاجر وهو يرفع له سبابته :

ــ مع اصبعك ... انظر مع اصبعك ... انه ذلك الرجل القادم الذي يمشي فى الجهة اليمنى ...

PDF Eraser Free

نظر البشير جيدا ، الى الجهة المذكورة ... وعرف أخاه ... ولكنه ما كاد يلمحه ، حتى أحس أنه يكاد ينفجر من السرور ، ويكاد يطير من الفرح . فوقف ليستقبله ... لكن التاجر رأى رأيا آخر ، فقال :

ـــ والآن وقد لمحته ، فالأحسن أن تختفي أنت ، ولا تفاجؤه بوجودك هنا . فلربما يخرج بسرعة ، ويغيب عنك ، وتفقده من جديد ... أتركني أمهد لك السبيل ، ببعض الكلام ... فتوارى فى احدى الجهات ، ولا تحاول الظهور الا بعد أن أناديك وأطلب منك المجىء ... هل فهمت ؟

فوافق البشير على هذا الرأي ، واستحسنه ... فاختفى وراح ينتظر . .

وما هي الا فترة قصيرة حتى دخل العباسي المتجر ... فصافح الرجل ، وقال :

ـــ لقد جئتك ببعض الأحزمة الأخرى ...

وبسرعة أخرج مجموعة من الأحزمة ، وأكمل حديثه :

ـــ وهي كما ترى أجمل وأمتن من الأولى ... لقد صنعتها بدقة متناهية ، وأنا الآن لا أطلب فيها ثمنا أعلى من الثمن السابق ... وانما كل ما أوده هو أن تدفع لي الثمن حالا ولا تتأخر به ...

أخذ التاجر الأحزمة ، وفحصها بدقة ، كأنه يفحص الذهب ، ثم ابتسم وقال :

ـــ سامحني ، ان كنت سأقلقك بهذا السؤال ، هل أنت ماهر فى هذه الصناعة منذ القديم ؟

PDF Eraser Free

لم ير العباسي سببا للقلق ، من هذا السؤال ، فقال :

ـ نعم ... منذ القديم ...

ـ ولكن حسب ما أرى ، أقصد طريقة لف هذه الأسلاك ، انك تعمل بيدك اليسرى أليس كذلك ؟ اني أعرف هذه الأشياء ... فلا تخاف علي ...

تعجب العباسي من فطنة التاجر ، فضحك وقال :

ـ ان ما تقوله لصحيح .

لكن التاجر لم يكتف بهذا ... فسأل من جديد :

ـ واذا سمحت لي أن أسألك مرة أخرى ، فهل يمكن لي أن أعرف ، لماذا تعيش من هذه المهمة ؟ فحسب ما أرى ، انك لست من سكان هذه البلدة ... فالسكان هنا ، لا يعرفون هذه الصناعة ... انهم يصنعون أحزمة أخرى ليست على شاكلة التي تصنعها أنت . فما الذي دفعك الى أن تأتي هنا ، وتمارس هذه التجارة ؟

لم ير العباسي لزاما عليه أن يخبر الرجل بالدوافع التي دفعته الى المجيء الى هذه البلدة ... فاستنكر هذا السؤال ، وهذا الفضول ، وقال باختصار :

ـ أتشتري الأحزمة أم لا تشتري ؟

فأسرع الرجل بالجواب :

ـ طبعا ، طبعا ... سأشتريها ... وهل سأفرط فيها ؟ انها تحفة

PDF Eraser Free

رائعة ، لن أتركها تقع في يد تاجر آخر ... ولكن لماذا هذا التسرع، وهذا الاضطراب ... ؟

ـ أنا لا أفهم ماذا تريد أن تقول ... فافصح .

ـ أتطلب مني الفصاحة ، وأنت غير قادر على ...

ـ قل ماذا تريد ، يا رجل ، ولا تتلاعب بي هكـذا ... اني أصغي لـك .

ـ ان ما سأقوله لك هو شيء هام للغاية ، ويعنيك بصفـة خاصة ... ولكن هل توعدني على الصبر ، والاحتفاظ به ...

ـ أعدك ، ولكن أسرع ...

فاستعد التاجر وقال بكل ثبات :

ـ الحقيقة يا بني ، اني أعرف عنك كـل شيء ... نعم اني أعرف عنك كل شيء .

ـ ومن أخبرك عني ؟ اني لا أعرف أحدا في هذه الناحية .

ـ بل انك تعرف أحد الأشخاص ... وهو الآن موجود هنا ... ولكن لا تذهب بك الظنون الى أنا ... فلست أنـا ذلـك الشخـص ...

ـ حسبتك أنت ... ولكن من هو هذا الشخص الغريب الذي أخبرك عني ؟

ـ انه ليس بشخص غريب عنك ... بل انه أقرب الناس اليك .. نعم انه أقرب اليك ... فكر وستعرف من هو .. ان اللغـز ليس صعبـا .

PDF Eraser Free

لم يقدر العباسي على الصبر والصمود أمام هذا التلاعب ، وهذه السخرية :

ـ انك تسخر مني يا رجل ... فما معنى هـــذه الأحاجي ؟ لنعود الى الأحزمة ، أتشتري أم لا ؟

ـ أصبر قليلا يا أخي ... سأوضح لك كل شيء اذا كنت غير قادر على الوصول الى الحل .... ان الشخص الذي كنت تبحث عليه فى ذهنك ، ولم تعثر عليه ، هو بكل بساطة ، أخوك ... نعم أخوك البشير ...

لم يترك التاجر فرصة للعباسي حتى يفكر بمهل ، ويتصرف تصرفا معينا ... فنادى :

ـ تعال يا البشير ، تعال .

وظهر البشير ، أمام العباسي ، الذي أذهلته المفاجأة ، فلـــم يحرك ساكنا وبقي يرنو بعيون مفتوحة على أشدها ...

وبكل بساطة تقدم البشير ، وأخذ يده ثم سلم عليه ، وقال :

ـ الحمد لله ، اذ وجدتك ... كنت أظن أني لن أعثر عليك ... أخي العزيز سامحني ان كنت أنا السبب فى هجرك ... ان الأهل فى انتظارك ... وهم يكادون يموتون هما عليك ...

رأى التاجر أن البشير لن يقدر على الافصاح على كل شيء ... فراح ينجده وهو يمسكهما الاثنان :

ـ الحمد لله ، الذي جمع شملكما ... اني مسرور سرورا

PDF Eraser Free

كبيرا للقائكما ... فالصفقة التي أجريتها اليوم ، قد بهرتني وأسعدتني ... فارجعا الى أهاليكما ، لقد انتهى كل شيء ... فليغفر كل واحد لأخيه ، ويطلب منه السماح ...

بقي البشير يمسك بيد العباسي ، برفق ... وكانت نفسه تحدثه ، أنه لو حاول العباسي ، جذب يده ، وتخليصها منه ، ثم التصميم على عدم العودة معه ، لجعل حدا لحياته ، ولهذا العذاب الذي يعاني منه ... لكن العباسي لم يجرأ على جذب يده ... وكانت نفسه تحدثه بأنه من المخزى أن يحاول ذلك . بل لقد عاتب نفسه ... وقال أنه لم يكن من اللزوم تعذيب البشير الى هذه الدرجة المرثية ... الى هذه الدرجة التي جعلته ، لا يكاد يعرف ... ممزق الثياب ، هزيل الجسم ، يكاد يسقط من فرط العياء والجهد ... ان المكان الذي يلزم البشير ، هو العيادة ، للتداوي والراحة ... ويجب الاسراع فى ذلك ، والا فات الأوان، ولن يفيد شيئا بعد ذلك ... واذا مات نتيجة لهذا فسيكون هو السبب الوحيد لذلك .

احتضن الرجلان بعضهما ، وقال العباسي وهو لا يكاد يرفع بصره :

ــ ان السيد يقول الحقيقة يا البشير ، هيا بنا نرجع ... لقد انتهت المهزلة ، نعم لقد انتهت الى الأبد .

رجع البشير برفقة العباسي ، لم يكن أحد من الناس يتصور مدى سروره ومدى ابتهاجه ... فكأنه جاء بالفردوس فى يده ...

PDF Eraser Free

وعندما وصلا الى الدار ، اندفع الأهل نحو العباسي يحتضنونه، ويسلمون عليه ... وبقي البشير ينظر الى هذه الصورة بقلب كله غبطة وسرور ... لقد استطاع أن يعيد لهم العباسي ، العمود الأساسي الذي يدعم سقف الأسرة ، والرجل الذي لا يستغنى عنه ...

وبقي البشير يزاول مختلف الأعمال فى أرضه وأرض أخيه . وكان لا يبخل بجهد ، خاصة وقد أعجبه هواء القرية النقي ...

وكان يعارض دعوة الأسرة فى الذهاب الى احدى العيادات للفحص والتداوي .... وكان يقول فى كل مرة :

ـ اني أسير نحو الشفاء التام ... ألا تلاحظون الدم فى وجهي صافيا ؟ اني لا أشعر بشيء من الآلام ... اني بخير ...

ـ تمت ـ

PDF Eraser Free

فهـــرس الفصـــول

الفصل الأول	5
الفصل الثاني ..	13
الفصل الثالث ..	39
الفصل الرابع	61
الفصل الخامس ..	91
الفصل السادس	121
الفصل السابع ..	141
الفصل الثامن ..	163
الفصل التاسع	183
الفصل العاشر ..	213
الفصل الحادي عشر..	241

PDF Eraser Free

عام الكتاب ١٩٧٤

www.ibtesama.com/vb

PDF Eraser Free

-